عشاق الصحراء

المطبعة: طوب بريس الرباط

الطبعة الأولى:1433هـ- 2011م

الإيداع القانوني: 2011MO

زبيدة هرماس

عشاق الصحراء

1433 هـ - 2011م

وقفت كتيبة من الجنود الإسبان أمام خيام الصحراويين المحتفلين، ثم أمروا فورا بإسكات أهازيج العرس التي هزت المكان وتناغمت مع أصوات بعض الرياح الخفيفة التي تنسدل على ظلام ليلة دافئة، نزل الكولونيل مانويل من على الناقة التي أناخها احد الصحراويين الذي يعمل مترجما فقال بصوت عال :

- آمرك أن تسكت هذه الأصوات المزعجة، هذا تجمع للصحراويين المتمردين على إدارتنا، إنه ليس عرسا... أ... أنا على يقين من ذلك.

كان زعيم القبيلة ينظر إليه وقد زاد احتقاره للمستعمر المستكبر أكثر من أي وقت مضى وقال :

- لست ملزما أن أثبت لك أنه عرس، ولكنني أشعر أنني حر على أرضي وفي وطني، ولا يحق لك أن تقف هنا لحظة واحدة، المرجو أن تسوق هذه الدواب إلى مرابضها، وتخرج فورا من هذه البلاد... اخرج من بلادنا... ألا تسمع ؟

توجه نحو الجنود ثم قال :

- عودوا من حيث أتيتم... عودوا من حيث اتيتم... لا مكان لكم هنا.

أمسك زعيم القبيلة بخطام الناقة وخضه خضا، ثم التفت فجأة نحو المترجم وقال ساخرا :

- لو حدثتك هذه الناقة، لأخبرتك أنها ترفض أن يمتطيها الغرباء...و... ومن يبيعون وطنهم.

أحنى سالم المترجم رأسه، بينما رد الكولونيل مانويل متجاهلا :

- هذا يثبت لي حقا أن هذا ليس عرسا، إما أن تصدر أوامرك بإيقاف الحفل حتى نفتش المكان ونجري بعض التحقيقات وإما... قياما بواجبنا... سنفعل نحن ذلك نيابة عنك .

- قال زعيم القبيلة بنبرة قوية :

- واجبكم ؟ أ...أيها المتعجرف، لن أسمح لك بتحويل يوم فرح إلى حزن، قلت لك ستنصرف، وفي الغد يمكنك أن تفعل ما تشاء، أنت تعلم أننا نرفضكم ونزدريكم.

كانت الرياح تتلاعب بالقنديل الضعيف الذي ما لبث أن انطفئ ، فقال شيخ القبيلة بلهجة الواثق :

- ارحل من هنا فورا، واعلم أن قناديلنا أيضا ترفضكم وتأمركم بالرحيل، الأنوار تترك فرصة للظلام إلى حين.

ركل الكولونيل القنديل بقدمه حتى تناثرت حبات الرمل على الوجوه التي حمل ضوء القمر ظلال ما حولها، ثم انحنى يطل من تحت الخيام دون أن يستطيع اتخاذ قرار بالهجوم أو إثارة الشيخ الغاضب أكثر مما فعل، كان يخاف التعرض لمفاجآت قد لا تحمد عقباها.

همس لرفيقه وهو يفتل شاربيه قائلا :

- لدي شك كبير... لست أدري... شعور يعتريني أنهم مختفون في مكان قريب ويراقبوننا بدقة... هذا ليس عرسا.

قال له رفيقه :

- سيدي الكولونيل، لقد طفنا بالمكان وتيقنا أنه عرس حقيقي، وأكثر من تحت هذه الخيام نساء، نفر قليل من الرجال الشيوخ هم الذين يربضون تحت هذه الخيمة الشاسعة، تقدم إن شئت وسترى بنفسك.

قال الكولونيل مانويل :

- حسنا، وأين هو العريس.

ضحك الجندي وقال :

- إنه شيخ القبيلة نفسه... أ...أجل يا سيدي الكولونيل...العريس يقف أمامك الآن.

فغر الكولونيل فاه وقال :

- هذا لا يصدق... هذا لا يصدق... أ...هكذا إذن، أأنت هو العريس حقا؟ أ... سأحترم حفلتك... تتزوجون، ثم تلدون، وترسلون أبناءكم لتفجير إقاماتنا و ثكناتنا، أيها الأوغاد... سألاحقكم ليلا ونهارا، وقد اخترت أجود النوق للسباحة في هذه الصحراء الشاسعة.

رد الشيخ غاضبا :

- أنت من أتى لاستعمار أرضنا، ومن حقنا الدفاع عن أنفسنا.

قال المترجم للشيخ وهو يلوي خطام الناقة لتقوم بعد أن استوى عليها الكولونيل الغاضب :

- سيدي، أرجو أن تتوقف عن استفزاز الكولونيل مانويل، أنا لم أترجم له جملتك الأخيرة.

- اخرس أيها العميل، هذا من خيانتك له، تماما كما تخون بلدك، أرجو أن لا أرى وجهك ثانية، وأحمد الله أن أمثالك يعدون على رؤوس الأصابع.

أحنى سالم المترجم رأسه وقال :

- بودي أن أقبل يدك لأثبت لك أنني منكم ومعكم... ولكن... سيدي... لقد حجزوا زوجتي وأبنائي في بوجدور، وعزلت عن عشيرتي وأهلي.

- نظر إليه شيخ القبيلة نظرة ملؤها الازدراء، ثم ولى ظهره منحيا نحو الخيمة الشاسعة التي ضمت الكثير من المحتفلين، بينما انطلقت قافلة الجنود الاسبان المدججين بالأسلحة الخفيفة تمخر عباب الصحراء، كانوا ينوون تحويل العرس إلى مأتم يردع كل المقاومين، والانتقام لما حدث في العملية الأخيرة من فتك بالجنود الاسبان فيما يطلق عليه حرب العصابات.

لم يقتنع الكولونيل بالعودة دون الظفر بأعدائه، وظلت فكرة الانتقام من المقاومة تلاحقه، يشعر أن ثأرا بداخله يهزه هزا، ويلح عليه في التحرك لتتبع الأعداء حيثما حلوا.

دلف شيخ القبيلة إلى داخل الخيمة، وتحلق حوله العديد من المقاومين المتخفين بزي النساء، كانت أصوات الأهازيج تخرق صمت الصحراء، وتلاحق سمع الكولونيل ومرافقيه الذين اختفوا وراء الكثبان، قال أحد المقاومين وهو يضحك :

- كاد جزء من لحيتي يبرز تحت الخمار... أ... لولا أنني تداركت الأمر فصرت أرقص وأنا أحرك رأسي جهة اليمين وجهة الشمال حتى لا يظهر شاربي...ههه...

ضحك الجميع ضحكا عاليا ثم قال شيخ القبيلة :

- سنتم اجتماعنا الآن ثم نرحل من هنا فورا، لدي يقين أن هذا الوغد سيلاحقنا، سنتوجه نحو البحر، فما هو رأيكم ؟

- لماذا يا سيدي ؟ سفنهم ترسو في المكان محملة بالأسلحة والذخيرة، إنهم عازمون على إفنائنا وتطويعنا قسرا.

قال آخر :

- أجل سيدي، هذا صحيح، وكثير من أنشطتهم متمركزة بحرا... على الساحل... وقد قتلوا عديدين من أجل حمايتهم هناك... أ... أ... أخشى...

قاطعه أحد المقاومين الذين كانوا يضربون بالدف وهو يفرك أصابعه قائلا :

- - يتهيأون للاحتفال بذكرى قدومهم الظالم إلى أرضنا.

قال آخر :

- اجل سيدي، تاريخ تمركزهم هناك طويل وقوي أيضا، ويحتاج منا لعدد وعتاد أكبر.

رد الشيخ برباطة جأش :

- أرى أن نهاجم احتفالهم إذا وافقتم، ولا ندع لهم جفنا يغمض.. هي أرضنا، ونحن أهلها، بسمائها وبحرها... عملية بسيطة ستزرع الهلع في نفوسهم، ثم نتقدم، ليس أمامنا خيار إلا المقاومة... أو.... أوالاستسلام.

كان شاب صغير السن يحاول إزاحة ملابس العرس النسائية عن كتفيه وهو يقول بحماس :

- إذا قررتم إرسال مجموعة للتقصي، فإنني أتمنى أن أكون واحدا من أعضائها، أظن أن التصدي لهذه الشركات المهووسة بجمع الأموال على حسابنا هو واجبنا، وإلا فستلتهمنا جميعا، أنا ابن هذه المنطقة، ومنذ ان تفتحت عيناي، وانا أراهم يفدون على بلادنا كما يفد الجراد على الخضرة فيحولها إلى يبس جاف.. حرمت من اللعب إلى جانب الواحة التي تشكل شريان حياة لعدد من القبائل.

قال آخر :

- الرغبة في توسيع النفوذ الاستعماري، والحصول على الربح التجاري و... وتطويعنا صاغرين... هذا لن يكون أبدا... لن يكون أبدا.

ابتسم الشيخ وقال وهو يدير رأسه نحو مجموعة من الشباب المقاومين :

- وما الذي تقولونه أنتم ؟

- أجل سيدي، نتوجه نحو الشاطئ كما ذكرت، فهو قلبهم النابض،إنهم أقاموا عليه من سنين جسرا عائما.... أجل... في خليج وادي الذهب، تصدر منه ثرواتنا السمكية، وتستقدم الدخائر والقنابل.

قال شيخ القبيلة وهو يهم بإنهاء حفل العرس الوهمي :

- غدا قبل الفجر بحول الله، سنرحل من هنا نحو أقصى الغرب، سنتوكل على الله، ونحمل معنا الأمل في النصر.

صمت قليلا ثم قال وهو يعقد أصابع يده ويرفعها إلى فوق:

- ستشحذون أسلحتكم وتستعدون للمقاومة...أسلحتكم الضعيفة... وإيمانكم القوي...ا... أ... التحدي يصنع الخوارق.

قام من مكانه وودعهم وهو يردد :

- لا تنسوا... إنهم جادون في احتلال وطننا و اكتساب عطف قبائلنا.

عاد خطوات قليلة إلى الوراء ثم قال وهو يخرج من جيبه ورقة قديمة مكتوبة بالاسبانية :

- تذكروا جيدا، هذه الورقة عثرنا مؤخرا عليها في جيب الجنرال الذي أسر في إحدى عملياتنا الأخيرة، وهي قديمة جدا، فيها أن التنسيق الرسمي والشعبي جار لاستعبادنا...

طوى الورقة بعناية وأردف :

- لا يسبقنكم جنود المستعمر إلى خيرات أرضكم... قبل أن تناموا، احشذوا قلوبكم بالأمل بالنصر.

رفعوا كلهم أيديهم بالتحية لشيخهم الذي يترأس كتيبتهم، ويتزعم قبيلتهم، ويسهر على شؤونهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وقد بدا عليه بعض التعب فقال هامسا :

- قوموا لتخلدوا إلى بعض الراحة، سنسير قبل الفجر بحول الله نحو الشاطئ.

كان أحد الشباب الذي تقمص دور العروس يغير ملابسه بعد أن شد عليه سلاحه الذي لا يفارقه، وينزع قلائد الزينة التي طوقت عنقه وهو يقول :

- ستلحق بنا المجموعة الأخرى عندما تتم تحرياتهم حول تحركات رجال الأعمال الاسبان وجنودهم.

ردد الشيخ وهو ينصرف قاصدا الخيمة المجاورة :

- رجال الأعمال الاسبان... أي أعمال هذه التي تنشر الرعب في صحرائنا الآمنة ؟

قام بعضهم ليسلم عليه، بينما استدار يمينا نحو مخدعه ليخلد إلى الراحة.

لم يتوقف الكولونيل عن إبداء تخوفه لأعضاء كتيبته، يهدد تارة ويتوعد أخرى إلى أن قال أحد مرافقيه بصوت متقطع :

- اعذرني يا سيدي الكولونيل، أرى أنك بالغت في خوفك من هؤلاء البدو، مجرد خيام بسيطة هنا وهناك، وكل همهم هو البحث عن الماء والكلأ، يحدثون نوقهم أكثر مما يحدثون أنفسهم.

- اصمت يا خوسي، ما فعلوه في فيلا سيسينروس منذ أن وطئت أقدام الاسبان العظماء هذه الأرض إلى اليوم... أقصد... إلى العملية الأخيرة التي قضى فيها الكثير من جنودنا البواسل، ينذر بمقاومة عنيفة تلاحقنا، لكنني واثق أننا سنسحقهم، وسنظل هنا إلى الأبد.. أجل...فيلا سيسينروس كانت عاصمة انطلاقنا إلى باقي الأقاليم، وهي مازالت قائمة إلى اليوم، لقد تم تعميرها وجلاء هؤلاء المتمردين الذين خربوا عددا من مخازن الشركات بهجوماتهم المتناسلة، هذه الهجومات... سنستمر على خطى الذين سبقونا في قطع وريدها.

قال خوسي مساعد الكولونيل :

- إن اسبانيا العظيمة سترسل قوة بحرية جديدة إلى جزر الكناري لتقوية سيادتنا على الشاطئ الغربي لأفريقيا، أتمنى يا سيدي الكولونيل أن نلحق بها، فقد ضاق صدري بملاحقة هذه الخيام التي لا قرار لها.

قال الكولونيل مانويل :

- لا تبدو ضعيفا هكذا يا خوسي، يجب ان تعلم أن الحروب النفسية تسبق العسكرية وتتحكم في مسارها.

- أجل سيدي مانويل... أجل...

- هذه الخيام يا خوسي تحمل بداخلها الكثير من المؤامرات على تواجدنا...و...و علينا تطويع هذه القبائل باللين والعنف في آن واحد... من أجل التمكين للنفوذ الاسباني...

قال خوسي :

- لست متشائما، فمنذ مجئ الشركة الاسبانية ومجدنا يحكم قبضته ويتوسع شرقا وغربا، لقد غدت هذه الشركة حكومة مصغرة تقبض بزمام القبائل الصحراوية ولكن...

- ولكن ماذا يا خوسي العزيز... تعلم أن تكون صبورا.

- قلت أنني لست متشائما سيدي الكولونيل.

- أجل يا خوسي، لو قدرنا على استدراج ذلك الشيخ العنيد إلى توقيع اتفاقية ما، لحصلنا على ترقية هامة.

- الترقية ؟ لا... لا...لا أريد غير السفر إلى بلدتي لرؤية ماريا وإيزابيلا... آه.. ابنتاي، لكم أشتاق إليهما.

- خوسي.. أنت في الميدان !

- معذرة سيدي، أنا في هذه الصحراء منذ مدة طويلة و..

قال الكولونيل مانويل مزمجرا :

- توقف يا خوسي ولا تدع الهزيمة تدب إليك، انتبه... أحذرك... نحن هنا أبد الدهر، وفرنسا تتقاسم معنا النفوذ شمالا وجنوبا، المفاوضات مع حكومتنا المجيدة على قدم وساق، لقد رفع علمنا الخفاق فوق رؤوس أصحاب هذه الخيام... وأنت...أ... تحدثني عن عواطفك ؟ سنبقى هنا إلى الأبد... أتسمع ؟ إلى الأبد.

أحنى خوسي رأسه وكتم شوقا بداخله وقال بصوت متقطع :

- أنت محق يا كولونيل، نحن نبحث عن المال والنفوذ، واسبانيا تتوسع وتحصل على المزيد من الامتيازات، وسيكتب التاريخ أننا من مهد لذلك، هذا شرف عظيم يا كولونيل.

أمسك الكولونيل بنظارته، وصوبها نحو عينيه وقال متنهدا :

- أشعر يا خوسي أن أولئك الصحراويين المتمردين لا يحتفلون بعرس، وإنما يدبرون أمرا للتآمر علينا، سنلحق بهم، ونفجر خيامهم قبل أن يزحفوا نحونا من جديد.

رد خوسي وهو يبتسم :

- ستمضي يا كولونيل ليلتك مطمئنا لأنني... ببساطة... متأكد أنه عرس، وقد عاينت الاحتفال بنفسي.

نظر إليه الكولونيل ساخرا وقال :

- هل رأيت العروس ؟

- أجل يا جنرال.

- هل هي صغيرة السن ؟...أ... أ... هل هي جميلة ؟

ضحك خوسي وقال هامسا :

- سيدي... كانت تلف أكواما من الثوب حول رأسها، وما رأيت وجهها، الصحراويون يبالغون في التواري والتلثم... وهذه طبيعتهم، يغطون وجوههم حتى وهم يرقصون...ههه...

قال الكولونيل غاضبا :

- يغطون وجوههم ؟... يغطون وجوههم ؟... أرأيت ذلك بنفسك ؟... يا إلهي... هذا ما كنت أتوقعه.

- ماذا كنت تتوقع يا سيدي الكولونيل ؟

أزاح مانويل قبعته وصار يمسح عرقا كثيفا عن جبهته وقال :

- آه... خوسي أيها المغفل... أيها الأحمق الساذج... هؤلاء متمردون... يغطون وجوههم ؟...قلت يغطون وجوههم ؟ هل تأكدت من ذلك ؟ يا إلهي، إنهم يخفون لحاهم وراء تلك الأثواب الكثيفة، اللعنة... اللعنة، أين هو سالم المترجم ؟.. سالم... سالم...

جاء سالم مهرولا وقال :

- سيدي الكولونيل، ماذا هناك ؟

رد الكولونيل مانويل بصوت متقطع :

- قل لي يا سالم، عندما دخلت مع خوسي خيمة العرس، هل تفرست في ملامح الحاضرين كلهم ؟ النساء منهم بالخصوص ؟

قال سالم وهو ينظر إلى الكولونيل نظرة حائرة :

- كانوا من عائلة واحدة منتشرة في تلك الخيام الواسعة.

قال الكولونيل وهو يبلع كلماته :

- هل رأيت خيمة النساء يا سالم ؟ هل كانت وجوههن مكشوفة ؟

- المرأة الصحراوية يا كولونيل عادة تجعل وشاحا في الأعراس على رأسها، وربما لفته العروس على وجهها عند قدومنا نحن، ربما غطين وجوههن عند قدومنا، فهم يعتبرونكم يا سيدي الكولونيل مستعمرين أتيتم لخراب بلدهم...

صرخ الكولونيل وضرب الأرض بقدمه وقال :

- اللعنة... اللعنة...هذه شهادتك أنت أيضا... هذا ليس عرسا، سأظل أكررها ولو قدمتم لي ألف شهادة...أنتم أغبياء.

قال سالم واثقا :

- ومن أدراك يا كولونيل أنه ليس عرسا ؟

أمسك الكولونيل مانويل بكتف سالم ورجه قائلا :

- بل من أدراك أنت أنه عرس حقيقي ؟ الأنوار كانت خافتة جدا.

- اعذرني يا سيدي، أنت تغزو أناسا لم تتعرف بعد على الكثير من عاداتهم.

رد الكولونيل مانويل غاضبا :

- اغرب عن وجهي يا سالم، سأزحف إليهم قبل طلوع الشمس اللافحة، سأقوم بواجبي الوطني، وسأضبطهم وهم يحتفلون بهذا العرس الوهمي... أنا متأكد مما أقول.

قال خوسي :

- سيدي الكولونيل، ماذا لو عدنا ووجدنا أنه عرس حقيقي ؟ المتمردون سيستغلون الفرصة ويؤلبون علينا المزيد من زعماء القبائل، ويخبرونهم أننا أفسدنا عليهم ساعة فرح... إنهم يجمعون السلاح من هنا وهناك، وقد أخذوا بعض أسلحة جنودنا البواسل غنيمة في هجومهم الأخير.

قال الكولونيل :

- حتى ولو كان عرسا حقيقيا، سأنغصه عليهم ...يتزوجون، ثم يلدون، ولن ترى أمامك هنا إلا مزيدا من المتمردين الذين ينبتون في الرمل كما ينبت البقل على الأرض الخصبة ... اللعنة...

قال خوسي مترددا :

- يبدو لي يا سيدي الكولونيل أن أعصابك متوترة جدا، أتمنى أن تخلد إلى القليل من الراحة و... غدا... سنزحف إليهم من جديد... نحن مستعدون لذلك.

تنهد الكولونيل مانويل وقال :

- ليت الدبابات تستطيع الزحف فوق هذه الرمال المتحولة، تلك النوق بطيئة ومملة.

ابتسم خوسي وقال :

- المزيد من الاتفاقيات والقرارت الصادرة هناك في الظل بمدريد...أ... تعقد مسؤولياتنا على هذه الأرض القاحلة، خصوصا تلك التي تحث على تطويق دواخل هذه الصحراء، نحتاج إلى المزيد من الأمل...ههه... والإبل.

قال الكولونيل مفتخرا :

- ليس سهلا يا خوسي أن تدخل التاريخ من باب الأبطال والخالدين...

لم يتم الجنرال كلامه حتى سمع صراخا عاليا في مؤخرة القافلة، فتوقف مذعورا يترقب، وإذا بأحد جنوده يخر صريعا من فوق ناقته دون أدنى حركة، التفت يمينا فتراءى له تحت ضوء القمر خيال أحد المقاومين وهو يهم بالفرار وراء الكثبان الرملية فصرخ :

- هناك... هناك جهة اليمين، بسرعة أمسكوا به، لا تدعوه يفلت من أيديكم... هيا...بسرعة.

أخرج مسدسه وتأهب والغضب يفتك بأعصابه فصاح مجددا :

- أريده حيا... أنا بحاجة إلى استنطاقه فورا... أتسمعون ؟ أريده حيا.

أمسك الجنود بشاب ملثم في مقتبل العمر وقد التحف برداء أسود حتى يختفي ببراعة وسط الظلام، كان أحد الجنود قد أرداه قتيلا على الفور حينما أبدى مقاومة عنيفة لم تترك لفرصة القبض عليه حيا من سبيل، أخذ يجره على الرمال وهو يشتم بلغته الاسبانية كل الصحراويين و كل المقاومين.

قرب الكولونيل المصباح من الجثة وهو يزمجر غاضبا وقال :

- ليس لدي أدنى شك أن هذا البئيس من رواد ذلك الاحتفال الوهمي.

رد الجندي واثقا :

- أجل سيدي الكولونيل، هذا ما أظنه أنا أيضا... لا... بل أنا موقن من ذلك.

هتف الكولونيل مسرعا :

- كيف ؟ كيف ؟ هل تعرفت عليه ؟

- كلا... كلا... ولكن ثوبه يحمل رائحة البخور التي كانت تنبعث من تلك الخيام الخربة .

التفت الكولونيل باتجاه خوسي وقال :

- من سوء حظي أنني أرافق غبيا مثلك.

قال خوسي وهو يحني رأسه ويبتعد عن نور المصباح الزجاجي الذي يحمله:

- إذا رأيت يا سيدي أن نعود الآن... بالرغم... بالرغم من أننا قطعنا مسافة كبيرة، فأنا أوافقك وعلى أتم استعداد.

قال الكولونيل متحسرا :

- توافقني ؟ توافقني أيها الأبله ؟ ليتني أجهزت عليهم ولم أسمع كلامك، ليتني فعلت.

- عذرا يا سيدي الكولونيل، عذرا.

اقترب منه الكولونيل مانويل وجذب شاربه وقال :

- لولا أنك خدمت اسبانيا العظيمة بإخلاص طيلة هذه المدة، لأرسلتك إلى...

قاطعه خوسي وهو يترجاه :

- سيدي الكولونيل : أرسلني إلى الكتيبة التي ستواجه فلول الشيخ ماء العينين، وسترى مقدار وطنيتي ووفائي لك ولاسبانيا العظيمة.

أدار الكولونيل ظهره لخوسي وقال :

- أيها الجنود : مشكلتكم أنه يوجد من بينكم من يعتبر نفسه ضيفا على هؤلاء الصحراويين البؤساء، أنتم لستم ضيوفا على أحد، أنتم هنا لتصبحوا أهل هذه الأرض... لتبقوا إلى الأبد، خيامهم ومن فيها متاع لكم، ما فوق الأرض وما تحتها لكم، هذه الشواطئ الغنية ثروتكم أنتم، متى تفهمون هذا ؟ متى ؟

تقدم أحد المرافقين المتحمسين اسمه سيباستيان وهو ينزع عن جثة المقاوم ثوبه وقال :

- لن ندعهم يفعلون بنا ما فعلوه مؤخرا حين نكبوا الجنود واستولوا على أسلحتهم، سنعود إليهم الآن ونفتك بهم فتكا، يتظاهرون أنهم يحتفلون بعرس، ويرسلون من يقتل جنودنا ؟ دعني يا سيدي أفتك بهذه الجثة العفنة.

قال له الكولونيل :

- افتقدتك يا سيباستيان، هل خف المغص الذي ألم ببطنك ؟

- أجل سيدي.. دعني أفتك بهذا القاتل.

نظر إليه الكولونيل وهو يومئ برأسه موافقا لكي يتحمس الجنود للثأر، بينما جرد سيباستيان المتوتر جثة المقاوم الشاب من كل الأثواب، فبدا صدره عاريا، نظر إليه المترجم سالم نظرة مشفقة، وتحركت مشاعر الأخوة نحوه فقال والدمع في عينيه:

- سيدي الكولونيل، رجاء... دعني أدفنه، لا تدعه يمثل بجثته، فقد مات وليست لكم به حاجة.

قال مانويل متجاهلا :

- أيكون من قدري أن أصحب في جولاتي العسكرية المغفلين والعاطفيين وأنا من يدافع عن اسبانيا المجيدة ؟ اسبانيا العظيمة التي زحفت أساطيلها لترسو على ساحل منطقة الصحراء الغربية في وسط هذه البلاد من قديم، ووطدت قدمها الراسخة منذ سنين عديدة، فاستطاعت بحكمة نادرة، وجدارة فائقة أن تفصل بين الشمال وبين الجنوب الشاسع الواقعين تحت سيطرة سلطان البلاد... هذا هو الإنجاز الذي سيخلد ذكرانا و يجعلنا حلقة في تلك السلسلة المضيئة.

قال سيباستيان وهو ينظر شزرا إلى سالم :

- متى يفهم المتمردون ذلك يا مانويل العظيم ؟... متى ؟...

انتفخت أوداج الكولونيل مانويل، وشعر أنه بحاجة إلى التذكير بقيمته وقدره وسلطاته العسكرية فقال :

- اسبانيا انتدبتني لحماية نفوذنا، وليس غير ذلك، هيا اقطعوا رأسه واتركوا جثته العفنة في العراء ليكون عبرة لمن يشق هذه الطريق الوعرة طالبا أثرنا.

قال سيباستيان ونار الثأر تتأجج في قلبه:

- التمثيل بجثته هو أقل ما يستحق، ولكن سيدي انظر... أ... لقد عصب حزاما متينا حول صدره.

قال الكولونيل مانويل :

- ناولني إياه يا سيباستيان... هيا بسرعة لأننا سنعود من حيث أتينا... هيا... لقد أطلنا المكوث هنا، واحذر أن يكون ما على صدره بارودا ينفجر على وجهك يا أيها الجندي البطل.

انهمك سيباستيان في تمزيق الثوب المعصوب وهو يقول بلهجة الواثق :

- لا أظنه بارودا متفجرا يا جنرال، ربما تميمة أو ما يشبه ذلك... أ... أ... إنه مجموعة من الأوراق الصغيرة يا سيدي الكولونيل وسط هذا الثوب الملفوف.

- دعني أنظر إليها يا سيباستيان.

أمسك الجنرال بالأوراق التي ما زالت تحمل سخونة جثة المقاوم الفوارة، وقلبها بين يديه الباردتين وقال :

- جاء دورك يا سالم، أنت دليلنا الوفي، ومرافقنا في تحقيق مجدنا العظيم...أ... هذه الأوراق مكتوبة باللغة العربية، حروفها تشبه ما تركه العرب على جدران مدننا في اسبانيا، تفضل وأخبرني ماذا فيها، ربما هي رسائل ستدلنا على كنز معلوماتي مهم... أ...أتمنى أن تكون مفتاحا نستعين به في ضبط تحركاتهم.

تقدم سالم بخطى وئيدة والألم يمزق قلبه،وتناول الورقات الملفوفة بعناية كبيرة، ثم قربها جيدا من المصباح وقال وهو يتوجع :

- إنها سورة من المصحف الشريف، مجرد سورة... سورة الأنفال تحديدا، فأنا... فأنا أحفظها عن ظهر قلب، سأحتفظ بها يا كولونيل، تأكدت أنها ليست معلومات ولا بارودا متفجرا.

نزعها الكولونيل من يده ومزقها فورا وقال غاضبا :

- هذه أخطر من البارود نفسه، بهذه الكلمات تكسبون مناعتكم، بها غزوتم بلادنا قبل قرون، وأتمنى أن يحصل لي شرف تمزيقها في صدوركم قبل مكتباتكم.

نظر إليه سالم وقد ازدادت دهشته وقال :

- دعني أحتفظ بها، فهي لا تمثل لك شيئا...ولكنها تمثل لي الكثير.

لم يكترث الكولونيل بتوسلات سالم، ومزق الورقات بعصبية كبيرة، ثم داسها بقدميه وهو يزمجر كالأسد الغاضب.

حاول سالم حملها والحزن يشمله، إلا أن رياحا خفيفة سبقته وأرسلتها نحو تلك الهضاب الساكنة.

أخذ سالم يذرف دمعا غزيرا حتى سمع أنينه، فأمسك الكولونيل مانويل بذراعه بلطف وقال :

- سالم يا عزيزي، أنت صحراوي مخلص ولست مثل هؤلاء أ...أ... أنا لم أقصد إساءتك، عملت ما في وسعي لتسكن زوجتك وأبناؤك مع رجال الأعمال في إقاماتنا المريحة، لكي تطمئن عليهم وتشعر أنك واحد منا، إنهم آمنون ويتناولون أفضل الأكل... إنهم...

صرخ سالم عاليا وقال :

- إنهم رهائن في تلك المساكن الظالمة، خيامهم أكثر راحة وأمنا لهم، يكفي أنكم أرغمتموني على هذه المهمة القذرة، أشعر أن لعنة تلك الورقات المقدسة ستلاحقني...هاها...هاها...

قال الكولونيل متلطفا :

- سالم... إنها مجرد ورقات... اسمع ما سأقوله لك : سأجعل لك سكنا خاصا بك وبزوجتك وأبنائك، أحتاج لتجند صحراويين آخرين كمترجمين و...متعاونين... وسيزداد راتبك أضعافا.

رد سالم وقد ازداد ألمه :

- متعاونين ؟... متعاونين ؟... يا للخديعة... لا أظن أنك ستجد أسوأ مني في هذه الصحراء الشاسعة، اشعر أن الجمل الذي تركبه أفضل مني، فهو مشهور بالوفاء بين الحيوانات، وقد جعلتني يا كولونيل مشهورا بالخيانة... الخيانة بين إخواني... أحط من حيوان تركبه ؟ خيانة الدين وخيانة الوطن وخيانة قبيلتي... في آن واحد ؟ ليت أظلاف هذا الجمل تدوسني وسط هذه الرمال.

تقدم خوسي وناوله ماء ليشرب ويهدأ روعه وقال :

- نحن نعدك أن كتيبة المتعاونين السرية ستكون تحت إمرتك، لن ندعك متعاونا فحسب... بل...بل سنمنحك شرف زيارة اسبانيا وتقلد وسام كبير.

نظر إليه سالم نظرة حائرة، ثم أحنى رأسه وهو ينظر إلى كوب الماء تارة، وإلى الرأس المقطوعة تارة أخرى، ثم وقف ينظر إلى الأفق وهو يحدث نفسه قائلا : أيها الوطن العزيز، إلى متى سأشرب ماءك ؟ وأتنفس هواءك ؟ وأنا الذي يغمس نفسه في سرداب الخيانة والعمالة ؟ أعز ما لدي هو أنت...صدقني أيها الوطن...صدقني... فأنت لحد الآن تقبلني وأنا الذي لم أقبلك بعد...العتب علي... ها...ها... العتب علي.

كان الجنود قد حملوا قتيلهم الاسباني بلطف على ظهر الناقة والدم يسيل من بطنه، فقد استطاع المقاوم الشاب أن ينسل بهدوء وراء القافلة بعد مغادرتها مكان الاحتفال، وأرسل رمحا على هيئة سكين حديدي كبير نحو آخر الجنود الذين كانت مهمتهم تحسس أي خطر يلاحق القافلة من مؤخرتها، وباغته بضربة قاتلة لتكون رسالة إلى الكولونيل مانويل المتعجرف، يخبره فيها أن الصحراويين سيلاحقونه أينما حل وارتحل.

كان الطبيب العسكري المرافق للكتيبة قد نزع الرمح الصدئ من ظهر الجندي، فقد نفذ في أحشائه إلى حد كبير، وسلمه إلى الكولونيل الذي قال متأسفا :

- انظر يا سالم، انظروا أيها الجنود، هذه الحديدة يعقرون بها جملا متمردا، كيف يغرسه هذا الصحراوي الحقير في بدن أحد جنودنا البواسل دون أن يشعر به أحد ؟

لم يجب سالم بكلمة واحدة، وظل يشعر بحزن عميق يفتت ضلوعه، أمسك الكولونيل مانويل بيده وقال :

- إنهم يستعجلون موتنا.

سكت سالم برهة ثم قال بإصرار:

- سأعود لأدفن جثة هذا الشاب الصحراوي قبل أن ننطلق من هنا.

نظر إليه الكولونيل بامتعاض كبير، وهم بمنعه، إلا أن خوسي تدارك الأمر فغمزه وقال هامسا :

- سيدي الكولونيل، سالم هو دليلنا الآن في هذه الصحراء الشاسعة، ونور القمر وحده لا يكفي لنهتدي إلى حيث نريد.

توجه خوسي وهو ينظم كلماته لتهدئة سالم وقال مردفا :

- أظن أن سيدي مانويل الحكيم لن يمنعك من عمل كهذا.

قال الكولونيل وهو يحكم عقد خيوط حذائه :

- نحن لم نمنعه على كل حال، وهو يعلم جيدا أننا قررنا العودة للاحتفال مع الصحراويين بالعرس قبل متم الغد، أليس كذلك يا سالم العزيز ؟ يا مترجمنا ودليلنا الوفي ؟

صمت سالم وراح يمشي بخطى متثاقلة باتجاه الجثة، كان الرأس على بعد مترين تقريبا منها، بينما خرقت عدة رصاصات الصدر والبطن، لم تكن إلا رصاصات الكولونيل مانويل الغاضب،والتي أطلقها انتقاما منه بعد وفاته، فقد شعر أن الصحراويين يركبون التحدي لفداء وطنهم، ويحاولون عبثا إخراجه من بلادهم بكل ما أوتوا من القوة والعزم.

كان سالم يقرأ سورة الفاتحة على الشاب المسجى، ويحفر الرمال المتراكمة براحتيه المنهكتين، لم يكن سهلا أن يعمق حفرة تسع جثة رجل كاملة، ولكنه ظل متمسكا بمواراة الجثة حتى لا تتخطفها طيور الصحراء الجارحة، وفي قرارة نفسه أن تلك الأرض تتوق لإكرام ذلك المقاوم الشاب بضمه إلى صدرها، وهو أبسط حقوقه عليها.

كان يرى نفسه أقل من ذرة صغيرة من تلك الرمال المتموجة التي تتراقص أمام الرياح بكل حرية وكرامة، شعر بحقارة كبيرة بداخله، وتمنى لو كان مع المقاومين بدل أن يرافق هذا الكولونيل المغرور، كانت ورقة صغيرة من سورة الأنفال المكتوبة بالصمغ الطبيعي ما زالت في جيبه، قرر أن يحشوها بداخل ثوب المقاوم الذي نزعه الجنود قبل قتله فجعله كفنه، وقف لحظة ينظر إلى القبر، ثم صلى عليه صلاة الجنازة ودموعه تبلل وجنتيه، رجع خطوة إلى الوراء، فغرس عصاه جيدا فوق القبر، ودلف نحو القافلة وهو ينظر إلى الأرض الرملية التي تغوص فيها رجلاه غوصا.

كان الكولونيل ينظر إلى سالم وهويحاول أن يتمالك غضبه، وتعجب من قدرته الغريبة على حفر قبر بتلك السرعة، قال له خوسي بصوت حاني :

- سيدي الكولونيل، اعذرني، أرى أننا جرحنا مشاعره كثيرا، لو لم تمزق تلك الوريقات...

قاطعه مانويل قائلا :

- ههه... إنها...أشبه بأوراق علب الشاي المعتق الذي يتناولونه صباحا ومساء تحت تلك الخيام البئيسة...

- ولكنه يقدسها... ويوليها مكانة خاصة في قلبه، كما لو مزق هو صفحة مكتوبة من الانجيل... أو من دستور اسبانيا العظيم.

قال الكولونيل غاضبا :

- توقف يا خوسي، لن ندع هذا الحقير يضيع جهودنا ووقتنا، سنعود فورا للاحتفال بالعرس كما ذكرت.

توجه الكولونيل نحو الجنود قائلا بصوت مرتفع :

- أيها الجنود، سنعود من حيث أتينا، استعدوا فورا، لا تتأخروا ولا تتخلفوا.. احزموا جيدا أمتعتكم...هيا... وأنت يا خوسي، لا بد أن تكرم جثة جندينا الباسل ليتم دفنها عندما نصل إلى إقامتنا الحكومية...لا تنس أن تضع عليها صفحة الشرف الذهبية.

اقترب خوسي من سالم وهو يقول مستعجلا :

- سالم العزيز، لقد أتممت دفن الجثة في وقت وجيز جدا، يا لشطارتك ! تقدم... رجاء... رجاء حتى نرحل من هنا، ذرات الرمال تتلاعب بها الرياح تملأ ثنايا لباسي العسكري.

انهمك في نفض بدلته، بينما لم يلتفت إليه سالم، وظل يتلو بعض سور القرآن باتجاه القبر حيث وارى الشاب القتيل، وضع رأسه المقطوعة بمحاذاة عنقه كما لو كان حيا، كانت عيناه قد بزغتا له تحت نور القمر فأغمضهما بيده المرتعشة، لم يكن يطيق أن يحدق في عينيه وهو الذي يحمل عار الخيانة، مرر يده عليهما برفق، ومسح وجهه بيده المرتعشة، وصار يقبل يديه حتى تلطخ بالدماء الفوارة.



تأهبت الكتيبة الاسبانية للعودة وكلها عزم على ملاحقة المتمردين الصحراويين، كان الكولونيل مانويل يردد نشيد بلاده الوطني وسط وجوم الصحراء، حيث لا يسمع إلا صوته مرافقا لصفير ريح صحراوية خفيفة انطلقت من جهة الجنوب، كان سالم يتوجس من صفير الريح توجسا، ولكنه أبى أن يتكلم مع أي كان، و ظل يمشي صامتا حتى أنه أخطأ الطريق عدة مرات.

لاحظ خوسي حالة الحزن التي شملت سالم، فكان يحاول من حين لآخر التحدث معه وإثارة بعض المواضيع دون جدوى، جذبه الكولونيل الذي نفذ صبره وقال :

- دعه يا خوسي، لا تكثرالتودد إليه...

اقترب الكولونيل من سالم وقال بلهجة قوية :

- سالم... سالم أيها العنيد، أظن أنك تسوقنا إلى مكان غير الذي جئنا منه، ماذا دهاك ؟ ما الذي يحدث لعقلك ؟

اقترب خوسي من الكولونيل مانويل وقال هامسا :

- أظن أن علينا التوقف قليلا يا سيدي، لقد سمعت أنينه وهو يبكي ذلك الصحراوي القتيل، أظن أنه في حالة سيئة جدا، أفضل أن نمكث هنا قليلا حتى ينبلج نور الصباح، ثم نتقدم ونحن على بينة من أمرنا، فكل جندي معه زاده ومؤونته.

قال الكولونيل مانويل متحديا :

- خوسي يا عزيزي، لا تنس أننا هنا من أجل مهمة عظيمة، وأصحاب المهمات لا تقف أمامهم عقبة إلا وتحدوها، لا تنس أن التاريخ يدون بطولاتنا ومجدنا، ليس هناك شئ يقف أمام إرادتنا في تطويع هؤلاء المتمردين على سلطتنا، والانتشار في هذه الصحراء الشاسعة لتمتد تجارتنا بعمقها، ويعظم نفوذنا.

- ولكن سيدي... سالم لم يتوقف عن البكاء...

قاطعه الكولونيل غاضبا :

- الدموع التي تتحدث عنها لا تعنيني في شئ، ترقب جنودنا، هناك أيضا من يبكي قتيلنا الذي مزق بطنه من ظهره، لقد سئمت نصائحك وضقت بها ذرعا.

قال سيباستيان وهو يثبت لثاما على وجهه بسبب زحف ذرات الرمال في كل اتجاه :

- أجل يا سيدي الكولونيل، أرى أن نسرع في اللحاق بهم، سنتجاهل توجيهات سالم، ونسير باتجاه أصوات أهازيج احتفالهم المزعوم.

قال خوسي بصوت حان :

- أنتما محقان...و... ولكن... هل يسمح لي سيدي الكولونيل أن أتعرف على رأي سالم في توجهنا يسارا باتجاه الأصوات التي قد تنبعث من تلك الخيام المحتفلة... أ... أظن أن تحركنا تحت ضوء القمر مغامرة كبيرة يا سيدي الكولونيل.

- حسنا، أصدر أوامرك للجنود بالتوقف هنا لوقت وجيز، سنأخذ استراحة قصيرة جدا.

توجه خوسي نحو الجنود وقال بصوت عال :

- أيها الجنود، ستحافظون على هدوئكم، سنتوقف هنا قليلا لأخذ قسط من الراحة، هذا لا يعني أنكم غير متأهبين لمواجهة أي عدو قد يفاجئكم، تناولوا عشاءكم واحذروا أن يختلط الجبن بذرات الرمال المتناثرة، العاصفة مترددة، ولكن لا تنزعوا لثامكم، ذراتها دقيقة ومؤذية للعيون... أتمنى لكم استراحة طيبة.

فرح الجنود كثيرا، وراحوا يترنمون بشعاراتهم الاسبانية المحببة إليهم، تقدم سيباستيان وقال :

- الكولونيل مانويل يقول لكم أن إنشادكم يجعلكم يقظين، ولكن أرجو منكم الآن أن تصمتوا قليلا... حتى... حتى لا تدلوا أحدا على مكانكم، لا تنسوا، هؤلاء الصحراويون لا يرغبون بوجودكم هنا، وهم يتنقلون حولنا كالفئران.

اقترب خوسي من سالم الذي جلس وحيدا وقال له :

- تناول عشاءك، هل تريد أن تستضيفني كما تعودت ونتقاسم ذلك التمر اللذيذ ؟

أومأ سالم برأسه نافيا واستغرق في وجومه، إلا أن خوسي اقترب منه ثانية وقال :

- سالم يا عزيزي، أعلم أنك تأثرت كثيرا بما حدث، هذه الورقات لم تكن تمثل شيئا بالنسبة للكولونيل مانويل، التمس له عذرا.

قال سالم والدمع يقطر من مقلتيه :

- هذه الورقات هي سبب وجودي هنا منذ قرون آمنا مطمئنا، إنها تعلمني أنه لا فرق بين أسود وأبيض، ولا بين غني وفقير، ولا بين شريف ووضيع إلا بالتقوى، قضيت طفولتي في الكتاب القرآني أحفظها، وأجلها، وأقدسها، ليته لم يدسها بقدمه اللعينة، ليته لم يتفل عليها، لو أطلقها تطير في الهواء عبر الرياح لتسبح في موطنها لكان أهون.

اشتد نحيب سالم وقال :

- خوسي العزيز، أعلم جيدا ما بداخلك، وأظن أنك لم تتعرف علي إلا من خلال أوامر جنرالات الحروب، الذين يظنون أننا حيوانات لا مشاعر لها ولا إحساس.. عفوا.. من قال أن الحيوانات لا مشاعر لها فهو مخطئ.

قال خوسي متأثرا :

- هو كذلك يا سالم...أشعر بألمك ومعاناتك...الحيوانات أيضا لها مشاعر.

قال سالم وهو يمسح دموعه الغزيرة :

- لعل هذه الجمال التي ترافقنا في رحلاتنا الظالمة تتحدث إلينا باستمرار وتنصحنا بالعودة من حيث أتينا.

- أظن أن ما تقوله صحيح يا سالم.

قال سالم وهو ينظر إلى القمر محاولا كف دموعه المنهمرة كالسيل :

- تخيل يا خوسي، يحجزون زوجتي لديهم كخادمة، ويرهنون أبنائي يطوفون حولهم كالقطط الأليفة، ويرسلونني لأبيع ما تبقى من كرامتي، ليتني أنا هو ذلك الشاب الذي طمرته هذه الرمال... هاها...ها... ليتني أنا هو.

خشي خوسي أن يعاتبه الكولونيل مانويل على تأخره، فربت على كتف سالم وهو يتذكر زوجته وأبناءه الذين أخذه الشوق إليهم وقال :

- أعدك يا سالم أن أفعل شيئا لأجلك... أنا أيضا بعيد عن زوجتي...

- أنت من اختار ذلك طواعية.

- أعدك يا سالم العزيز... سأحاول جاهدا أن افعل شيئا لأجلك.

- إذا توفقت... فسأكون مدينا لك ما حييت، وسأطلب من عشيرتي أن تغفر لي وتفديك بالغالي والنفيس.

- أنتم الصحراويون متضامنون، تخيلت قبل تعرفي على عاداتكم أنكم متوحشون وسيئون وتكرهون الأجانب، لقد أدخلتني خيامكم مرارا ونعمت بضيافة متميزة، وشربت كؤوس الشاي الصغيرة ولبن الشياه والنوق المعطاءة.. أ... لقد تغيرت نظرتي إليكم كثيرا.

رفع سالم رأسه نحو السماء وتنهد حتى سمعت حشرجة صدره وقال :

- لأنك ضيف طيب يا خوسي، ولم يروا فيك وجه الاستعمار الذي يقنعك به الكولونيل مانويل قسرا... كان الأجدر بك أن تكون شاعرا.

- شاعرا ؟

- لو كنت كذلك لوصفت لك خيبتي ونظمتها الآن نظما.

قال خوسي متألما :

- لقد قصم ظهري و أربك كلامي حزنك الدفين، ولم أعد أدري أي الألفاظ أسعفك بها.

قال سالم وهو ينظر إلى خوسي الذي وقف وراء ظهره :

- خوسي يا عزيزي... أخبر هذا الكولونيل العنيد أن الرياح التي بدأت الآن قد تتحول إلى عاصفة رملية، ولا حاجة لنا بالمسير في ذلك الاتجاه.

انحنى خوسي ونظر في عيني سالم وقال :

- ما أطيبك يا عزيزي.

نظر إليه سالم مبتسما، ثم انحنى وفتح جرابه، فأخرج منه ثلاث تمرات وناولها خوسي وقال :

- أنت أيضا رجل طيب، أتمنى أن...

لم يكمل سالم كلامه حتى سمع خوسي الكولونيل مانويل ينادي عليه بصوت مرتفع، فهرع وأدى التحية العسكرية، ثم جلس أمامه وقال :

- سيدي الكولونيل، سالم يقول أن عاصفة قد تهب بهذا الاتجاه، ويرى أن نلحق بإقامتنا فورا.

قال سيباستيان وهو يثبت قبعته العسكرية فوق منديل صحراوي لف به رأسه :

- اعذرني يا سيدي الكولونيل، دليلنا سالم أصبح غريب الأطوار، وما عدت أثق في أقواله، ربما...

قال خوسي معاتبا :

- كلا... كلا... كلا يا سيباستيان، إنه رجل طيب وصادق، لو اقتربت منه لتعرفت على أخلاقه الجمة...

هرع خوسي نحو الكولونيل مانويل وحدق في عينيه مستدركا وقال :

- سالم... سالم يا سيدي الكولونيل يقول أننا في خطر، ربما حاصرتنا العاصفة... أ... أ... سالم يقول انه يفهم حديث النوق، ويقول أنها عادة ما تشنف آذانها وتمد عنقها إذا أحست بخطر قادم...و... ويقول أيضا أنها كثيرا ما تنهض وتبدو عليها علامات الاضطراب...

ضحك الكولونيل مانويل وقال :

- وماذا تقول النوق أيضا يا خوسي ؟

- أ... أ...سالم يا سيدي يعاشر النوق منذ نعومة أظفاره، هذا الحيوان له مكانة خاصة في حياته، فهو يقول لي دائما أن النوق يقدمها الصحراويون مهرا للزواج، ويأكلون لحمها، ويشربون لبنها، ويغزلون وبرها، ويسافرون عليها، ويحاربون عليها، وتصبر على العطش حتى الرمق الأخير من حياتها...إنها لا تفارقهم حتى صاروا يتحدثون إليها ويفهمون طبائعها...

قال الكولونيل مانويل ساخرا :

- لقد أتعبني أسلوبك الساذج يا خوسي.. إدارتك العسكرية لكتيبتنا تجعلني أتساءل لم اخترت الانخراط في الجيش ولم تتحول إلى رسام على اللوحات الخشبية... أو... إلى كاتب قصص الحب والغرام، مشاعرك المضطربة جدا تثيرني.

ضحك سيباستيان حتى علا صوته وقال :

- الرسم على هذه الصحراء يا سيدي يحتاج إلى شراسة الأسود ونقمة الضباع، القوة وحدها تزرع الأمن، وصناعتنا العسكرية متفوقة ولا مثيل لها على الأرض، اسبانيا... فرنسا... بريطانيا.. إيطاليا...أمواج البحر وبقاع البر تحيينا وتحسب حسابا لقوتنا وهيبتنا... بحرا وبرا..و...جوا...

كان الكولونيل مانويل يعلم أن سيباستيان يتوق إلى ترقيته عسكريا، وإدراج اسمه في لائحة أبطال الصحراء، فنظر إليه مبتسما وقال :

- سنرحل الآن.. هيا...

استدرك خوسي قائلا :

- باتجاه إقامتنا يا سيدي الكولونيل ؟

رد الكولونيل بنبرة ساخرة :

- باتجاه العرس، أنسيت أننا سنزف العروس إلى مخدعها ؟

قال خوسي مستعطفا :

- سيدي الكولونيل، وماذا عن رأي سالم ؟... يقول... العاصفة تزحف من هذا الاتجاه.

قال سيباستيان غاضبا :

- دعك من هذا الحقيريا خوسي، أتمنى أن يحاكمه الكولونيل بعد وصولنا إلى الثكنة، لا بد أن نحصل على كثير من المتعاونين والمترجمين غيره... أتمنى أن يمنحني سيدي الكولونيل شرف ذلك.

قال الكولونيل مانويل وهو يشد حزامه ويثبت عليه قنينة الماء التي لا تفارقه :

- أرسل وراء سالم...لنغادر المكان فورا، سنصلي ونلتمس من العذراء النصر.

حمل يده وأشار بها إلى صدره ورأسه وهو يعوذ نفسه بصليب خشبي صغير لا يفارقه، ثم سار خطوات ليتوسط الكتيبة التي تأهبت للرحيل.

وفي نفس هذه الليلة، وبينما كان الكولونيل يضع اللمسات الأخيرة على الاستعداد العسكري لمباغتة الصحراويين، كان شيخ القبيلة قد استيقظ قبل الفجر بوقت طويل، وتوجه نحو القبلة مصليا وضارعا إلى الله أن لا تنكشف خطته، فقد كان عازما على أن ينطلق باتجاه البحر، ويحرض القبائل التي في الطريق، لم يكن

يحتاج إلى إحداث معسكرات تدريب محصنة، ولا إلى أسلحة متطورة، و لا إلى مراكز بارزة، كما أنه كان عاجزا عن ذلك، كل ما كان بحوزته بضع أسلحة خفيفة، وكلمات يرددها تصف فظاعة الاستعمار الذي غزا ديارهم، وكلمات أخرى عن ضرورة الالتحام لمجابهته من شمال البلاد إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، وقد أفلح إلى حد كبير في جعل الكثير من القبائل يتنقلون من مكان إلى آخر لاقتفاء أثر المستعمر، بعدما كانوا يفعلون ذلك لمجرد البحث عن الماء والكلأ.

مر وقت يسير، ثم قام ينادي بأعلى صوته على أعيان قبيلته، وأيقظ زوجته فاطمة التي اكتوت بلدتها بلهيب نار المستعمر، لم تعرف الراحة منذ أن وطئت قدم الاسبان أرض وطنها، فكان عليها أن تواكب تحركات زوجها وأعيان قبيلته، وأن تمتلك السرعة والبديهة للتحول من مكان إلى مكان في وقت وجيز، راحت تنزع وتدا كانت تثبت عليه سقاء اللبن وهي تقول :

- اللعنة على هؤلاء، ماذا يريدون منا أن نفعله ؟ لماذا أتوا إلى بلادنا ؟

قال لها الشيخ أحمد وهو يلف حبلا كثيفا بين يديه :

- بلادنا كلها تحترق، هناك نساء مثلك في الشمال يكويهم الاسبان بالنار ويصب العذاب فوق رؤوسهم، في وسط البلاد فرنسا تحرق الأرض والزرع، وتسجن من يقاوم وتعذبه بالأشغال الشاقة والموت الرهيب، وهانحن نعاني كما هم يعانون، لسنا وحدنا يا فاطمة على هذه الحال...اصبري رجاء...

قالت فاطمة متأوهة :

- أخشى أن يتحول عرس ابنتي المقبل إلى مجزرة، تخيل كم فرحت عندما خطبها ابن عمها، وكم حزنت وأنا أتخيل أن لا تكتمل فرحتي ويهجم علينا هذا الكولونيل المغرور.

وقف الشيخ أحمد وهو يحمل القدور على ظهر النوق وقال :

- سيأتي اليوم الذي نفرح فيه جميعا، سيأتي لا محالة.

- ابنتي تستحق أن تنعم بالأمن والحرية، وتستحق أن نقيم لها عرسا بهيجا.

- سيحصل ذلك بحول الله يا فاطمة، سنشدد الحراسة حول خيام العرس حتى يبلغ مقصده.

- هذا ما أخشاه، أن يتحول عرس ابنتي إلى ما يشبه ثكنة عسكرية... هل تظن أننا سنكون مسرورين بذلك ؟

- هذا نصيبها يا فاطمة من حزن الوطن الأسير... الأصفاد والقيود تطوقنا جميعا، الأفراح والأحزان صارت متداخلة.

- يحزنها أيضا قولك لخطيبها أن مهرها سيكون هو الوطن.

- كنت أظن أنها ستفخر بذلك.

- تفخر ؟ أ... منذ ذلك اليوم وهي حزينة.

- يا إلهي ؟ حزينة ؟ وهل هناك أغلى من الوطن ؟

- ماذا تريد من فتاة مثلها أن تفعل ؟ مهر ابنتي سيكون نوقا تفقأ أعين الناس.

قال الشيخ متلطفا :

- وهل ترك الاستعمار للناس عيونا لتفقأ يا فاطمة ؟ هل تبصرين من حولك غير هذا الاستعمار الجائع ؟ يسيطرون على بلادنا شبرا شبرا ؟

قالت فاطمة وهي تتأوه :

- ابنتي سترفع رأسها عاليا، فهي بنت شيخ القبيلة، ولا يحق أن تفوقها مثيلاتها.

نظر إليها الشيخ أحمد وقال مبتسما :

- ابن عمها سر بذلك أيما سرور...

ردت فاطمة مقاطعة :

- مهر كهذا لن يكلفه شيئا، حري به أن يكون دائم السرور.

- بل يكلفه عمره كله يا فاطمة.

- أرجو أن تترك لها الخيار...

قال الشيخ مقاطعا :

- ليس هناك من قال بغير ذلك، الأمر بيدها هي.

قالت فاطمة :

- أظن أن هذا الوقت ليس صالحا لاستعراض ما تشعر به ابنتنا العزيزة.

قال الشيخ موافقا :

- أجل... هذا صحيح...الاسبان يغزون بلادنا، ويلاحقون المقاومين ليلا ونهارا، وتلك الأسلحة التي تتكدس على الشاطئ لم تكن لأجل عرضها أمامنا للتباهي والتفاخر، بل لإفراغها في صدورنا جميعا، صغارنا وكبارنا، في أفراحنا وأتراحنا حتى تخلو لهم الأرض... يساورني شك أن كتيبة الكولونيل مانويل الاسبانية ستعود لمهاجمتنا ومباغتتنا قبل الرحيل.

قالت فاطمة وقد بدا عليها التعب :

- الرحيل... الرحيل... يا إلهي ! أكوام من الصوف وشعر الماعز تنتظرنا لغزلها وتقديمها لتخاط خياما لعرس ابنتي الوحيدة... متى سيحصل ذلك وأنا دائمة الترحال؟

ابتسم الشيخ أحمد وقال :

- المرأة الصحراوية امرأة قوية ومجاهدة، هذه الخيام هي الوحدة المكانية التي ننعم تحتها بالاستقرار، ولولا أيدي نسائنا العظيمات، لذرتنا الرياح ذروا.

- المرأة الصحراوية تستحق كل التكريم، ومهرها غالي...

حمل الشيخ قدورا نحاسية ثقيلة وقال وهو يلهث :

- - لقد كانت زينب النفزاوية امرأة علم وسياسة، وتزوجها يوسف بن تاشفين، وكانت خناثة بنت بكار صحراوية عظيمة، ورائدة في العلم والحكم... تزوجها... تزوجها المولى اسماعيل.

انهمكت فاطمة في لف ثوب فضفاض من حولها وهي تشعر بالفخر والاعتزاز، بينما انحنى زوجها خارجا من الخيمة، فإذا بأحد الأعيان يقول :

- نحن جاهزون يا سيدي، والفجر يقترب رويدا رويدا، ولكن عاصفة رملية تسير باتجاهنا ربما أعاقت مسيرتنا نحو الشاطئ.

نزع الشيخ أحمد ثوب عمامته وأرخاه في الهواء ليعلم اتجاه الرياح، فإذا بالثوب يميل نحو اليسار، لفه ثانية على رأسه ثم قال :

- حسنا، سنسير إذن باتجاه الشمال، لا بد أن نتجنب هذه العاصفة، هيا... سنرحل من هنا فورا.

لم تمر إلا لحظات يسيرة،حتى تجهزوا جميعا واستعدوا لمغادرة المكان، أسر كثيرة انتظمت لتعبر الطريق كما تعودت دائما بحثا عن الماء والكلأ، انضاف هذه المرة مطلب آخر لا يقل حيوية هو البحث عن الأمن، كان العديد من المقاومين الذين يخفون هوياتهم وسط أولئك النفر قد دسوا أسلحتهم بداخل القدور والرحال، وهم أكثر استعدادا من أي وقت مضى، لم يكن العرس إلا احتفالا بنصرهم بعد هجومهم المظفر على تلك الاقامات العسكرية التي بثتها اسبانيا قسرا فوق أرضهم، وقريبا من مكان ظعنهم، وراحت توزع من خلالها الرعب والموت، وقد أخبرهم متتبع أن المستعمر جن جنونه، وأن الكولونيل الذي باغتهم ليس إلا واحدا من آخرين عديدين توزعوا في كل الاتجاهات بحثا عن كل من تسول له نفسه الاقتراب ثانية من تلك الثكنات ومقرات شركات رجال الأعمال.

كانوا قد قرروا أثناء الاحتفال بذلك العرس الوهمي أن يظلوا متحدين، واتفقوا على خططهم الجديدة، وجددوا عزمهم على المضي قدما في الالتحام بالمقاومة التي انتظمت تلقائيا في كل البلاد، سيما وأن شيخ القبيلة وبعض أعيانها سيكونون ضمن الوفد الذي سيقدم البيعة للسلطان، ويشرح له أوضاع المقاومة في الصحراء.

كان الليل قد بدأ بالأفول، وصار اقتراب الفجر يهدد بكشف تواجدهم في المكان إذا عاد الكولونيل مانويل، لأنه سيباغتهم وهم يرحلون بتلك السرعة من الواحة الصغيرة التي ظعنوا فيها طيلة احتفالهم، وهم بحاجة إلى التستر والتكتم الشديدين أمام عدو لا يرحم، فصاروا يهرولون ويحثون نوقهم على الاسراع، كانت تلك الرمال الحريرية تداعب مسيرهم، وتتحول إلى هضابها الصغيرة الممتدة على طول الصحراء، لتشكل تماوجات منتظمة كأنما رسمتها ريشة فنان، فلطالما ساعدتهم خبرتهم بأرضهم على ضبط إيقاع الرياح ومساراتها.

كانت التعليمات أن لا تعلو الأصوات بالقرآن والشعر المغنى اللذين ألفوا قطع تلك الفيافي وهم يرددونهما، لأن الأمر مختلف الآن، وهناك عدو متعقب يتربص بهم، خصوصا بعد ورود خبر القبض على الشاب الذي كلف برمي مؤخرة قافلة الكولونيل مانويل، والذي قد يكون أمدهم تحت التعذيب ببعض المعلومات التي تكشف أمرهم.

وعندما اقترب الصبح، كانت قافلتهم قد قطعت شوطا مهما، ما جعلهم يستقرون في مكان بعيد عن كتيبة الكولونيل مانويل، أدوا صلاتهم في خشوع، ورفع الشيخ يديه بالدعاء وطلب من الله العون والنصر.

كان المقاومون يؤمنون على دعائه وهم خاشعون، ثم أخذوا قسطا من الراحة شربوا خلاله بعض الشاي وتدبروا شؤونهم الخاصة، وبعد ذلك واصلوا سيرهم نحو قبيلة كبيرة إلى جوار بعض المناطق الغنية بالماء والكلأ باتجاه البحر.

هبت القبيلة المضيفة لاستقبالهم ومعها الكثير من أخبار الاسبان الذين لاحقوا بعض شبابها عندما تجندوا للدفاع عن شواطئهم، خرج شيخ مهيب من خيمة شاسعة وهو يمسك بيد حفيدته وقال :

- مرحبا بكم، مقامكم بيننا سيوطد عزيمتنا، نحن بحاجة إلى بعضنا أكثر من أي وقت مضى... أسلحتنا متواضعة جدا.

رد الشيخ أحمد التحية وهو يرفع ثوب جبته الصحراوية فوق كتفيه وقال:

- أشكركم جزيل الشكر، تجمعنا في مكان واحد يشكل فرصة ذهبية للقضاء علينا... بالرغم من أن هذه الصحراء ظلت وفية وهي تشكل ستارا منيعا لتحركاتنا.

- معك حق، لقد أفرغوا أسلحتهم على رؤوس إخواننا الأبرياء في شمال البلاد، وقصدوا في بعض المرات تكتلات التجمعات السكانية، لم يستطع أحد لحد الآن فك لغزها..

نزلت دمعة من مقلة الشيخ أحمد وقال :

- إنه استعمار لا يرحم، ليس هناك من يحاسبه، فرنسا واسبانيا تتسابقان نحو الفتك بنا، كأننا قصعة أكل مغرية أمام مجموعة من الجائعين اللامبالين، إنهم يعقدون الاتفاقيات بينهم لتوزيع أرضنا و ثرواتنا.

قال مرافق الشيخ متحسرا :

- يوزعون أرضنا بينهم كما لوكنا عبيدا لهم، ثم يشربون بعد ذلك نخب النصر...

قاطعه الشيخ عبد الله وهو يناوله كأس شاي ساخن وقال :

- تفضل يا سيدي أحمد، هذه خيمتي، يشرفني أن تتمدد على فراشي لتأخذ قسطا من الراحة، ثم نتدبر أمرنا.

- لا راحة بعد الذي حصل يا سيدي عبد الله ، الكولونيل مانويل حضر شخصيا إلى خيامنا، لم يخطر ببالي أنه سيهتدي إلينا، ولكن الأهازيج أرشدته إلى مكاننا... حسنا يا سيدي، ما هي آخرالأخبار التي بحوزتكم ؟

- المقاومون هاجموا حامية فرنسية في الجنوب، قتل فيها عدد من الجنود، وغنموا قطع ذخيرة كثيرة وبنادق والمئات من الجمال.

نظر إليه الشيخ مبتسما وقال :

- هذا النوع من العمليات المباغتة لا تترك لهم فرصة الدفاع.

- لقد حجزت لك ثلاثين بندقية وأزياء عسكرية مجهزة.

أحنى رأسه ثم أردف متأسفا :

- فقدنا من المقاومين عشرة... منهم ابني محمد، كان هو من يتزعمهم.

وضع الشيخ كأس الشاي وقال متنهدا :

- ليرحم الله الشهداء، لقد روت دماؤهم رمال صحرائنا... حقا... الدين والوطن يستحقان أكثر من المهج والأرواح.

- الحرية شئ ثمين، وثمنها لا يكون إلا بما هو أغلى وأعز.

- ليرحمه الله، ترك أربعة من الأبناء الصغار... سيقودون مسيرته...

قال واحد من مرافقي الشيخ :

- حصلنا على صندوق ذخيرة يكفي لخمس أو ست عمليات أخرى.

- وماذا حصل بعد ذلك ؟

- اشتط الكولونيل غضبا واحتل مدينة السمارة، بل إنه أحرق الكتب الثمينة التي عثر عليها... تخيل يا سيدي أحمد ؟ الكتب والمخطوطات التي لا تقدر بثمن تتحول إلى رماد ؟ أي حقد هذا ؟ وما الذي جنته الكتب التي تمثل تراث الأجيال وحبلهم الموصول بتاريخهم ؟

- هذا الاستعمار لا يريد السيطرة على الأرض فقط، بل إنه يعمل على محو ذاكرتنا ولغتنا وإرث أجيالنا.

- هذا صحيح.

- المهم هو ما سنفعله مستقبلا، وبما أتيح لنا من الامكانات.

- سمعت أن اسبانيا ستؤسس لمراكز تجارية أخرى على هذا الشاطئ في عمق الصحراء، ستمسك بمصدر مؤونتنا من قبل قلبه النابض.

- ما يؤرقني هو إمكانياتنا المحدودة، ما لدينا من السلاح لا يقارن بما لديهم، كل ما نملكه هو المقاومة والدفاع عن حريتنا وكرامتنا بالعزم والاصرار حتى آخر لحظة، سيغريهم خنوعنا باسترقاق أبنائنا وأزواجنا من بعدنا، وهذه هي الأمانة العظيمة التي أشفق منها.

شعر الشيخ عبد الله أن ما تبقى لديه من الأخبار السيئة سيزيد من حزن ضيفه المتعب، فأحضر لحافا ناعما، ودعاه للنوم والاسترخاء قبل تناول بعض الطعام، استجاب الشيخ أحمد مسرورا، فتمدد على السرير الجلدي المغطى بثوب ملون، مد بصره وراح ينظر من تحت الخيمة إلى أقدام الضيوف الجدد وهم يرصون أمتعتهم في مقامهم الجديد.



العاصفة



كانت كتيبة الكولونيل مانويل العسكرية قد عادت أدراجها باتجاه مكان المقاومين، وهي تخترق الكثبان الرملية بكل ما أوتيت من العزم، وكان الكولونيل قد حث جنوده على التزام الصمت وخطب فيهم خطبة وجيزة وقال في نهايتها : يجب أن تعلموا أن هناك من ينافسنا على هذه الأرض، فرنسا... انجلترا... ألمانيا... وقد استطعنا الانفراد بها أخيرا... تمسكوا بها إلى آخر رمق.

قال سيباستيان متحمسا :

- عناد الأهالي يا سيدي الكولونيل، سيزيد من إصرارنا، نحن هنا إلى الأبد، ولا توجد قوة تنزع حقنا، حتى ولو كانت المملكة التي لا تغيب عنها الشمس.

ضحك الكولونيل وقال :

- آه الانجليز...الانجليز أيضا جاءوا إلى هنا، كانوا قد اختاروا طرفاية وجعلوا فيها مصنعا للخشب... أحرقه هؤلاء الصحراويون المجانين الأوغاد.

قال سيباستيان وهو يبتسم :

- ليتهم جاءوا ليشاهدوا البنايات التي شيدنا لمباشرة أعمالنا تحت نفوذ دولتنا المجيدة.

قال الكولونيل مانويل وهو ينبش في التاريخ الذي يحب الاتكاء عليه دائما في شحذ همم جنوده :

- دعني يا سيباستيان العزيز أذكر جنودنا البواسل بالقبطان إميليو بونيلي الذي مثل حكومتنا الاسبانية وبنى أكواخا من الخشب في الداخلة لتحقيق أهدافنا التجارية والاستعمارية، بكل ما أوتي من العزم والاصرار.

قال خوسي مازحا :

- كان ذكيا، لأنه لم يشيد تلك البيوت بماء البحر كما فعل آخرون، فتشققت لتوها، وأثبتت أن البحر لا يسمح ببقاء مائه على البر طويلا.

قال الكولونيل مانويل :

- للأسف يا خوسي، هذه البيوت الخشبية ايضا لم تصمد طويلا.

- لماذا يا سيدي ؟

- دعني أيضا ألهب حماس جنودنا البواسل وأخبرهم أن الصحراويين الأوغاد سارعوا بالهجوم عليها ثانية وقتلوا العمال.

قال سيباستيان غاضبا :

- اللعنة... اللعنة...

قال الكولونيل مانويل وهو يستملح مقاطعة سيباستيان لكلامه لأنه يحمس الجنود ويربطهم بتاريخ تواجدهم في تلك الصحراء الشاسعة :

- وبعد هذه الحادثة تم تعيين بونيلي بظهير ملكي قائدا عسكريا ومدنيا على المناطق تحت حمايتنا العظيمة، ولم يأبه لسلطة السلطان الحسن الأول الذي قام بحملة عسكرية باتجاه الجنوب وعين بعض القواد على قبائل الصحراء..

ردد سيباستيان :

- تحيا حكومتنا المجيدة... تحيا حكومتنا المجيدة.

كان خوسي يتضايق من الكولونيل مانويل الذي لا يتحدث إلا وهو يربط الحاضر بالماضي، ويكرر تفاصيل التواريخ والأحداث كما لو كان الجنود سيتخرجون أساتذة في التاريخ وليسوا جنودا في صحراء لا يعرفونها حق المعرفة، لاحظ الكولونيل مانويل شروده فنظر إليه وقال بصوت مرتفع :

- يا لحكومتنا المجيدة !

كان بعض الجنود يشعرون بالفخر والاعتزاز بما يذكرهم به الكولونيل مانويل، وقد رأى في عيونهم حماسا كبيرا فأردف :

- هؤلاء كتبوا التاريخ ببطولاتهم، وأنتم تكتبونه الآن ببطولاتكم أيضا... تماما كما فعلوا من قبل... هؤلاء الصحراويون قساة، وأرجو أن لا تأخذكم بهم رأفة، لأنهم يدمرونكم متى سمحتم لهم بذلك، ويتواطأون مع سلاطينهم على جلائكم.

اقترب سيباستيان وقال :

- كما فعل القائد دحمان ولد بيروك الذي عينه السلطان الحسن الأول، فحرض الأهالي على الهجوم على البنايات.

قال الكولونيل مانويل :

- أجل يا سيباستيان، أنت متابع جيد، لقد كانت حكومتنا المجيدة ترقب توقيع حكومة بريطانيا معاهدة اعترفت بموجبها بسيادة المغرب على المناطق الواقعة بالجنوب من وادي درعة إلى رأس بوجدور.

قال سيباستيان :

- نحن الآن على الأرض يا سيدي، وهذا هو أهم مكاسبنا.

تنهد الكولونيل قليلا وقال :

- أيها الجنود، مهمتكم هي اقتلاع هؤلاء الصحراويين وتطويعهم، نحن لم نأت إلى هنا لمجرد الفسحة، فهم يعدون لكم العدة منذ زمن بعيد، دعوني أعود إلى التاريخ ثانية...

كان خوسي يشعر بالامتعاظ من خطب الكولونيل مانويل المملة، خصوصا وأنه قررالعودة بالكتيبة العسكرية إلى ذلك المكان المقفر الذي كرهه، وهو الذي لم يصدق أنهم غادروه ليعودوا إلى ثكناتهم، وكان يلمح مرارا إلى الكولونيل أن نبشه المبالغ فيه في التاريخ يفقد كلامه بريقه، لأن الجنود بحاجة إلى شئ قوي يربطهم بتلك المهمة الصعبة في صحراء قاحلة، شئ أقوى من أحداث مضت ولا تمثل لهم الكثير، كان يرقب بضجر حركات الكولونيل الذي استمر في كلامه قائلا :

- يجب أن تعلموا أيها الجنود الأوفياء أن الشيخ ماء العينين قام ببناء مدينة السمارة بعد سنوات من ترحاله بين الساقية الحمراء وأدرار، هذا البناء الذي جمع قوة الكثير من الصحراويين ونظمها، وصاروا يقصدونه في زاويته البئيسة، وينطلقون بتعليماته التي يستمدها من سلطانه الذي يجدد له البيعة، وشكل رباطا سياسيا لم يكن في صالحنا، لأنه يقويهم ويكتل وحدتهم، وكلما توحدوا... كلما ضعفنا.

قال سيباستيان :

- البناء ؟ كيف يبني مدينة السمارة وهم عادة يتحركون في الخيام بحثا عن الواحات حيث الماء والكلأ ؟

قال الكولونيل مانويل :

- كلا... كلا... كان عدوا لا يستهان به، وحسب له الاسبان ألف حساب، وهذه الزاوية تمت محاولة هدمها وترويع من حولها.

قال سيباستيان متحمسا :

- هذا جيد، ما الذي يريدوننا أن نفعله ؟

قال الكولونيل مانويل بنبرة حزينة :

- لقد استهدف البناء، ولكن، هل تعلمون ماذا تركت لنا هذه العملية من بعده ؟ هل تعلمون ماذا ترك لنا هذا الرجل العنيد وأمثاله من شيوخ التمرد ؟...أ... لقد ترك لنا هذا العرس الوهمي، وكل تلك الأعراس البئيسة المنتشرة في الصحراء... والتي...أنتم... أنتم مدعوون جميعا للاحتفال بها...أ...على طريقتكم الخاصة.

ضحك الكولونيل بصوت عال حتى رجت قهقهته المكان، وضحك سيباستيان لضحكه، ثم غرق الجنود كلهم في الضحك.

كان الكولونيل يدرك في قرارة نفسه أنه مقدم على رحلة صعبة، إذ لم تكن العودة بالجنود من حيث أتوا سهلة ومريحة، فكان يعتبر كلماته بلسما لهم، وتخفيفا عنهم وتقوية لعزيمتهم.

ظل سالم ينظر إليهم، ويسمع لضحكاتهم وقد زاد احتقاره لنفسه أكثر من أي وقت مضى، وشعر بفظاعة العمل الذي يقوم به، وتمنى لو كان حشرة صغيرة تلوذ بجحرها دون ان تفرط فيه على أن يكون دليلا لجنود مانويل، وقف حين أتموا ضحكهم وقال :

- هذه العاصفة تلا حقنا، يبدو أننا بالغنا في سرعتنا، ثم مكثنا نسمع الخطب فجأة... ولكن... ولكن في غير الاتجاه الصحيح، أرى أن نتوقف هنا حتى ينبلج الصبح ونتبين الطريق.

صرخ سيباستيان مزمجرا وهو يخرج خريطة باهتة من حقيبته العسكرية المثبتة على خصره وقال :

- سيدي الكولونيل، لا أظن أننا سنعتمد منذ الآن على سالم، أصبحت لا أثق به.

قال سالم غاضبا :

- السير ليلا مظنة الأخطار، إضافة إلى أن هذه العاصفة بدأت تشتد، وربما طمرت أثر مسيرنا، كيف لي أن أتعرف على الطريق مجددا ؟

قال خوسي وهو يتردد :

- سيدي الكولونيل مانويل، أظن أن سالم على حق، سيدي الكولونيل قرر في البداية الاعتماد على أسماعنا لاكتشاف مصدر صوت الأهازيج والرقصات ولكن...

قال الكولونيل مانويل مقاطعا :

- أجل... كنت أتمنى أن ينقل الأثير أهازيج العرس المزعوم إلى آذاننا، فنتعرف على المكان بسهولة...ولكن... قد يكون هؤلاء الأوغاد نجحوا في خطتهم، يعقدون اجتماعهم تحت مسمى الاحتفال، ما أن ننصرف، حتى يصمتوا ويعقدوا اجتماعهم بكل حرية... أجل...أنا متأكد من ذلك.

قال سيباستيان هامسا :

- ما الذي علينا عمله الآن يا كولونيل ؟ لا بد أن نفعل شيئا، الجنود بدأوا يشعرون بالتعب، وهذه العاصفة تحمل ذرات الرمل إليهم بالرغم من النظارات وألثمة الوجه.

رد الكولونيل وهو يرفع رأسه نحو الأفق :

- ما هذا الهراء يا سيباستيان ؟ هل أخبروك بذلك ؟ نحن نحارب المتمردين الأشقياء، وأنت تحدثني عن ذرات الرمال ؟

أحنى سيباستيان رأسه ثم رفع التحية العسكرية وقال :

- عذرا يا سيدي...عذرا... الجنود قالوا أنهم يريدون وقتا وجيزا للراحة قبل أن تبزغ الشمس ليجدوا في مسيرهم... أنقل لك يا سيدي ما قالوه همسا... ولست أوافقهم على ذلك.

قال الكولونيل مانويل معتذرا :

- حسنا، مرهم أن يتخذوا هذه الكثبان أسرة لبعض الوقت، أظن أننا لسنا بعيدين عن مقر إقامتنا على كل حال، انظر إلى اتجاه البوصلة.

قال خوسي بصوت متقطع :

- سالم يخبرني بإلحاح أننا سرنا في عكس الاتجاه، وأن الوجهة التي اتخذناها تعرضنا للضياع في هذه الصحراء.

قال الكولونيل مانويل :

- يتأكد لي رويدا رويدا أن هذا المترجم سالم، ربما كان عميلا للمتمردين، لقد ضعفت ثقتي به كثيرا...اكتشفت كم نحن أغبياء...يؤسفني ذلك.

قال سيباستيان وهو ينظر إلى عيني خوسي :

- سيدي الكولونيل، عندما نصل إلى إقامتنا، امنحني شرف دفنه حيا في هذه الرمال... ههه... هولا يعلم أن هذه البوصلة فضحته.

قال خوسي :

- سالم رجل صادق، وأنا من جنده للعمل معنا من مدة، وأعلم جيدا أنه لا يعرف الكذب والخداع، مأساته أنه يمكن لنا في بلده، وما حدث للشاب المتمرد أخرسه، فهو يبكي طول الوقت.

نظر الكولونيل إلى خوسي غاضبا وقال :

- تنتظرني جلسات مطولة معك يا خوسي الأبله... ما فتئت تتحدث عن دموعه.

أقبل سالم فجأة وفي يده قبضة من الرمال ثم نثرها تحت ضوء القمر وقال :

- انظر يا سيدي الكولونيل، اتجاه هذه الذرات يخبرنا أننا نسير باتجاه العاصفة، وهي قادمة من هذا الاتجاه لا محالة.

نظر إليه الكولونيل ساخرا وقال :

- يبدو أنك خبير جدا بمسالك الصحراء وأحوالها، من حسن حظنا أننا صحبنا واحدا مثلك.

قال سالم واثقا :

- هذه الصحراء قطعة مني، وأنا أعرفها كما أعرف نفسي، ليس هناك من لا يعرف أمه التي حضنته من أول يوم ولد فيه.

قال سيباستيان متهكما :

- مسيرتنا ستكون في هذا الاتجاه... ما رأيك ؟ نحن أيضا نعرف دروب الصحراء... بل إننا أرغمناها على التعرف علينا.

قال سالم :

- الصحراء كالبحر يا سيد سيباستيان، تحتاج لتركب أمواجه سنوات طويلة لكي تصطاد أسماكه.

قال الكولونيل مانويل غاضبا وهو يمسك بالبوصلة في يده :

- كفى هراء أيها المخادع، تريد أن تبيعنا للمتمردين ليقتلوننا ويغنموا أسلحتنا ؟...أيها الغادر... أوثقوه وضعوه فوق ظهر تلك الناقة حتى أتبين أمره.

ضحك سيباستيان وقال :

- عندما نصل إلى إقامتنا... سأعرف كيف أجعلك مخبرا حقيقيا وتدلني على من سربك إلينا.

قال خوسي مستعطفا :

- سيدي الكولونيل... كلا...كلا... سالم رجل مخلص، أنا أعرفه جيدا، صدقني يا سيدي... نحتاجه ليترجم لنا ما يقوله المتمردون... وهو دليلنا...

رد الكولونيل غاضبا :

- لسنا بحاجة إلى من يترجم إلينا أقوالهم الآن، سنفرغ بنادقنا في صدورهم جميعا، وسنبدأ به هو أولا...ههه...والعريس ثانيا، سيبدأ أول أيام شهر العسل تحت بنادقنا.

قال خوسي وقد تغير وجهه :

- سيدي مانويل... أ...سيدي...

- اخرس وإلا وجهت إليك تهمة التآمر والخيانة، تصدقه ولا تصدق البوصلة؟

قال خوسي متلعثما :

- ربما... ربما... يا سيدي... لا أعلم... ما أعلمه هو أن سالم لا يقول إلا صدقا.

قال الكولونيل بصوت مرتفع :

- تصدقه وتكذب البوصلة ؟ هذا يكفي الآن.

توجه الكولونيل نحو الجنود وقال :

- سنرتاح هنا وقتا وجيزا... وقتا وجيزا...ثم نتم مسيرتنا نحو الاحتفال المزعوم .

كان الجنود قد أوثقوا سالم بحبل متين أسال الدم من معصميه، ولفوا رداء رأسه فوق سرته، ووضعوه منبطحا على ظهر ناقته.

شعر خوسي بقلبه يتفطر حزنا وهو يرى سالم يتعذب بتلك الطريقة المهينة، ولم يستطع أن يقترب من رفيقه الوفي الذي عد فجأة في العملاء الخونة، فازداد حزنه وبكى حتى علا نحيبه، بينما علا شخير الكولونيل المنهك، وكذلك الجنود المرافقين له، كانوا قد تعبوا في تلك الليلة كثيرا، وزادهم تعبا رجوعهم من تلك الرحلة العسكرية خاويي الوفاض، فقد استطاع المقاومون الإفلات منهم باتجاه مكان آخر للقيام بعمليات جديدة، خوسي وحده ظل مستيقظا، فجاء ووضع شفتيه على أذن سالم وقال :

- هل أنت صادق فيما تدعيه يا سالم ؟ اصدقني يا عزيزي... هل... هل كلفك المتمردون بمهمة ما ؟

قال سالم متألما :

- ليت ما تقوله كان صحيحا، ليتني كنت معهم أدافع عن وطني بدل الدفاع عن طموحاتكم الجامحة.

- اصدقني القول يا سالم، سأتوسل إليه وأستعطفه أن يفك أسرك إذا أكدت أننا نسيرفي الاتجاه الصحيح.

قال سالم بصوت متقطع :

- تفك أسري ؟ هذا الوهم لم يعد يغريني... وطني كله صار أسيرا بين أيديكم...أنتم والفرنسيون تتفقون على سجننا تحت أقدامكم، وصية الشيخ ماء العينين رحمه الله، أن لا ندع لكم جفنا يطرف حتى نحصل على حريتنا، أنا من خان الوصية...ولعل ما يحصل لي الآن هو ثمن خيانتها.

- سالم يا عزيزي... تعلم جيدا أنني أحبك... و... أقدرك، وأشعر أنك أهنت بعد كل الذي حدث...ولكن...أجبني يا سالم...هل نحن في طريقنا نحو المتمردين ؟ أم أننا ضللنا الطريق ؟

- كلا...

- ماذا تعني ؟ هل نسير في عكس الطريق المؤدية إلى...

قاطعه سالم فورا قائلا :

- أجل... أجل...

- والعاصفة ؟ العاصفة يا سالم...

- نحن من يسير باتجاهها.

- ولكن... أ...أ...هذه البوصلة تخبر الكولونيل مانويل أننا في الطريق الصحيح.

- قل له أن يفك وثاقي ويدعني أسير وحيدا في عكس الاتجاه الذي نصحتكم به البوصلة، هذه أسهل وسيلة للتخلص مني...أو للتخلص منكم.

- ماذا تعني يا عزيزي ؟

- لا شأن لي بهذه الآلة الخربة، بوصلته تخونه...أقسم بالله أننا نسير...

وضع خوسي يده على فم سالم، وقبل جبينه وقال :

- لست أدري ما الذي يجعلني أزداد تقديرا لك كلما تقدمنا في رحلاتنا... أصدقك في كل ما تقوله.

انسل خوسي دون أن يشعر به أحد، بينما رفع سالم رأسه وهو مكبل اليدين وصار يناجي ربه، كان خيط أبيض رقيق ينسل من بين الظلام ويعلن قدوم يوم جديد، صلى صلاة الفجر والصبح وهو يومئ بوجهه الذي ازرق لونه بسبب امتلاء عروق الرأس بالدم الذي يسري ببطء في بدنه المنهك، فقد علقه الجنود على الناقة متدليا نحو الأسفل بطريقة مؤلمة، شعر أن كرهه للكولونيل وللاسبان المستعمرين قد ازداد في قلبه، أخذته غفوة يسيرة أشبه بالإغماء، ولم يستيقظ إلا وهو يرى تلك الرمال الممتدة أمام ناظريه وقد غطت أقدام الجنود وأطرافهم، وهو ما ينذر باقتراب العاصفة التي كان يخاف طوال حياته من السير باتجاهها، كانت الجمال باركة وهي تحرك عيونها يمنة ويسرة وقد علق عليها الجنود الكثير من أمتعتهم، استيقظ سيباستيان فجأة، ثم هرع لإيقاظ الكولونيل الذي نزع نظارته وفرك عينيه وقال :

- اللعنة... لقد امتد بنا وقت النوم، أيقظ الجنود جميعا يا سيباستيان... هيا... بسرعة... سننصرف من هنا الآن نحو خيام المتمردين، هذا إن لم يكونوا قد غادروا المكان...هيا أسرعوا.

قام الجنود وهم ينثرون ذرات الرمال العالقة فوق ثيابهم، وبسرعة البرق ثبتوا خوداتهم، وتقلدوا أسلحتهم، ثم ركبوا الجمال التي أخذت هي أيضا قسطا من الراحة.

كان خوسي ينظر إلى سالم دون أن يستطيع نجدته، فقد تدلت رجلاه إلى يمين الناقة وتوسط رأسه سنمها، وظل يتمنى لو يستطيع فرك عينيه وإخراج ما علق بهما من الرمال الدقيقة، فصارت تلك الذرات تجرح قرنيته ويسيل ماؤها مختلطا بدموع الألم والغدر.

لم يكترث الكولونيل مانويل لاستعطاف خوسي الذي قال متلهفا :

- سيدي الكولونيل، أرجوك أن تفك وثاقه...و...أنا...أنا من سيقتله إذا ثبت أنه يخدعنا ويغير طريقنا في اتجاه العاصفة أو كمائن المتمردين، لتكن هذه آخر مرة تأخذ فيها برأيي...أ...أرجوك يا سيدي أن تستجيب لطلبي.

رد الكولونيل متثاقلا :

- كفى يا خوسي، دعنا نتدبر طريقنا الآن، لا بد من القبض عليهم وأسرهم أو قتلهم جميعا... أنا أعرف كيف أجعلهم يحتفلون حقا.

توجه الكولونيل نحو سيباستيان وقال :

- أصدر الأوامر للجنود بأن يسرعوا في هذا الاتجاه، يبدو أننا اقتربنا، سنقطع المسافة تحت هذه الشمس الحارقة ولكننا...سنصل... سنصل إليهم حتما.

أومأ خوسي برأسه وصار يفكر وهو يسرع بناقته تنفيذا لأوامر الكولونيل الذي ظل يدير بوصلته باتجاه اليمين واليسار.

قطعوا مسافة طويلة فاقت الفرق الذي كان بين مكان توقفهم ومكان خيام الصحراويين، فعثروا على بعض الكلأ، وظنوا أنه كان مرتعهم، وفجأة صرخ أحد الجنود وهو يتلوى من الألم، فتوقفوا فورا وقال الكولونيل :

- ما هذا الذي أسمع ؟

رد أحد الجنود وقد امتقع لونه :

- سيدي الكولونيل، أنطونيو...أنطونيو رفيقي لذغته أفعى...لقد رأيتها... إنها هناك...يبدو رأسها فقط كأنه قطعة حجر صغيرفي لون الرمال.

قال الكولونيل مانويل وهو يستدعي مسعفا طبيا يرافقهم في رحلتهم :

- يا إلهي ! انطونيو...ما الذي جعله ينزل من على ظهر جمله...اللعنة...انظر بسرعة أيها المسعف العزيز ما حل بأعز جنودنا، وأنت يا سيباستيان : أرسل من يقتل تلك الأفعى الدنيئة... اللعنة... أفاعيهم تشبههم... يكمنون تحت الرمال...ثم يلدغون فجأة.

قال خوسي وهو يكتم تمردا كبيرا بداخله :

- إنها تشعر بالخطر فتدافع عن نفسها بتلك الطريقة...نحن من أتى إلى حماها.

- ما الذي تقصده يا خوسي ؟ أي جرأة هذه ؟ جندي من جنودنا يموت وأنت تقول كلاما كهذا ؟ ما الذي حدث لعقلك ؟

- لا شئ سيدي الكولونيل، أنا أشفق عليه ولا أدرى ما الذي جعله يترك جمله ويمشي على قدميه... أظن أنه لن يقوى على ذلك الآن.

كان الكولونيل قد توقف ليتفقد الجندي الملدوغ، والذي عصب المسعف الطبي رجله بحزام متين وشد وثاقه، نظر إليه الكولونيل مشفقا وقال وهو يحمل الأفعى ميتة :

- لقد انتقم جنودنا منها على الفور، انظر يا أنطونيو، لقد تمزق رأسها وهشمناها ببنادقنا.

قال سيباستيان :

- هذه أول مرة أرى فيها أفعى تمشي أفقيا، لقد كانت ترسم لوحة فوق الرمال تفضح مسارها وتعلمنا بمكانها.

توجه الكولونيل إلى خوسي وقال :

- لا تخف، سنتعقبها حتى ولو غاصت ميلا تحت الرمال، نحن هنا لأجل ذلك.

أطرق خوسي رأسه، وصار ينظر إلى أنطونيو وهو يتوجع، كانت الزرقة قد بدت على رجله التي انتفخت فورا، حمل على الجمل وتدلى رأسه يسارا، بينما مد رجليه باتجاه اليمين.

انطلقت الكتيبة العسكرية، وكان سالم المعلق و أنطونيو الملدوغ ينظران إلى بعضهما وقد صارت صورة ما حولهما مقلوبة إلى أعلى، يحاولان السباحة معا في تلك السماء الزرقاء، وكلهما أمل في أن يذهب عنهما الألم.

كانت بوادر العاصفة قد لاحت، ما زاد من فزع الجنود الذين طالما سمعوا بأخطار العواصف الرملية الصحراوية التي تفتك بمن يقترب منها دون رحمة، ولم يسبق لهم أن واجهوها من قبل، أما سالم فقد سمع عنها كثيرا منذ صغره، وعن أساطير المختطفين الذين تبتلعهم إلى الأبد، فتجنبها طيلة حياته وظل يراقبها في ترحاله مع قبيلته بحثا عن الماء والكلأ، كان متيقنا أن الكولونيل مانويل مغامر فاشل وعنيد أيضا، وأنه غاص بهم في اتجاه صحراء مليئة بالأسرار والمفاجآت، تمنى لو استطاع فك وثاقه بنفسه والفرار من قبضته، كان الفزع والعطش قد أنهكا قوته، كما أن نزول رأسه إلى أسفل طيلة تلك المسافة جعله يشعر بدوار كبير كاد ينقله إلى إغماء عميق.

حاول الجنود أن يحافظوا على سرعة السير التي أمرهم بها الكولونيل مانويل، فيما ظل هوممسكا ببوصلته ومنظاره، يحدق فيه كل لحظة فلا يتراءى له غير الفضاء الأصفر والبرتقالي المتموج تحت الأفق، بدأ يشعر بارتباك شديد وحيرة كبيرة، فأخذ يردد نشيدا وطنيا يرفع من همم الجنود الذين بدا عليهم التعب تحت تلك الشمس اللافحة التي بدأت تتوسط كبد السماء، كما أن صفير العاصفة القوية بدأ يقترب رويدا رويدا، فازدادت دقات قلب الكولونيل حدة.

كان سم الأفعى قد سرى في بدن أنطونيو، و أخذته قشعريرة غريبة، وصار يتقطع من الألم إلى أن فارق الحياة، فمدده الجنود على الأرض الساخنة وصاروا يبكونه، بينما اقترب منه الكولونيل مانويل وخاطبه قائلا : ليباركك الرب يا أنطونيو، قدرك أن تموت على هذه الأرض التي اقتطعناها لتكون امتدادا لنفوذنا ومجدنا، سيذكرك التاريخ أيها البطل.

التفت الكولونيل مانويل نحوالجنود المتأثرين وقال بصوت مرتفع :

- نم مرتاحا يا أنطونيو العزيز، فهناك من سيكمل مسيرتك دون كلل.

نظر خوسي إلى الكولونيل بامتعاض وهو يأمر الجنود أن يرفعوا جثته المنتفخة فوق الجمل، فقد دفن في تلك الصحراء الجندي الذي أصابه المقاوم الشاب برمح، بعدما كان تعهد بإيصال جثته إلى مقبرة الجنود، وعلم يقينا أنه بعد يوم واحد سيفعل بأنطونيو نفس الشئ.

استأنف الكولونيل مانويل مسيرته ثم توقف فجأة وقال :

- استديروا يسارا، البوصلة تشير إلى أننا نقترب، الرب سيحميكم لأنكم تناصرون وطنكم، تذكروا جيدا أن هذه الأرض ستخلد مجدكم، أرسلوا الأمل فسيختفى الألم... لأنهما ببساطة لا يتقابلان.

ازداد شعور خوسي بالسخرية بداخله، ولعن التجنيد الذي أتى به إلى تلك العذابات التي لم يكن يتخيلها من قبل، وبدا له الكولونيل مانويل أحقر من أي شئ أمامه.

قطعوا مسيرة طويلة تحت الشمس اللافحة، واضطروا لشرب الكثير من الماء، وبدأ الماء والزاد اللذان يحملهما خوسي معه ينفدان، وهناك من الجنود من لم تعد لديه قطرة ماء قط، فصاروا يقتسمون ما بحوزتهم من الماء فيما بينهم.

كان الكولونيل مانويل قد أضاف إلى وسائله الاستكشافية المرآة، والتي صار يقلبها كل حين باتجاه الأعلى وهو يحاول مقابلتها مع أشعة الشمس اللافحة لتصدر نورا وهاجا نحو الأعلى، لعل طائرة عسكرية تمر من المكان فتسعفه، كان يوهم الجمود أنه ينظر في المرآة إلى وجهه الملثم، حتى لا يشعروا أنه ينتظر إسعافه جوا بعد أن يئس برا... كان حريصا على أن لا يصيبهم المزيد من اليأس والتعب والنصب.

أتموا مسيرهم بصمت كبير كأنهم ابتلعوا ألسنتهم، ولم يعودوا يقدرون على ترديد الأناشيد الوطنية التي تخلى عنها الكولونيل مانويل ورفيقه سيباستيان المتحمس، ولم يقطع صمتهم إلا صرخات سالم الذي أصابه ألم شديد في الرأس، وامتلأت جيوب أنفه بذرات الرمال الدقيقة، كان يخور كالثور وهو يلعن المستعمرين وما لحقه من العذاب بسببهم، وكان يتعمد أن يرسل شتائمه بالاسبانية حتى يستفزهم ويعجلوا بحتفه، أمنيته الوحيدة أن يفرغ أحدهم بندقيته في صدره ويريحه مما هو فيه من العذاب.

وفي لحظة حاسمة، سب سالم حكومة الاسبان التي أرسلت مانويل المتوحش إلى مستعمرتها، وأغمضت عينيها عما يفعله بالصحراويين، فغضب الكولونيل مانويل غضبا شديدا، وأصدر أوامره برمي سالم في العراء من غير زاد ولا ماء فقال مزمجرا :

- لا تقتلوا هذا الثعبان الحقير،أريده أن يموت ببطء، سنجعله وليمة للحشرات والنسور، جردوه من كل شئ واتركوه وراءكم...أجل سنتركه وراءنا...هذا ما سنفعله.

تسارعت دقات قلب خوسي الذي حاول إخفاء دموعه الساخنة، بينما أسرع سيباستيان وجر سالم نحو الأرض جرا، وأسقطه دون أن يفك قيده، ثم ركله على بطنه عدة مرات حتى كاد أن يخرقه.

كان خوسي قد أسرع إلى مؤخرة الكتيبة وهو يتقطع ألما لما حل بسالم صديقه، فهو يعلم أنه يتمنى الموت بعد ما أعياه القيد بتلك الطريقة المفجعة، إلا أنه لم يكن يتوقع ان يرمى مكبلا ودون زاد يسعفه.

ازداد خوسي ألما حين عجز عن إبداء شعوره نحو سالم، كان يود أن يقبله معتذرا، إلا أنه تظاهر بالغضب والانتقام، وفي قرارة نفسه أن الكولونيل تحول إلى حيوان مفترس يفقد أعصابه.

سارت القافلة العسكرية غير آبهة بصرخات سالم الذي تدحرج على الأرض مكبلا، وصار يرى زرقة السماء كأنها بحر سيغوص في أرجائه ، فانتعش أمله ولم يعد يشعر بما حوله، كان ينادي على زوجته وأبنائه واحدا واحدا، وكان صوته يهز المكان ويقرع سمع خوسي الذي لم يحتمل أن يرى سالما مجنونا كما رآه من قبل معذبا، فقرر أن يعود ويسعفه بقطرات الماء ليطفئ عطشه ويفك قيده دون أن يشعر به أحد.

كان الكولونيل مانويل يحكم لثامه بعدما أزاحه ونفض غبار الرمال المتراكم عليه وهو يشعر أن تعبا ممزوجا باليأس يهاجمه، فقد جاوز الزمن الذي يخترق فيه المسافة التي قطع ليلا بكثير، وصار الزمن والمكان يحاصرانه بإلحاح كبير، لم يلحظ أن خوسي التحق بسالم ولم يعد يفكر بغير النجاة من المأزق الذي وجد فيه نفسه، حاول أن يهدئ قليلا من روع الجنود الذين بدأ التمرد يبدو على محياهم وصاروا يؤدون له التحية دون أن يرفعوا أكفهم نحو رؤوسهم المتعبة، اللثام في تلك الحرارة جعل تنفسهم يضيق ووجوههم تعرق، وتزيدها ضنكا تلك الذرات الرملية الحادة التي تصفع وجناتهم كأنها قطع من الزجاج المتكسر، لم تعد ناعمة كما كانت من قبل حيث يكفي نفضها بسهولة والاستمرار في السير، كانت الجمال ترفع رؤوسها كأنها تفتخر بسيرها على تلك الكثبان التي لا يتجاوزون الواحدة حتى تلوح لهم الثانية فالثالثة...كأنها سلاسل يشد بعضها بعضا...ليس أمامهم غير المسير، ثم المسير دون جدوى... ليست أمامهم حياة أبدا.

صاح الكولونيل مانويل فجأة وهو يرفع بوصلته نحو الأعلى وقال :

- لقد اقتربنا...بل أظن أننا وصلنا... شدوا عزمكم وضاعفوا مسيرتكم قبل أن تفتك بنا هذه العاصفة...

فرح الجنود كثيرا، وظنوا أن تلك البوصلة قد صدقتهم، فاستجمعوا قوتهم وجدوا في السير، منهم من ظل راكبا فوق جمله، ومنهم من أمسك بخطامه بعد أن خلع حذاءة وجعل قدميه تسبحان فوق الرمال.

كان خوسي قد انسل سريعا، ولحق بسالم المضطرب، ثم فك وثاقه، وصار يقبله ويحاول أن يسعفه ببعض الماء الذي حصل عليه من عند أحد الجنود، ثم مدده على ركبتيه وقال :

- سالم يا عزيزي، أنا هنا لأسعفك، لست راضيا عما فعله مانويل اللعين، ولكن لا حيلة لي، أنا مضطر للحاق بالكتيبة... أنا... أنا آسف، أودعك يا سالم...و... وأتمنى أن أراك بعد الآن وأنت بخير... وداعا.

نظر إليه سالم مبتسما وقد استعاد وعيه، فقد بلل خوسي وجهه وصدره بالماء وقال :

- سلمت يا سالم... أنا آسف.

نظرسالم إلى خوسي نظرة ملؤها الأمل وقال :

- أشكرك يا عزيزي... إذا كتب الله لي الحياة، فسأظل أذكر صنيعك... دعني أعانقك.

انحنى خوسي وعانق سالم عناقا حارا، ثم وقف ونظر إليه مودعا، كان سالم يرسل عينيه راضيا، فابتسم ابتسامة عريضة أسفرت عن أسنانه البراقة وقال :

- مرة أخرى يا خوسي... أشكرك...أشكرك.

مضى خوسي خطوات متثاقلة نحو القافلة العسكرية التي اختفت وراء هضبة رملية صغيرة، ثم قفل راجعا وارتمى على سالم معانقا وقال وهو يضحك كالمجنون :

- سالم يا عزيزي...أ... سأبقى معك هنا... هه... ما رأيك ؟

ابتسم سالم مستغربا وقال :

- ما الذي تقوله ؟ سينتقم منك الكولونيل مانويل شر انتقام...

- سأبقى هنا، أنا مدين لك بحياتي...

- ما الذي حملك على هذا يا خوسي.

- أعلم أنك صادق فيما تدعيه، لقد أضاعنا مانويل بعناده في هذه الصحراء... تجلى لي صدق كلامك يا سالم.

قال سالم متلعثما :

- أ... أ...أخشى عليك من بطشه، لا بد أن تفكر في ما أنت مقدم عليه يا خوسي، لا تحمل نفسك على ما لا تطيقه.

- بل أفعل يا سالم.

- أنت تمثل دولتك يا خوسي... سيقتلك الكولونيل... سيقتلك.

قال خوسي :

- لطالما أرقتني عدالة قضيتك... صدقني... لم أكن يوما مقتنعا باختراق البحار وقطع المسافات من أجل هذا الاستعمار البغيض..

- ولكنك تقدم على أمر خطير يا خوسي.

- أنا مقتنع بما أفعله، ألا تريد أن أظل معك على الطريق ؟

رد سالم مندهشا :

- خوسي...خوسي...أنت رجل طيب وودود أيضا.

- أتذكر يا سالم يوم أن استضفتني في خيمتك أول مرة ؟ وتناولت كأس شاي ساخن من يدك الكريمة... كان وجهك يتهلل بشرا وسرورا... استقبلتني بالرغم من أنني جئت لأستعمر بلدك.

قال سالم بصوت حاني :

- أفهمتني أنك مجرد سائح يستكشف الصحراء...والصحراويون اشتهروا بحسن الاستقبال والضيافة...يبدو أننا سنسيح أنا وأنت في هذه الصحراء فورا بهذا الاتجاه...قبل هجوم العاصفة... سنعود... سنعود من حيث أتينا... هيا بسرعة... ساعدني يا خوسي الطيب... ساعدني...

قام خوسي مسرعا، وأعان سالم على الوقوف على رجليه وقال :

- أذكر يا سالم كم كنت دنيئا، فقمت باستغلال أخلاقكم الدمثة بسهولة ويسر، وتسللت إلى خيامكم واحدة واحدة وأنا أصحبك، كنت أود تجنيدك للعمل معنا، فأغدقت عليك من المال والعطايا، كنت تظن أنني أحبك... وكنت أشعر بحقارتي وأنا أراك تقدم لي كل ما تملك وتحبني بكل الصدق والتفاني... الآن يا سالم أخبرك أنني أحبك بصدق، وأعتذر لك عما يفعله الاسبان بأهلك ووطنك، في الشمال وفي الجنوب.

- خوسي يا عزيزي، أنت رائع، ناولني يدك.

مد خوسي يده فصافحه سالم وقال :

- كنت أظن أن الكولونيل مانويل صب شيئا ساما علي ولن أحيا بعدها... إلى أن... إلى أن أسعفتني يا خوسي العزيز، فاكتشفت أنني كنت أعيش كوابيس مرعبة، فقد سمعت أن المستعمر صب نيرانه على إخواننا في شمال بلادنا في الريف دون رحمة، مواد ومتفجرات لا يعرف أحد كنهها، تخيلت أن مانويل ألقمني شيئا من ذلك.

أعتذر يا سالم... أقدم لك الاعتذار باسمي وباسم كتيبة الكولونيل...

صمت سالم وهو يتأمل في ما حدث، ويرجو الله أن يتوفق في الرحيل بعيدا عن مسار العاصفة القادمة، انطلقا وجدا في المسير وهما يتحادثان، فأكبر سالم اعتذار خوسي المتكرروقال :

- أعلم يا خوسي أن هناك الكثير من الاسبان العقلاء الذين يرفضون هذه الفظائع، التقيت بهم في الثكنات، ولكن أصواتهم مغمورة.

- اظن يا سالم أنه سيأتي اليوم الذي تعلو فيه أصواتهم، ويدعونكم تقررون مصيركم بأنفسكم، لا أحد في الدنيا يقبل العبودية والمهانة.

- ما هو جرمنا ؟ وما الذي فعلناه حتى نستحق هذا العذاب ؟

- تبدو بسيطا يا سالم، ولكنك متابع جيد...

قال سالم :

- جد في السير يا خوسي... آه لو استطعت التحليق كطائر النورس، لحملتك

فوق جناحي وغادرت هذا المكان.

ضحك خوسي وقال بصوت متقطع :

- أ....أ... أخشى أن نلقى حتفنا هنا... أخشى أن ننتهي في هذه الصحراء وتحت رحمة هذا الصفير المدوي للعاصفة.

- لن نقدر على هذا الطريق الطويل سيرا على الأقدام، والحمد لله أنك أحضرت معك الجمل، سنستدير يمينا، ثم نسير في هذا الاتجاه... ولن نركب الجمل الآن إلا بعد أن أتأكد من الوجهة التي سنقبل عليها... نصبر...ونسير... أتمنى أن تسعفني.

قال خوسي وقد بدأ الأمل يتجدد في قلبه :

- في الصحراء، بدا لي أنه لا يمكن الاستغناء عن الجمل، عليه ما تبقى من مئونتي وسلاحي، وقد جذبته متسللا وراء القافلة لأسعفك به حتى تعود إلى أهلك، ولولا انشغال الكولونيل مانويل ببوصلته ومنظاره ومرآته لكشف أمري...أ...فإذا بي أنا من يلحق بك.

قال سالم :

- لوكشف الكولونيل مانويل أمرك، لمزقك بسلاحه شر ممزق.

- كلا... كلا... لقد أوهمت آخر الجنود أنني أتفقد مؤخرة القافلة، كان سيباستيان يقظا جدا، ولكنه شغل ببوصلة الكولونيل الخربة.

قال سالم بصوت خافت :

- هذه البوصلة اللعينة الكاذبة هي التي أوصلتنا إلى هنا.

قال خوسي مبتسما :

- لقد تيقنت من صدقك يا سالم، وازددت لك تقديرا حين أخبرني الكولونيل

همسا أنه كان قبل أيام في الثكنة يشرب خمرا من القنينة الزجاجية مباشرة، فتبللت تلك البوصلة على صدره، قلت له أنها ربما صدئت فصارت عقاربها ترقص في كل اتجاه كأنها رجل اعتراه جنون.

قال سالم ساخرا :

- لقد أفقدها الخمر عقلها وصارت تهذي.

ضحك خوسي عاليا وصار يردد : يا للبوصلة المجنونة...ههه... يا للبوصلة السكرانة.

شعر سالم بالتعب وهو يحاول بصعوبة أن يثبت قدميه على الأرض كالطفل الصغير الذي يتعلم المشي، أخرج بضع تمرات من جيبه وناول نصفها لخوسي الذي قال مبتسما :

- الشكر للرب الذي أعاننا على مغادرة كتيبة مانويل العنيدة...خطاب في التاريخ... وآخر في الجغرافيا...وآخر في الفلسفة... الجنود لا يعرفون غير السلاح وانتظار الأوامر بالضغط على الزناد، ولكن من يفهمه ذلك.

- الحمد لله أننا رحلنا... وسنسرع قبل مغيب الشمس... هيا يا خوسي، أنخ الجمل لنركبه الآن وننطلق مسرعين، لقد تبينت طريق النجاة.

قال خوسي فرحا وهو يقرب الجمل من سالم المنهك :

- هيا...أ...هيا يا عزيزي ... انتبه لنفسك... أنت من سيمسك بخطامه.

ضحكا معا ضحكا عاليا وانطلقا يقطعان تلك الكثبان الصامتة.



كان مانويل يشعر أنه أتعب جنوده أكثر من اللازم، وقرر أن يغوص في التاريخ كعادته ليشعرهم بالأمل وبجسامة مسؤوليتهم فأوقفهم، ثم صفهم جميعا، وقال بصوت متقطع :

- لكم أعجب لعزيمة أعدائكم...

قال سيباستيان مستفهما :

- - الصحراويون يا سيدي ؟

- أجل... أجل....من غيرهم؟ فهم يحاربونكم بالليل والنهار، في نفس الوقت الذي يواصلون فيه التنسيق مع سلاطينهم لحشد الدعم العسكري والسياسي، لقد أرسل الشيخ ماء العينين وفدا يمثل شيوخ القبائل من الصحراء إلى فاس، وبعد وفاته ورث الاصرار لأحمد الهيبة الذي قاد حملة عسكرية نحو مراكش...

استرسل الكولونيل في حديثه عن قبائل الصحراء وعلاقاتهم بالسلطان إلى أن صرخ أحد الجنود في وجهه وقال غاضبا :

- سيدي الكولونيل...حكم بالسجن أوالنفي ينتظرانني... أعلم ذلك...لأنني... لأنني تجاوزت عرفا عسكريا صارما وقاطعتك... لا... بل... وعارضتك أيضا، ولكنني أصارحك أنني لا أرى نفسي الآن بحاجة إلى درس في التاريخ...أسمع هدير العاصفة قريبا مني... يجتاحني اجتياحا... عذرا...لقد تبللت ثياب بعض جنودنا من الفزع... أريد منك ولو لمرة واحدة أن تسمع صوت أبداننا المنهكة وقلوبنا المعتصرة... ربما كانت هذه هي المرة الأخيرة التي تفعل فيها ما نرجوه منك .

واصل الجندي الثائر حديثه، ثم التفت بجرأة نحو الجنود وقال :

- أظن أن هذا رأيكم أنتم أيضا، أتحدى أي واحد منكم يستعرض علي شيئا مما ذكره سيدي الكولونيل منذ ان غصنا في هذه الرمال... الشيخ ماء العينين... السلطان... البيعة... الدعم العسكري والسياسي... لا شئ يعنيكم الآن من ذلك....

أجل.. أجل...أتحداكم أن تثبتوا عكس ذلك... لأنكم مشغولون بالمأزق المرعب الذي تزحفون نحوه.

نظر إليه الكولونيل مندهشا، بينما صرخ سيباستيان قائلا :

- هذا تمرد أيها العنيد...ستدفع ثمنه غاليا.

أومأ إلى أحد رفقائه أن يجلس الجندي الثائر منكوس الرأس فقال :

- سيدي الكولونيل...

أشار إليه الكولونيل بيده ليكف عن التعليق وقال بصوت متقطع :

- أيها الجنود البواسل... أنتم أبنائي...أحب أن تصغوا دائما للتاريخ لأنكم نصرنا الذي ربطناه بمستقبلنا.

قال سيباستيان:

- سيدي الكولونيل محق فيما قاله... لا بد أن نربط الحاضر بالماضي.

كرر الكولونيل إشارته لسيباستيان العنيد بعدم المقاطعة وأردف :

- عندما توفي زعيم الأعداء أحمد الهيبة بأكردوس قرب تزنيت...أ...أ...

لم يتم كلامه حتى داهمه سعال شديد، فناوله سيباستيان قنينة الماء ليسعفه، أخذ جرعات عديدة ثم قال وهو يفتح فمه ليبلع أكبر قدر من الهواء :

- ..أ... أ... خلفه أخوه مربيه ربو... أ... لمحاربتنا، وأنا أيضا إذا مت في هذه الصحراء...أ... فسيخلفني ابني كزافيي، فهو الآن جندي مثلكم، إلا أنه ما زال تحت التدريب، ليعلم المتمردون أن هناك دائما من يخلفنا لمحاربتهم، حتى ولو لم نكن نحن على الأرض، فسندفع الثمن لمن يفعل ذلك... هذه الصحراء ستبقى مستعمرتنا إلى الأبد.

كان الجنود قد فهموا أن حديث الكولونيل مانويل عن الموت والخلافة ينذرهم بنهايتهم، وهو الذي لا يدع فرصة ليدعوهم إلى التشبث بالحياة إلا واغتنمها، فقد وجد نفسه أمام عاصفة جبارة لاح صفيرها في أذنيه منذرا بوبال عظيم، تناول جرعة ماء بللت لحيته المبعثرة وصاح فجأة :

- انتبهوا ! انتبهوا ! سنعود من حيث أتينا.

لاحظ سيباستيان ارتباكه الشديد وقال :

- وهل علمنا المكان الذي أتينا منه حتى نعود إليه يا سيدي الكولونيل ؟

بزغ عمود بني مفاجئ ضخم كالجبل من وراء الهضاب يعلو في السماء ويسير باتجاههم، لقد كان عاصفة رملية شديدة على شكل إعصار مدمر، علا صراخهم جميعا وصار بعضهم يردد الصلوات، بينما أمسك البعض الآخر بحفنات الرمال وأخطمة الجمال محاولا التشبث بأي شئ للنجاة، بينما انهمك الكولونيل مانويل في رج تلك البوصلة رجا، فلاحظ أنها تدله على اتجاه إقامته في الجهات الأربع، اشتدت نبضات قلبه وعلم فورا أنها خدعته، التفت يبحث عن خوسي ليستفسره عن الاتجاه الذي دله عليه سالم فلم يجده، قال لسيباستيان فجأة :

- هذا اللعين خوسي، أين اختفى يا سيباستيان العزيز؟... أين ؟

قال أحد الجنود :

- - لقد تأخر وراءنا...وربما...ربما تاه في الصحراء.

قال الكولونيل مانويل غاضبا :

- تاه في الصحراء ؟... ما الذي تقولونه أيها الأغبياء ؟ كيف تتركون واحدا مثل خوسي المخلص يتخلف وراءنا ؟

رجع إلى الوراء قليلا وصار ينادي بأعلى صوته : خوسي...خوسي... نحن هنا... خوسي... أتسمعنا ؟ نحن بحاجة إلى استشارتك... العاصفة الرملية تقترب...ستطوقنا إذا لم تسعفنا...خوسي...خوسي...

كانت الجمال قد شنفت أسماعها، ورفعت رؤوسها باتجاه مقدم العاصفة التي كان صفيرها يزمجر في مكان غير بعيد من الجنود الذين تكوموا والتف بعضهم حول بعض، لم يبق وقت طويل على غروب الشمس، وأيقنوا أنهم هالكون لا محالة، وأن شراعا يحملهم في بحار تلك الصحراء الغامضة قد يتكسر في أي لحظة، شعر الكولونيل بهزيمة نفسية تطارده، فصار يصوب المرآة من جديد باتجاه الشمس يمنة ويسرة حتى كلت يده، لم يشأ أن يظهر ضعفه،فراح ينشد النشيد الوطني ويأمر الجنود بترديده، توجه سيباستيان نحو السماء وصار يصلي مترجيا الرب أن ينقذه، كان يود لو استطاع استنطاق تلك الإبل التي ركنت إلى جوارهم دون أن تحرك ساكنا.

وقف الكولونيل مانويل فجأة والبوصلة الخربة في يده اليمنى، والمرآة الصغيرة في اليد اليسرى وقال وهو يظهر رباطة جأش مصطنعة :

- سيقف أربعة جنود من بينكم، ويتوجه كل واحد إلى اتجاه ليأتينا بخبر خوسي ويتحسس صوته بوضوح.. ربما... لاحت لكم إحدى الواحات قبل مغيب الشمس...هيا بسرعة.

لم يقف من الجنود أحد، وزاغت أبصارهم، وبلغت القلوب الحناجر، وشعروا بالخوف يفترسهم، فنظر إليهم الكولونيل غاضبا وردد :

- هيا... قلت سيقف منكم أربعة...هيا...

انتظر قليلا ثم قال :

- سأختار أفاضلكم... تعصون أوامري في هذا الظرف العصيب ؟ هذه الجريمة لن أغفرها لكم... أنت يا ريكاردو... ستتوجه شمالا، وأنت يا خوليو ستتجه شرقا.

صمت قليلا وهو يقلب عينيه بين الجنود قائلا :

- ألفونسو غربا...و...فيليبي جنوبا... لا تبتعدوا كثيرا وحاولوا أن تنادوا بأعلى

صوتكم على خوسي العزيز، لا أحب أن أفقده هنا... لا احب أن يفقدنا هو أيضا... لا أحب ذلك أبدا.

بدا بعض الضعف على الكولونيل فتشجع سيباستيان وقال :

- نخشى أن نفقد هؤلاء الجنود البواسل أيضا...

أطرق الكولونيل رأسه نحو الأرض وقال بصوت متقطع :

- ليس لدينا خيار غير ذلك...انظر إلى الأفق...أنا أخشى... أخشى أن نفقد أنفسنا في هذه الأرض الشاسعة، صفير هذه العاصفة ينذر بسوء...ليس لدينا خيار.

نظر إلى الجنود وقال :

- هيا... هيا انطلقوا ولا ترجعوا إلا بخبر ينجينا مما نحن فيه... ستحصلون على وسام ملكي فريد، وسأذكركم بأسمائكم في مذكراتي...وسيخلد التاريخ ذكراكم... هيا بسرعة فالوقت في غير صالحنا...الغروب يقترب.

مضى الجنود إلى رواحلهم بخطى متثاقلة، كان التعب واليأس يدب إليهم رويدا رويدا، كانوا يهمسون لرفقائهم مودعين، إذ علموا يقينا أن بوصلة الكولونيل لا تعمل، وخدعتهم خديعة كبرى.

قرر الكولونيل مانويل أن يقيم صلاة جماعية إلى الرب لكي ينجيه من التيه الذي ابتلعه في تلك الصحراء، كان يظن أن ترويض هضابها الجريئة أمر هين، ولطالما ادعى أنه فتت ذراتها وحملها طوعا وقسرا على مداعبته، الأفق يتحول الآن أمامه إلى جبل مخروطي مزمجر، يذر الرمال كأنه جهنم لها تغيظ وزفير، صاح سيباستيان مولولا :

- سيدي الكولونيل مانويل... سيدي...أ... أيها الجنود...إنني أدعو الرب أن ينجينا... العاصفة...العاصفة...آه...آه...العاصفة.

صار الجميع يصرخ :

- يا للهول... العاصفة... أيها الرب العظيم...العاصفة حلت بنا...أيتها العذراء المقدسة...نحن في ورطة...

كان صوت الصفير قد تعالى، وبدأت تلك الكثبان الراكدة تتحول وتتعرى تباعا لترقص رقصة الموت الرهيب، وتهتز كأنها جان تملكه غضب شديد، انهمك كل واحد في صلاته بطريقته الخاصة، كان الكولونيل مانويل قد أخرج صليبا خشبيا صغيرا لا يفارقه، واعتنقه وأسلم نفسه لتلك الريح الغاضبة تتلاعب به وبجنوده، وما هي إلا لحظات حتى حم القضاء، وارتمى كل واحد منهم في مكان وقد طمرته أكوام الرمال الزاحفة وكتمت أنفاسه.



كان سالم وخوسي قد قطعا شوطا كبيرا في مسيرتهما، واستطاعا بصعوبة تجنب مسار العاصفة، وتدلى قرص الشمس ليتيح لغروب هادئ أن يرخي سدوله، قرر سالم أن يتوقفا قليلا لأخذ قسط من الراحة، فأناخ الجمل واسترخى فوق الرمال وهو يتبادل أطراف الحديث مع خوسي الذي شعر أنه قام بمغامرة كبيرة، وأن اسبانيا المجيدة، لن تغفر له مغادرته لكتيبته بتلك الطريقة الغامضة، سيما وأنه أدى قسما عسكريا صارما وصار مدينا له، وتولى مع غيره من الجنود مهمة النيابة عن مملكته في تطويع مستعمراتها.

تذكر سالم أنه نسي صلاة العصر حتى أوشكت الشمس على الغروب، وصار يدعو على مانويل بالتلف والهلاك، قام مسرعا وتيمم، ثم توجه نحو القبلة وأقام صلاته، كان خوسي ينظر إليه راكعا وساجدا يداعب بأرنبة أنفه أرضه التي نشأ عليها، كان يعجب من تلك المناجاة وذلك الوصال كما لو رآه لأول مرة، تأخر قليلا، ثم جثا على ركبتيه هو أيضا وصار يتلو بعض تراتيل الانجيل، كان يمد بصره باتجاه الأفق فتتراءى له عظمة الرب الذي خلق تلك الصحراء الشاسعة، وجعلها منبسطة وهي تحمل في بطنها الشموخ النادر، يتملى بأشعة الشمس المتوارية وهي تنسحب في سكون تام، شعر أن موجد ذلك النظام البديع يحدثه ويدعوه إلى المزيد من المناجاة، فلم يشعر إلا وهو ساجد ودموعه تنهمر فتبتلعها الرمال ابتلاعا، كانت سكينة فريدة سكنته وأجبرته فورا على البقاء على تلك الحال، وأدخلته إلى رحاب روحية لم يعرفها من قبل.

التفت سالم بعد فراغه من صلاته، فرأى خوسي ساجدا لا يتحرك، فتملكه شعور حائر، اقترب منه وجلس ينظر إليه وهو لا يصدق ما تراه عيناه فقال :

- الصحراويون يحبون دينهم يا خوسي، حتى الخيام لا ينصبونها إلا باتجاه القبلة.

قام خوسي وهو ينفض الرمل عن جبينه فابتدره سالم وهو يمسك بكتفيه وقال :

- خوسي... خوسي...اصدقني القول وقل لي بربك من تكون ؟ رأيتك ساجدا وأنت على دينك ؟

- أجل يا سالم... أجل... لست أدري...تأملت في هذا الخلق البديع من حولي... شعرت أن هناك قوة عظيمة تحرسه... وتحرسني أنا أيضا...

قال سالم مبتسما :

- خوسي.. خوسي..أنت رائع...و...حكيم...و...

قاطعه خوسي وقال :

- شعرت يا سالم وأنا أراك تناجي ربك أن رحمة الرب شملتني وحملتني بعيدا عن تلك العاصفة، لعلها لقنت الكولونيل مانويل درسا بليغا...الرب يا سالم حفظنا ولا بد من الصلاة والشكر.

تعانقا من جديد وتمددا معا يرقبان مجئ القمر، كانت نملة صغيرة قد صعدت على قدم سالم فصاح ووجهه يتهلل فرحا :

- خوسي يا عزيزي، هذه النملة خرجت من جحر قريب.

قال خوسي مستغربا :

- وماذا في ذلك يا سالم ؟ مالنا وللنمل وجحوره ؟...هل...هل ستكون هذه هي مهمتنا الجديدة ؟

قال سالم والفرح الكبير يغمره :

- هذا يدل على وجود حياة قريبا من هنا، ردد معي يا خوسي : الله أكبر... الله أكبر...الشكر لله...نجونا من التيه في الصحراء، أنا... أنا متأكد من ذلك...أنا متأكد من ذلك.

صارا يرددان معا التكبير والشكر، وحملا كل الزاد الذي بقي معهما، جبن جاف وماء وقليل من التمر، فالتهماه دفعة واحدة حيث خلطا الحلو بالمالح وهما

يضحكان، كررا الضحك مرارا حتى علت قهقهاتهما، ونزلت دموع الفرح من مقلتيهما، سكتا برهة وهما يلهثان ويمسحان دموعهما، ثم قال سالم :

- كنت أفكر في أمر هذا الزاد القليل وكيف سنتدبر حيلتنا حين يلم بنا الجوع والعطش...ولكن الله أسعفنا...لم أكن أحب إخبارك حتى لا تجزع...الكولونيل اللعين ابتعد بنا كثيرا... ولكن...الله أسعفنا...الله أسعفنا...

صار يصرخ بأعلى صوته في الصحراء : شكرا يا الله...شكرا يا الله...

كان خوسي يردد معه عبارات الشكر التي تنساب في ذلك الصمت الواجم، ثم قال :

- لست أدري ماذا حل بالكتيبة العسكرية يا سالم.

- لا ريب أن الكولونيل مانويل العنيد قادها نحو الهلاك.

- ههه..كان يصر على أنه عارف بكل الدروب والمنعرجات.

صمت خوسي قليلا ثم عاوده الفزع وقال بصوت خافت :

- هل أنت متأكد أن الحشرة التي أمسكت بها نملة ؟ لقد التهمنا كل الزاد يا سالم العزيز...أخشى أن تكون نملتك مخدرة كبوصلة الكولونيل مانويل.

ضحك سالم عاليا وقال :

- خوسي يا عزيزي...أ...إنها نملة...أجل...إنها نملة أرسلها الله إلينا لننام هذه الليلة مطمئنين، جاءت لتخبرنا أننا نجونا.

- أين هي ؟

- ألا تثق بي يا خوسي ؟ لقد أرسلتها، فهذه بلادها، ومن حقها أن تذهب حيث تشاء..

- أثق بك بكل تأكيد، ولولا ثقتي بك لما صحبتك.

- هل تريد إذن أن تحدثها ؟

- أ...أتمنى لو كا بإمكاني ذلك...سأحدثها عن قصة جندي اسمه خوسي، جاء إلى وطن غير وطنه ليحارب وينفذ الأوامر، فإذا به يفر مع واحد من الذين جاء لاستعمار أرضهم ، قلبا كل شئ من حولهما...أ...وتاها نحو المجهول...كلاهما أبق من قومه... هذا هو ما سأحدث به نملتك.

- حدثها عن شطارة الكولونيل وحماسته، وولعه بالتاريخ والغوص في الماضي البعيد والقريب.

قال خوسي ضاحكا :

- أتذكر دائما يا سالم العزيز خطب الكولونيل مانويل التاريخية...حدثنا مرارا عن طيارين وقعا أسيرين لدى القبائل الصحراوية في طرفاية... لست أدري لماذا تذكرتهما... أ... أخشى أن نقع في الأسر ولا يفاوض بشأننا أحد.

أحب سالم أن يبدد خوف خوسي وقال مازحا :

- أ... أظن أن تلك النملة التي ستحدثها عن حماسة مانويل، ستخاطب جيوش النمل قائلة : ادخلوا مساكنكم... سيحطمكم الكولونيل المغرور وجنوده، ويخربوا أعشاشكم خرابا، ثم يفخرون قائلين : لقد نصرنا اسبانيا...ومكنا لها... ههه... حتى النمل خاف من بطشنا.

ضحك سالم ضحكا عاليا وهو يفرك عينيه محاولا هو أيضا تبديد الخوف الذي سيطر عليه وقال :

- وماذا ستقول للنملة أيضا يا خوسي ؟

رد خوسي بصوت حاني :

- سأقول لها شاكرا : اعذريني أيتها النملة العزيزة، لم أكن أعلم أنك طيبة وجئت لترشديني إلى أن ثمة حياة هنا لكي يدب الأمل في نفسي، ويتبدد كل الخوف

من حولي، سأعاقب جيوش النمل الظالمة التي قدمت من اسبانيا إلى جحورك الآمنة في إفني والسمارة، وانتقلت جحافلها بعدها إلى مركز العيون على مصب الساقية الحمراء... وهكذا... أ... أحدثت جحورا وتوزعت في كل مكان.

قاطعه سالم ضاحكا وقال :

- الكولونيل مانويل التعيس، يصنع منكم مؤرخين وعساكر في آن واحد، لقد حفظت تواريخ الكثير من الأحداث من خلال تعليماته المثيرة.

قال خوسي متحسرا :

- لقد كنت مجبرا على الإنصات إلى خطبه سنوات طويلة.

قال سالم :

- كنت أنا أيضا مجبرا على الانصات تحت الأوامر... لقد ضاعت من عمري سنوات طويلة.

كان خوسي ينظر إليه وقد شرد ذهنه، شعرا معا بالحزن يلفهما من جديد فقال سالم ضاحكا:

- لا أظن أن نملتك الاسبانية ستصمد طويلا أمام جحور نمل الصحراء الذي يعشق الحرية.

- صدقت يا سالم... النملة التي تعشق الحرية لا تتوقف طويلا عند الأحداث.

- النملة دائما مشغولة بما أمامها... أ... لعلها أتت إلينا من بعيد تبحث عما تحمله لتقتسمه مع أخواتها في الجحر.

- هذا صحيح...لم أر يوما نملة في حياتي واقفة دون حركة، أو مستندة إلى جدار.

صمتا قليلا فأدرك خوسي أن الليل قد تأخر فقال :

- لقد امتد بنا السمر طويلا يا سالم، سأنام أنا أولا، ثم تحرس أنت الجمل والسلاح، ثم تنام أنت النصف الباقي من الليل، أخشى أن يكشفنا الكولونيل مانويل إذا نجا من العاصفة.

قال سالم :

- لا تخف، لا أرى الكولونيل إلا هالكا لا محالة، فقد ذهب بعناده إلى العاصفة ولم تأت إليه، سأربط خطام الجمل برجلي، ثم ننام معا، نحن بحاجة إلى الراحة.

أغمض خوسي عينيه ونزع حزامه العسكري، ثم وضع سلاحه إلى جانبه، بينما قام سالم وصلى المغرب والعشاء، ثم استلقى بجواره وخلدا إلى نوم عميق.

كانت حركات الجمل الذي ربط سالم خطامه برجله توقظه كل وقت وحين، ولكنه سرعان ما يعود إلى النوم كأنه طفل صغير، وعند اقتراب الفجر لاح ضوء يسير في الأفق، قاما معا وهما يشعران بسعادة غامرة، لا أحد منهما يريد أن يفكر في المستقبل، ولا في زوجته وأبنائه، بل سعدا بصحبة بعضهما أيما صحبة، وبنجاتهما وكأنهما ولدا من جديد، توجه سالم نحو القبلة وصلى صلاة الصبح ثم قال لخوسي :

- سنتوجه قبل طلوع الشمس نحو الشمال.

نظر إليه خوسي وقال ضاحكا :

- الشمال... الجنوب...أنا أثق بدليلي كل الثقة، توجه بي حيث شئت...حسبنا أننا أفلتنا من العاصفة.

ضحكا معا و صارا يجريان كطفلين مرحين يلعبان، كان الجمل قد وقف ينظر إليهما كأنه يذكرهما بسرعة الرحيل، راح خوسي يصر على لمس قمة رأس سالم الذي ظل مصرا هو الآخر على لمسه فوق رأسه، لم يفلح أحد منهما في ذلك، فأخذا ينطان يمنة ويسرة حتى أعياهما نشاطهما المفرط وفرحهما بعلاقتهما الحميمة، أبركا الجمل ثم صعدا فوق ظهره وقد علا ضحكهما المكان.

أمسك سالم بخطام الجمل وصار يحثه على الجري باتجاه الشمال، وبعد فترة وجيزة لا حت له صور خيام بعيدة فصاح :

- انظر هناك يا خوسي... انظر هناك.

- وصلنا ؟

- أجل... أجل وصلنا..أرى نورا خافتا...هيا أسرع قبل أن ينتشر نور الشمس فيختفي.

مضيا مسرعين وهما يقطعان المسافة قطعا، وكلما اقتربا إلا وتجدد الغم في قلبيهما، خوسي يخاف من الصحراويين لأنه يحمل صورة المستعمر الغاشم الذي لم يتوان عن قتلهم من البحر والبر والجو، و سالم يخاف من الاسبان الذين تجند لمساعدتهم، واختاره الكولونيل مانويل رفيق رحلته.

انقطع ضحكهما ولاحت أشعة شمس خفيفة أمامهما، فبدا لهما النهار جديدا براقا يحمل من الأسرار ما جعلهما صامتين ولا يسمع غير صوت بعض الطيور التي تتردد على الواحة المكشوفة أمامهما.



مرت ثلاثة أيام كاملة، وأدرك الكولونيل خوليو أن رفيقه الكولونيل مانويل قد وقع له مكروه وتاه في الصحراء، فقد خرج في طلب مجموعة من الصحراويين المتمردين اللذين ينتظمون في حرب عصابات طاحنة، ينكبون المستعمر نكبا، ثم يكمنون في أطراف الصحراء لتجهيز أنفسهم والاستعداد لعملية جديدة.

ركب الطائرة العسكرية ووجه مجموعة من الجنود برا ، وصار يرقب مسيرتهم من الجو للحصول على خبر للكتيبة العسكرية التي لم تعد، كان يعلم جيدا أن بعض العواصف الرملية قد تهب أحيانا في بعض الاتجاهات فتحمل أطنان الرمال من مكان إلى مكان آخر، والرياح والعواصف في تلك المنطقة لا تتوقف عن النحت ورسم الأشكال الهندسية المتموجة في كل الاتجاهات مصحوبة بعلامات الموت والفناء، إنها تشبه أمواج البحر الهادر الذي لا يهدأ... كما أن احتمال تمكن الصحراويين منهم وحصارهم أو قتلهم وارد لا محالة، كانت مهمة الكولونيل خوليو هي فك اللغز وكشف سر الاختفاء المفاجئ.

لم يكف الكولونيل خوليو عن التلويح بمنظاره العسكري الذي يضعه كلما رأى حجرا صغيرا أو نتوءا فوق تلك الرمال، أمر ربان الطائرة الحربية الصغيرة أن يقترب من الأرض قليلا حتى يتبين ما يرى أمامه بشكل جيد، الطائرة تحدث أزيزا قويا يزيد من رعب الرحل كلما حلقت فوق رؤوسهم، فهي تنتمي إلى أسراب من الطائرات التي صنعت في إيطاليا خصيصا لإعلان الحروب الطاحنة على الشعوب المسعمرة، ولطالما افتخرت إيطاليا أنها أول من استعمل الطائرة في الحرب.

قضى الكولونيل خوليو نصف يوم كامل وهو يحلق بحثا عن الكتيبة المفقودة، ثم عاد إلى إقامته ليطمئن القيادة أنه سيجدها، وفي المساء قرر أن يهاجم الواحة المقابلة للمكان على مسافة بعيدة، ظنا منه أن أهلها أسروا الكتيبة وسيطلبون فدية كما فعلوا من قبل، فقد طاف في كل الاتجاهات ولم يعثر على أثريشفي غليله، فقفل عائدا وأمر من الجو كتيبة البحث والتمشيط بالعودة من حيث أتوا، كان قد اتفق معهم ألا يسيروا إلا في الاتجاه الذي تحوم فيه الطائرة الصغيرة التي يركبها، وقبل

العودة رأى بعض الجمال الجيدة تقطع كثبانا رملية دون أن يكون معها أحد، حمل منظاره بسرعة فعلم أنها إبل كتيبة الكولونيل مانويل التي قررت أن تمخر عباب الصحراء مغامرة بجنودها.

تيقن الكولونيل خوليو أن الكولونيل مانويل قريب من المكان حيث تطوف الجمال وحيدة، وأنه يطلب النجدة في مكان ما، سار الجنود باتجاه الطائرة إلى أن وصلوا إلى كثبان تتخللها حفر عميقة كأنها بحيرات كبيرة من الرمال الدقيقة، لاحت لهم بعض جثث الجنود ببزاتهم العسكرية الخفيفة وخوذهم المثبتة على رؤوسهم وقد غطت الرمال معظمهم، فلا تبدو هناك إلا بعض أجزاء الثياب والأيدي والأرجل، كانوا جميعا جثثا هامدة، صاروا يحاولون تقليبهم وقد بدأت جثتهم بالتحلل تحت أشعة الشمس المنتشرة في المكان، صاح الكولونيل خوليو :

- يا إلهي... الكتيبة كلها طمرتها الرمال ؟ يا للخسارة...هل اغتالهم هؤلاء المتمردون الحقراء ؟ أم أن الطبيعة وقفت إلى صفهم وقررت اغتيال جنودنا بهذه الطريقة الموجعة ؟

صار يخاطب مرافقه الذي شعر بألم كبير يعتصر قلبه، ويحدثه عن الكولونيل مانويل صديقه الذي جاء من إسبانيا وأقام في الصحراء مصطحبا عائلته الثرية التي تملك أسهما هامة في العديد من الشركات المحتكرة للتجارة بين الصحراء وغينيا وتمبكتو والسودان، تجلب الذهب والأثواب والتوابل والشاي وغير ذلك من السلع، ولها مصلحة كبيرة في تطويع تلك الصحراء وفتح مناجمها واكتشاف خيراتها، كان قد نشأ على التضحية من أجل مصالحه الشخصية حتى ولو كلفه ذلك حياته، وهاهو لحمه الذي نبت في تلك النعم المغصوبة يطبخ فوق الرمال ولا يملك أن يتوارى ليعطي فرصة للتحلل البطئ والرحيل الأبدي، صار خوليو يبكي صديقه ويتألم لفراقه، وقرر العودة إلى الإقامة لإصدار الأوامر للجنود بإحضار جميع الجثث، استقبلته زوجة مانويل بوشاحها الوردي ومروحتها المذهبة التي لا تفارقها وقالت متلهفة :

- هل من أخبار يا خوليو ؟ هل حدث مكروه لمانويل ؟

نظر إليها خوليو نظرة إشفاق، ثم جلس على الأريكة وهو ينزع حذاءه العسكري دون أن ينبس ببنت شفة، اقتربت منه باكية وصرخت :

- لا تبق هكذا صامتا يا خوليو... أخبرني أرجوك.

نظر إليها ثانية، فحدقت في عينيه لحظة، فرأت بهما احمرارا شديدا ودموعا منسابة وصاحت :

- مانويل...مانويل... ما الذي فعلته ؟ ما الذي فعلته بنفسك يا مانويل ؟ ها...ها...ها...

نزلت بناته من الدرج الواسع الذي يتوسط تلك الدار الفسيحة، علمن بالخبر فانخرطن في البكاء والصياح، دخل ابنه المجند كزافيي، والذي يشرف في نفس الوقت على العلاقات الخارجية لشركات والده فجأة، فرأى صور الحزن والبكاء تخيم على المكان، اقترب من خوليو وقال :

- ما الذي حدث لوالدي يا عمي ؟ الصحراويون المتمردون ؟... أ...أ...

حرك خوليو رأسه نافيا وقال :

- لا...لا... العاصفة الرملية التي مرت اخترقت الكتيبة...كان والدك يتعقب المتمردين القتلة... هذا وسام تفتخر به يا كزافيي.

اتجه كزافيي نحو مجموعة من التحف الفنية أمامه على الصوان، فيها أواني لأجداد الصحراويين تعود إلى العهد المرابطي، وصار يكسرها ويدك بقدميه أجزاءها دكا، كان يشعر أن رافدا كبيرا من روافد القوة لديه قد انقطع، أما والدته فعادت بها الذكرى إلى أيام زواجها الأول حين استقرت بمدريد وسعدت بذلك، قبل أن تراود زوجها فكرة الرحيل إلى تلك الصحراء للموت بين كثبانها بتلك الطريقة المفجعة، تمنت لو لم تأت إلى تلك الأرض التي تحاربها كما يحاربها أهلها، وعلمت يقينا أن

الحظ لم يحالف طموحات زوجها منذ اليوم الأول، فقد عمل ما في وسعه ليظل علم اسبانيا يرفرف في مستعمرتها التي تضم شركاته، ولم يجر عليه ذلك غير الوبال.

قامت وهي تجر رجليها النحيلتين وقالت لابنها :

- قم يا كزافيي لتحضر الجثة...سنقيم قداسا مهيبا.

قال الكولونيل خوليو :

- عفوا سيدتي...الجثة...آه...الجثة بدأت بالتحلل وسنختم عليها في صندوق خشبي لامع.

قالت متألمة :

- أحب أن أضع إلى جواره خاتم زواجنا...سأظل وفية له طيلة حياتي... ها... ها... أشعر أنني أواجه مستقبلا حالكا... ولكنني... ها... ها... سأظل وفية له...

أضافت مستدركة :

- ولإسبانيا المجيدة...ولاسبانيا المجيدة...

قال الكولونيل خوليو بصوت حزين :

- انتبهي لنفسك، إذا زار حاكمنا منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب، سيعلم أن إسبانيا العظيمة تقدم الكثير من أجل مجدها.

نظرت إليه نظرة حزينة وهي تفكر فيما يمكن لاسبانيا العظيمة أن تقدمه لمحو صدمتها، فهطلت دموعها وأمسكت بها بناتها اللواتي غالبهن البكاء المرير، ربت خوليو على أكتافهن وخرج مسرعا صحبة كزافيي المفجوع.

كان خبر ابتلاع عاصفة الصحراء لكتيبة الكولونيل مانويل قد ذاع وسط الاسبان، عسكرييهم ومدنييهم، وخيم الحزن على إقاماتهم المسيجة، وتجهزوا لاستقبال جثامينهم المغلفة في صناديق خشب الصنوبر اللامع.

كان خوليو يتمنى في قرارة نفسه أن يعثر على واحد من أفراد تلك الكتيبة حيا، ويتمنى لو كان هذا الحي هو الكولونيل مانويل نفسه، لأن هيبة اسبانيا ستتلاشى أمام الصحراويين المتمردين الذين ارتفعت معنوياتهم، وادعوا أن العاصفة عقاب من الله، فتحمسوا لتحريض أبنائهم وأحفادهم على عدم التنازل أو القبول بتمزيق وطنهم أو السماح في شبر منه.

لم تكن فرنسا أحسن حالا من جارتها اسبانيا، فقد لاقت هي أيضا الويلات من المقاومين الذين ينسقون فيما بينهم تلك العمليات المباغتة، و بالرغم من التفاوت الكبير في العدة والعتاد، فقد كانت مقاومة المستعمر عنيفة إلى حد لم يصدقه المستعمر نفسه، وقدم الشهداء أرواحهم في سبيل جلاء فرنسا، وحكم على الكثير من المقاومين بالإعدام أو بالأشغال الشاقة، وصودرت الممتلكات العامة والخاصة، وامتهنت الكرامة وتمزقت الآصار، وشكل الرافضون للاستعمار وحدات دفاعية في كل ربوع البلاد، تدك أساطين الأعداء وتقلق راحتهم، وتصدر العلماء و الشيوخ والعمال والطلاب وكل وطني غيور الخطاب، وحرضوا على مواجهة الفرنسيين، وعدم مساعدتهم أو تقديم العون لهم.



استطاع الجنود انتشال كل الجثث، إضافة إلى الأربعة الذين أرسلهم الكولونيل مانويل للبحث عن خوسي، فقد تملكهم الخوف ولم يبتعدوا كثيرا عن المكان، تجمعوا في مكان واحد كأنهم كانوا جميعا على موعد مع العاصفة.

نظر إليهم خوليو وقال :

- لو كان المتمردون هم الذين خنقوهم وأهالوا عليهم الرمال لأخذوا أسلحتهم وبزاتهم العسكرية...ولكن...هذا قدرهم...إنها العاصفة اللعينة...إنها العاصفة القاتلة.

انحنى الجنود إجلالا، وأدوا التحية لجثة الكولونيل مانويل، كان فمه مفتوحا وأصابعه تضغط على البوصلة حتى جرحتها، بينما تدلى وشاحه على صدره، كأن قوة العاصفة قد رمت به ونزعت خوذته ونظارته، نظر إليه ابنه وهو يتمزق من الألم، ثم غطى وجهه المعرق بيديه المرتعشتين وقال :

- أظن أنني سأرحل... لا أطيق البقاء في هذه الصحراء... إنني... إنني أكره هذه البلاد، ولا أظن أنها ستكون يوما جزءا من مستقبلي.

قال الكولونيل خوليو متاسفا :

- اصبر يا كزافيي، ولا تدع الحزن يستبد بك ويجعلك تطعن في خيار دولتنا المجيدة، هذه المنافع التي حصلها والدك من عرق جبينه تجعلك تصارع في هذه البلاد حتى آخر رمق، لا تدع ربوة ولا واديا ولا واحة إلا وعلقت عليها العلم الاسباني.. نحن هنا إلى الأبد.

أرسل كزافيي نظره حزينة نحو جثة والده التي صدرت منها رائحة كريهة وقال :

- هذه الجملة الحالمة لطالما طرقت سمعي...أنا أحب الحياة وأتمنى أن لا ألقى الموت كما لقيه كثيرون هنا.

صمت خوليو وهو يقبض بيد كزافيي ثم قال :

- أنت في العشرين من عمرك، وبانتظارك الكثير من الأعمال ولكن...هنا... هنا على أرضنا في الصحراء، ستبدي لك الأيام ما تطويه أرضها من كنوز...مستقبلك هنا...هنا...

كان يضرب بقدمه على الرمال وهو يردد : هنا يا كزافيي...هنا يا كزافيي.

أطرق كزافيي المكلوم رأسه، ووضع ثوبا قطنيا على أنفه الذي أزكمته رائحة الجثث، بينما انهمك خوليو في إصدار الأوامر للجنود بتثبيت الصناديق وإحكام إغلاقها ووضع العلم الاسباني فوقها.



دخل سالم و خوسي حمى الواحة التي بدت أمامهما وقد انتشر فوقها ضياء شمس بديع، نزلا من فوق الجمل وبدا خطوهما متثاقلا، قال سالم هامسا :

- أظن أننا سنغير ملابسنا، ناولني بذلتك العسكرية وخذ لباسي هذا، سأتظاهر أنني من المقاومين الذين يخدعون الاسبان ويتخفون بلباسهم العسكري، وأنك صديق أخرس استقدمه بعض تجار الملح في صفقة لهم... أ... أ... تحديدا من شمال آيت باعمران المجيدة، والذين لهم سحنة تشبه سحنتك، من حسن حظنا أنك دقيق القامة و الوجه، كأنك واحد منهم... حذار أن تنسى وتنطق بكلمة واحدة، ستبدو طول الوقت متعبا وتستحق الشفقة وعدم الاكتراث، سيقتلوننا معا إذا علموا بخبرنا، فهم لن يتساهلوا مع واحد من الخونة مثلي، أومن المستعمرين مثلك أنت...

قال سالم مرتبكا :

- ما رأيك ؟... ما رأيك يا حسين ؟ اتفقنا يا خوسي...عفوا يا حسين.

- حسين ؟ من أين لك بهذا الاسم أيها الداهية ؟

- خوسي... حسين...هذا هو اسمك الذي سأنادي عليك به...اتفقنا ؟

ردد خوسي مندهشا :

- حسين...حسين...هذا ليس سيئا...

- اتفقنا يا خوسي... عفوا... يا حسين.

- اتفقنا يا سالم... اتفقنا...

- سنتوكل على الله، هو وحده من سيساعدنا، فالصحراويون ليسوا أغبياء أبدا، وسيكشفوننا حتما، بل سيدركون سرنا لأول وهلة...

- هذا أمر مخيف يا سالم، لماذا لا نبوح لهم بكل ما جرى لنا ؟ ربما تفهموا...

قاطعه سالم قائلا :

- - هذا ما نويته أنا أيضا، ولكن... لابد من أن نخفي أمرنا حتى نتبين ما الذي يمكننا فعله، سأحاول إخبار شيخ القبيلة بالحقيقة بأسرع ما يمكن.

- الحقيقة... الحقيقة...

- لا تخف...سأتدبر الأمر، فأنت تعلم أنني أحب الحكمة والصدق...ولكن... لابد أن نخرج من هذه الورطة سالمين.

قال خوسي :

- وماذا تتوقع أن يحدث بعد إخباره ؟

- سأرفع يدي اليمنى وأقسم على ما قلته كلمة كلمة وحرفا حرفا.

قال خوسي جزعا :

- يا إلهي، سيعتبرني أسيرا ومحاربا مستعمرا، وسيحكم علي بالتآمر والاعدام شنقا أو رميا بالرصاص... أما أنت فستستعيد وطنيتك وأهلك يا سالم.

قال سالم مطمئنا :

- لا تنس أنني أعتبر أيضا من الخونة العملاء الذين يدلون الاسبان على المقاومين...يشهد الله أنني لست خائنا لوطني.

- ولا أنا كذلك يا سالم... لا أحب أن أخون أحدا.

قال سالم بصوت مرتفع :

- اسمع يا حسين... سنتوكل على الله، وسيدبر أمرنا.

- كل شئ ترده إلى الرب يا سالم، أنا أتعجب من أسلوبك في الخروج من المآزق...يؤسفني أنني مجبر على خوض هذه التجربة الخطيرة... ليتني لم آت يوما إلى هذه الصحراء... ليتني لم افعل.

- لا تتأسف يا خوسي، الرب هو الذي نجانا من الموت ردما...هيا...ناولني الملابس... الخوذة...النظارة...

لم تمر إلا لحظات حتى وقف كل واحد منهما وهو يتقمص شخصية الآخر، كان الجمل ينظر إليهما وهو يتشارك في الخرس مع خوسي الذي استصعب أن لا يتحدث في تلك الظروف مع رفيق مغامرته، وضع نواة تمر جاف وجدها في جيبه بين أضراسه، حتى لا ينسى وينطق بكلمة واحدة، إذ سيكلفه الكلام نزع النواة، ومن تم يتذكر فورا خطة سالم الغريبة، فيمسك لسانه فورا، امتزج لديه الاعجاب بشخصية سالم وطريقة تدبيره، بالخوف عليه وعلى نفسه من الآتي المجهول.

اقتربا من بستان أحد الشباب الصحراويين الذي كان مشغولا بتأبير نخله على مدخل الواحة، تقدم نحوه سالم وقال له بلهجة حسانية :

- نريد المسجد، نحن ضيوف على قبيلتكم.

نظر إليه المزارع مليا، ثم ذهب إلى بساط وضع عليه الكثير من التمر ليجف، فأحضر حفنتين وصبهما في حجر خوسي وقال لسالم :

- مرحبا بك... ولكن... ما هذا اللباس الذي تضع عليك ؟ من تكون ؟ هذا لباس الجنود الذين شردوا الصحراويين...كيف ؟ هل أنت منهم ؟

- لا بأس...أحب مقابلة شيخ القبيلة...هل تدلني عليه ؟

- هناك في الزاوية...

- الزاوية ؟

- أجل...الزاوية هنا هي الملاذ، وفيها يفصل بين المنازعات، وهي منارات العلم، لقد اتخذها الشيخ أيضا ثكنة للجنود المقاومين...وفيها يتم تنسيق العمليات ضد المستعمر وأداء الصلوات.

- تنسيق العمليات ؟ كيف تبوح لي بهذا السر دون أن أسألك ؟ ألست مجرد مزارع ؟

ضحك الشاب وقال :

- لست مزارعا كما تتصور، أنا حارس القبيلة، أخبار القادمين والخارجين منها بحوزتي.

- ما هذه السذاجة ؟ تبوح بكل شئ ودون أن أسألك ؟

- تقدم أمامي، سأصحبكما لمقابلة نائب الشيخ... ناولني بندقيتك.

تمسك سالم بالبندقية والحيرة والخوف يتملكانه وقال :

- هل تعرفني ؟

- وهل تعرفني أنت ؟

- كلا...كلا...

- ما رأيك لو أخبرتك أنني أعرفك حق المعرفة.

نظر إليه سالم وقد تسارعت دقات قلبه وقال :

- يا إلهي ! أتعرفني ؟

- أنت من قبيلة قريبة من الساحل، وتحمل جرح الوطن بداخلك.

- يبدو أنك في وهم كبير...ربما أشبه أحد معارفك.

- أنت من الجنوب تحديدا.

- يا إلهي كيف عرفت ؟...من أخبرك ؟ هذا صحيح...من أخبرك ؟

- أخبرني الجمل الذي يرافقك.

- الجمل ؟ الجمل أخرس...إنه لا يتحدث إلى أحد...كأنك مجنون.

- العملية التي حدثت في الجنوب كانت كبيرة، واقتضت من الاسبان أن يتركوا عرباتهم ويقتنوا هذه الفصيلة الجيدة من الجمال للغوص في الصحراء باتجاه

المقاومين...وهذا واحد منهم...وقد غنمته...أليس كذلك ؟ سيقلدك شيخ القبيلة وساما ويجعلك مثالا لشباب القبيلة ليلحقوا بالمقاومين وهم متحمسون.

ابتلع سالم ريقه وتنفس الصعداء وقال :

- أجل...اكتم عني هذا الأمر...فلدي الكثير مما يمكنني فعله...ستصحبنا لأراه هو شخصيا، فأنا لا أحب مقابلة نائبه.

- حسنا...اركبا الجمل معا وسأصحبكما.

أومأ سالم إلى خوسي الذي ظل يحتفظ بالنواة تحت أضراسه، وكله حيرة وشوق إلى معرفة ما يدور بين سالم والمزارع الذي نظر إليه وقال :

- هل مرافقك أخرس ؟ لم لا يتكلم ؟

- لم يفهم خوسي ما قاله المزارع، ولكنه علم أنه يتحدث عنه، فابتسم وشعر بنبضات قلبه تتسارع، تخيل ما الذي يمكن أن يحدث له لو علم الصحراويون بجنسيته، لم ينس أن يدس بطاقته العسكرية في جيب سالم الذي قال مستدركا :

- رفيقي هذا اسمه حسين، وهو من البربر الذين يصاهرون الكثير من قبائلنا.

لم يكترث المزارع كثيرا، ورافقهما إلى مربض قرب الزاوية، تركا الجمل بحوزته، وواصلا المسير من ورائه، وعندما اقتربا من الزاوية التي تحلق بها العديد من المريدين الذين يقاومون الاسبان قال لهما :

- امكثا هنا قليلا، سأعود لأصحبكما لمقابلة الشيخ.

قال سالم وقد تملكه الفزع الشديد :

- لا تتأخر رجاء، فنحن مسعجلان.

شعر سالم ببرودة ورعشة كبيرتين يغشيانه، فهو عميل الأمس الذي تحول فجأة إلى مقاوم بطل، يقاتل ويغنم السلاح والبزة العسكرية والجمل أيضا، كان عليه أن ينسجم مع الدور الجديد الذي أسند إليه دون أن يكون بانتظاره، كانت عزة الوطن تتلألأ في قلبه كالجمان، وشعر أن شخصيته قد استوت وعادت إلى فطرتها، وأن هذا الدور الذي يتقمصه الآن، هومفتاح حياته ومتنفس روحه، فاختلجته مشاعر الخوف والفخر في آن واحد، ونتج عنهما وشاح غطى وجهه عرقا،وبرقت عيناه وارتعشت أطرافه، كان يخاف أن يكون بين المريدين مقاوم من قبيلته فيتعرف عليه، فقرر أن يخبره بصدقه في حب دينه ووطنه، وأن الله اطلع على ما في قلبه فاختار له المقاومة بكرامة.

لم يكن خوسي أحسن حالا منه،وعلم أنه سيق إلى مكان لم يكن يظن قط أنه سيدخله، ثكنات المقاومين الصحراويين وغرفة عملياتهم، بل مكان انعقاد اجتماعاتهم التي طالما أنفق الاسبان الغالي والنفيس لمجرد الاقتراب منها، لطالما حاول رشوة من يخترقها ويأتيه بما يدور بداخلها، تراءت له زوجته وهي تتوسل إليه أن لا يختار السلك العسكري، وعندما لم يطاوعها والتحق بالجنود المغادرين، كانت تحذره من أهل الصحراء المتوحشين، تخيل دهشتها لو رأته محتضنا وضيفا على ألد أعدائه.

كان امتحانه العسير أن يتظاهر بالإعياء وأن يضبط حركاته ولا ينطق بكلمة واحدة، وأن يظل منزويا قدر الإمكان حتى لا يثير اهتمام أحد.

وبعد وقت وجيز حضر المزارع وقال :

- هيا بسرعة... لاتتأخرا...فلدى الشيخ الكثير من المهام واللقاءات، وهو ينتظر وفدا يحمل رسالة من سلطان البلاد قد يكون على بعد ميلين فقط من هنا.

غطى سالم وجهه بنظارة خوسي العريضة،وأحنى رأسه حتى لمس صدره، تعلق به خوسي كالطفل الصغير، وأسرعا الخطى نحو غرفة الشيخ، كان الجميع يفسح لهما المجال حتى وصلا إلى الباب، فأوقفهما شاب قوي البنية وقال :

- البندقية أيها الضيف المحترم، ضع الخوذة والنظارة.

نزع سالم ما كان عليه من سلاح، وأفرغ كل ما في جيبيه، فإذا ببطاقة خوسي وصورة زوجته تسقط على الأرض، حملهما الحارس ونظر إليه مليا وقال :

- هذه الأشياء تخصك ؟

- كلا..كلا...غنمت البزة ولم أر ما بداخل الجيوب، أنا... أنا مستعجل.

كان خوسي يرى صورة وجه زوجته مبتسما بين أصابع الحارس، فانفلت نظره وكاد يترجاه أن يحتفظ بالصورة ولا يمزقها.

دخل الحارس على الشيخ وقال :

- يدعي أنه مقاوم..وجدنا هذا في جيبه..رفيقه أيضا يا سيدي... أ... أ... يدعي أنه أخرس.

قال أحد المريدين :

- لعله جاسوس أرسل إلينا، ويتظاهر بأنه مقاوم.

قال الشيخ واثقا :

- أدخلهما بسرعة، قصتهما يلفها الغموض، نحن نتوكل على الله وهو دائما يحفظنا.

دخل سالم و أدى التحية، ثم جلس بين يدي الشيخ وقال :

- سيدي العزيز، أنا قررت أن أصدقك وأقول الحقيقة، فوالله لن ينجيني اليوم إلا الصدق.

انهمرت دموع سالم وصار يئن كالطفل الصغير، كان يحكي للشيخ وقائع رحلته أولا بأول، ويذيل كلامه بالقسم العظيم، ويتلو من حين لآخر بعض الآيات القرآنية، كان الجميع من حوله يسمعون حكايته مستغربين.

انشرح صدر الشيخ وأثنى على صدقه، ووعده أنه سيقبل جواره ولا يمس خوسي بأذى.

حملا معا على عجل إلى خيمة الضيافة، وهناك تم إكرامهما، ولبس خوسي لأول مرة لباسا صحراويا لا يميزه عن المقاومين الذين كانوا يرقبون كل تحركاته، مرت أيام يسيرة، فاقترب منهم كثيرا، وصار مدمنا على الشاي في جلساتهم، فقرر يوما أن يكسر توجسهم الذي يحيط به قائلا :

- أتمنى أن تختاروا عشرة من النبهاء الأذكياء لأعلمهم صناعة المتفجرات اليدوية... سأعلمهم شيئا مما تعلمته في المؤسسة العسكرية عندما كنت أتأهب لمحاربتكم، أنا أعلم أنكم تشكون بأمري طيلة هذه المدة، ولكنني سأثبت لكم أنني أومن بعدالة قضيتكم، واومن أننا نحن الذين أتينا إليكم لاستعماركم، فنزعنا خيامكم، وحرقنا متاعكم، وقتلنا أبناءكم...

نظروا إليه مندهشين، فصمت برهة، ثم حول نظره نحوهم الواحد تلو الآخر وقال :

- أنا... أنا أعتذر... أجل... أقولها لكم بكل الجرأة التي أملك... أنا أعتذر منكم بالنيابة عن بلدي اسبانيا، واقبلوني واحدا بينكم.

قال واحد منهم :

- تعتذر ؟ هذا أمر أسمعه لأول مرة... أنت تؤمن بقيمة الانسان يا خوسي، أنت حكيم حقا.

قال آخر :

- لماذا كل هذه العذابات ؟ لماذا لا يعلو رأيك يا خوسي في أوساطكم الدبلوماسية وتخرجون من أرضنا معتذرين ؟ يكفي ما أصابنا، قتل أبناؤنا،وطردنا من واحاتنا، واقتلعت خيامنا...

قال خوسي :

- ليس كل الاسبان على رأي هؤلاء الجنرالات القتلة، صدقوني... أنا واحد من أولئك الذين يقفون وراء البحر ولهم قلوب وآذان تسمع أنينكم.

رد أحد الجنود الصغارقائلا :

- نحتاج إلى الاصرار على مبادئنا لنفهمهم أننا على أتم استعداد للدفاع عن كل شبر من أرضنا، وأننا سنظل متأهبين لدفع الثمن مهما غلا.

قال خوسي :

- أظن أن الأمور قد ازدادت تعقيدا بعدما اتضح لهم أن أرضكم هذه تحبل بثروات طبيعية عظيمة.

قال أحد المقاومين الذي دأب على تتبع أخبار المستعمر وتحركاته :

- علمت أنهم استقدموا شركات للاستشارة والبحث والتنقيب في أرضنا، من أعطاهم الاذن بذلك ؟

قال خوسي موضحا :

- ليست اسبانيا في الصحراء وحدها هي التي أحبت أن تحفر ما تحت أقدامكم، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، هولندا، بلجيكا... كلهم انتشروا في إفريقيا للبحث عن كنوزها، فقد علموا أنها منجم العالم الذي لا ينضب... لقد مات كثيرون من أجل ذلك... أ... أ... و ما زالوا يموتون... للأسف... أ... أ... سأنخرط جادا في صفوف مقاومتكم، لأنني أومن بعدالة قضيتكم، لدي شرط واحد.

قاطعه احد الجنود قائلا :

- ما هو ؟ ما هو يا خوسي العادل ؟

ابتسم وقد تلألأت عيناه وقال :

- أن تقبلوني بينكم... كما لو كنت واحدا منكم.

نظروا إليه مندهشين، وقاموا جميعا يعانقونه الواحد تلو الآخر، أما هو فازداد تقديرا لهم، وأعجب بدماثة أخلاقهم فقال :

- أشعر بسعادة كبيرة تغمرني... و...وأحب أن تعتبروني أخا لكم، ومنذ الآن... سنتحول إلى خيمة مستقلة ونبدأ في التصنيع، نحتاج إلى...

حمل احد الجالسين إلى جواره يده بخفة كبيرة، ووضعها على فم خوسي وقال :

- لا تنطق الآن بشئ...مثل هذه المواد ستكون سرا بيننا...أنا وأنت.

استدرك المقاوم قائلا :

- - أنا رئيس القسم العسكري لكتيبتنا، سأضرب لك موعدا... وسأحضر لك كل ما تحتاجه، وأختار خمسة منا ليساعدوك.

فهم خوسي أن الحاضرين ليسوا كلهم منخرطين في عمليات المقاومة مباشرة، وأن مهامهم تختلف من مجموعة لأخرى، فأومأ بالإيجاب، وتهلل وجهه فرحا، بينما وقف سالم ليتسلم كوب اللبن من خادم الخيمة وهو ينظر إلى خوسي باسما.



المغامرة



اشتدت عمليات الاسبان والفرنسيين في البلاد كلها، وقرروا أن يفتكوا بكل المقاومين فتكا، فصدرت أوامر خطيرة تحث على استعمال كل الأسلحة الممكنة لإخماد قوة الثائرين، وتملك الناس فزع كبير، وصاروا لا يستطيعون الخروج من خيامهم أو التجوال بينها، كان الاستعمار قد أسس جهازا إعلاميا يسنده، وأغدقت عليه الأموال ليوسع نفوذه ويشتري ضعاف النفوس والهمم، وتقلد قلة من المواطنين مناصب وعلقوا أوسمة المستعمر، كانوا يترددون على الإقامة التي تؤوي زينب زوجة سالم كخادمة متميزة، فتحاول ان تقترب منهم لتتحسس أخبار زوجها الغائب، كانت تشعر أنه على قيد الحياة في مكان ما، لأن الجنود لم يعثروا على جثمانه هو ورفيقه خوسي، تراودها أحيانا فكرة الهروب ليلا للبحث عنه بنفسها ودون الاتكال على أحد، فيراودها خوف كبير من المغامرة وعواقبها، ومن الكلاب والحراس المحيطين بالاقامة في كل اتجاه.

اقتربت يوما من أحد الأعيان الأثرياء الذين يفدون على المكان وقالت :

- سيدي...هل تسمح لي بسؤال واحد :
- ما هو يا...
- زينب يا سيدي...زينب...خادمة الكولونيل في هذه الاقامة العسكرية.

نظر إليها بامتعاض فقالت على الفور :

- لماذا أتى هؤلاء إلى بلادنا ؟
- هؤلاء ؟ من ؟ من تقصدين ؟ الاسبان ؟
- أجل...

نظر إليها مندهشا وقال :

- أنت تخالطينهم يا زينب، الأولى بك أن توجهي إليهم هذا السؤال هم، وليس أنا.
- لقد تشتت شمل أسرتي وصرت غريبة في بلدي.

ازداد استغرابه وقال هامسا :

- آه...الأمر معقد يا زينب، إنهم يرغبون في الاقامة معنا...هذا ما يقولون.

قالت زينب ساخرة :

- الإقامة معنا ؟ ضيوف إذن...هل هناك من وجه الدعوة إليهم ؟
- آه يا زينب... لديك أسئلة لا أجد حماسا للجواب عليها الآن، هيا...أخبريني بسرعة...هل سيحضر الكولونيل ميخيل الآن.
- لديه اجتماع مع آخرين..لا يتحدثون الاسبانية...ربما من فرنسا او بريطانيا...لا أدري.
- ولكنه على موعد معي، وأنا هنا أنتظر منذ وقت طويل.
- موعد معك ؟ أنت ؟
- أجل أنا... السيد خير... من الأعيان الكبراء.
- لا أظن أنه تذكرك...لقد أمرني بإحضار أكواب من الماء والعصير، وغلق كل الأبواب بإحكام، وأمر الحارس بأن لا يدخل أحدا، أظن أن وجودك هنا قد يزعجه ويتسبب للحارس في مشكلة...لست أدري ماذا حصل.

نظر إليها السيد خير وهو يشعر بامتعاض كبير وقال :

- لدي أمر هام بخصوص اتفاقنا معه.

قالت زينب وهي تقترب من السيد خير :

- لو استطعت تقبيل قدميك لفعلت...أنت لن تقبل ذلك...ولكنني أريد أن ألحق بزوجي لأراه في القبيلة المجاورة، أبنائي يدرسون في مدارسهم، ويلقنون دينا غير دينهم، ولم يعودوا يعرفون الحديث بغير الاسبانية، لقد أصبحت أشعر أمامهم بغربة قاتلة، أدركني أرجوك...أ... أرجوك، هل بإمكانك مساعدتي ؟

- ماذا تقولين يا زينب ؟ أنت هنا في نعيم، وأبناؤك التحقوا بالمدرسة مع أبناء الاسبان، سيغدون مدربين وناجحين.

- لقد لحقني عار كبير... لا أريد هذا النعيم الذي تتحدث عنه، وتعبت من هذا التشرد البئيس، من هذه العبودية... المرأة الصحراوية لا تقبل العبودية إلا لله.

نظر إليها السيد خير وقال :

- الصحراوية لا تقبل العبودية إلا لله...كلام جميل...ما كنت أظن يوما أنك غير سعيدة بهذا النعيم من حولك.

- أرجوك لا تخبر أحدا بما بحت لك به، ما أطلبه منك هو مساعدتي في لم شمل أسرتي، رؤية زوجي أوالحصول على أخباره، اسمه سالم ولد أحمد، هو معروف بسالم النخلة، وهو رجل طويل ولديه نفطة سوداء بين عينيه، ولحيته خفيفة...

قاطعها السيد خير وقال :

- سأكون صريحا يا زينب وأخبرك أنني لا أستطيع مساعدتك، نحن مشغولون الآن ببعض المناوشات بين قبائلنا، الكل يدعي أن المنطقة التي نرعى فيها تعود إليه، ولا بد من الفصل بين المنطقة التي تقع تحت نفوذ الفرنسيين، وتلك التي تقع تحت نفوذ الاسبان...

تقدمت زينب وقالت :

- أرأيت ؟ لقد فرقوا بين القبائل أيضا، وأنت تستشعر ألم التفرقة وتمزيق الأوصال،أستحلفك بالله أن تجمع بيني وبين زوجي...أما هذا النزاع، فهم يصنعونه ويتفرجون عليكم منتظرين اقتتالكم فيما بينكم.

- من أدراك بذلك ؟

- أتابع ما تتحدث به العائلة أحيانا أثناء تقديم الوجبات، ماذا تظن أنهم يخططون في تلك الاجتماعات السرية، الفرنسيون والاسبان لا يتوقفون عن التردد على السيد الكولونيل.

نظر إليها السيد خير بإشفاق وقال :

- سأكلف من يبحث عن زوجك ويأتيك بخبره...هذا ليس وعدا أقطعه جازما، هناك أمور هامة تشغل بالي، وربما لن أوفق في تلبية طلبك.

- أشكرك، زوجي في القبيلة الأخرى جهة الشمال... أظن ذلك، أرسلت راعيا يحضرعادة بعض الشياه إلى هذه الإقامة ليتقصى خبره في قبيلتنا، فلم يعثر له على أثر، تخيل؟ امرأة شرد زوجها، وتفرق أبناؤها، وظلت في خدمة من فعل بها الأفاعيل وكان سببا في حزنها الدائم ؟... وأكثر من هذا... لا تتاح لها فرصة زيارة أهلها ولا البحث عن زوجها ؟

- لو علموا بما تفكرين به يا زينب، لكان لهم معك شأن.

- أنت صحراوي أصيل وصاحب عهد، ولا أظن أنك ستخبر أحدا، بل أرجو منك مساعدتي...أتوسل إليك.

- مساعدتك ؟ ما الذي تريدينه مني تحديدا ؟

- أن تخرجني من هنا إذا لم تستطع إحضار زوجي...أخرجني والله سيكرمك يا سيد خير...ولن أنسى لك فضلك.. أ...أرجوك.

- هذا مستحيل، هذا مستحيل يا زينب، أنت تعرفين أنهم لا يعرفون غير بنادقهم، لو كانوا يعترفون بالمشاعر لما شردوا أسرتك أصلا.

- إذا رأوني أتحدث إلى واحد مثلك... لن يشكوا في أمري أبدا... لوساعدتني... كما لو كنت أصحبك نحو الخارج للحديث معك في أمر شخصي.

أطرق السيد خير رأسه، ففتح الكولونيل ميخيل الباب الكبير الذي أحدث صوتا قويا بسبب متانته وقوته، تظاهرت زينب بمسح الطاولة الخشبية، بينما تقدم الكولونيل ميخيل نحو الباب الرئيسي، وهو يودع ثلة من العسكريين الفرنسيين والاسبان الذين كانت سياراتهم العسكرية رابضة في المكان، قطع غرفة الاستقبال دون ان يعير السيد خير أدنى اهتمام ، فلحق به الخادم وقال :

- هناك من ينتظرك، ويصر على أن يراك.

التفت الكولونيل ميخيل نحو السيد خير وقال :

- آه أنت هنا ؟

- أجل...كنت ساغادر، من مدة وأنا أنتظر.

- تنتظر ؟ تنتظر ماذا ؟

- الموعد الذي ضربت لنا.

- لم يكن موعدا ثابتا، وإنما أوضحت لكم انه لابد من الاتصال بحكومتنا المجيدة قبل اتخاذ القرار، وذلك يتطلب وقتا كما تعلم.

- أنت تماطل يا سيد ميخيل، لم يكن هذا هو ما اتفقنا عليه.

- أ... أ... أماطل؟ كلا ... كلا ... أنتظر الأوامر.

- تتصلون بحكومتكم في كل صغيرة وكبيرة، وتمنعوننا من أن نتصل بالسلطان؟.

- حسنا، هذا ليس موضوعنا الآن، قل لي... ما الذي تريده تحديدا.

قال السيد خير غاضبا :

- - خلافكم مع الفرنسيين حول أرضنا ينعكس علينا، نريد أن يهدأ هذا الأمركما شرحت لك من قبل.

ضحك الكولونيل ميخيل ضحكا عاليا وقال :

- خلافاتنا مع الفرنسيين ؟...ههه...ليس هناك خلاف مع أحد يا عزيزي... الاسبان..الفرنسيون.. الانجليز...الطليان...من يقود العالم إذا اختلفنا نحن ؟

قال السيد خير :

- السيد ميخيل...لقد شرحت لك من قبل، نحن بحاجة إلى ترسيم ال...

- حسنا، عد لاحقا...وسنرى ما الذي يمكن فعله...أنا متعب جدا الآن... يسعدنا أن نوقع معكم بعض الاتفاقيات.

قال السيد خير مستنكرا :

- هذه هي المرة الرابعة التي أحضر فيها لأجل هذا الموضوع.

نظر إليه الكولونيل ميخيل مكشرا عن أسنان صفراء وقال :

- لم تضبطوا أولئك المتمردين كما طلبنا منكم، إنهم يواصلون حربهم ضدنا... لم توقفوا تلك العمليات التي يقومون بها ليلا ونهارا.

قال السيد خير غاضبا :

- هذا أمر كبير ولا دخل لنا فيه...إذا كنتم أنتم بكل قواتكم وتحالفاتكم لا تقدرون على ذلك، فكيف تطلب منا ذلك ؟

- أنتم زعماء تلك القبائل، وهؤلاء الأوغاد أبناؤكم وحفدتكم، لقد أخرجتموهم من الكتاتيب القرآنية، وسلمتموهم سلاحا بدل لوح القرآن...أنتم تريدون أن تحاربونا ليلا ونهارا.

- هذا الأمر كبير علينا كما ذكرت لك، نحن بسطاء جدا، ولا يسألنا أحد الإذن في الدفاع عن مصالحه الشخصية والوطنية.

قال الكولونيل ميخيل غاضبا :

- عليكم أن تعلموهم ذلك، نحن التقينا بكم مرارا، وكنا نظن أننا سنعتمد عليكم ولكن....يبدو أننا سنغير خطتنا في التعامل معكم، هيا...ستعود بعد أسبوع.... وسنرى ما الذي يمكننا فعله.

نظر إليه السيد خير وهو يتأمل لباسه الأنيق وتلك النياشين التي أثقلت صدره وقال :

- سأحضر هذه المرة للاتفاق على حل...وليس للحديث أو مجرد عرض الأفكار والاقتراحات... يبدو أن هذه المفاوضات لا تفعل الكثير.

رد الكولونيل ميخيل وهو يداعب قبعته الصقيلة :

- ألا تخشى أن أعتبر هذا تهديدا ؟...أ...

- أنت تعلم جيدا أنه لم يكن كذلك.

سخر من نفسه وهمس بحذر شديد: وهل لضعيف مثلي أن يهدد أمثالك أيها المتعجرف ؟

نظر إليه الكولونيل ميخيل شزرا وأردف :

- أحضر معك من كل قبيلة ستة زعماء، أريد التحدث إليهم جميعا...هيا... انصرف الآن.

خرج السيد خير وهو يشعر بغضب شديد، وتمنى لو أنه لم يحضر ليتلقى تلك الاهانات.

كانت زينب ترقب ما يجري من بعيد، وتتمنى لو اصطحبها السيد خير إلى خارج الاقامة لتلحق بقبيلتها وتبحث عن زوجها، فقررت أن تتجهز للهروب بأي وسيلة ولو كلفها ذلك حياتها، كانت تبكي وهي تتذكر أبناءها الثلاثة الذين يتعذر عليها اصطحابهم.

مسحت دموعها واعترضت الكولونيل ميخيل وقالت :

- سأرسل من يحضر أخي لزيارتي هذا المساء، هل تسمح يا سيد ميخيل أن أرسل معه أبنائي بثلاثتهم ليصلوا رحمهم ويمكثوا هناك بعض الوقت ؟

ابتسم الكولونيل ميخيل وقال :

- بالتأكيد...هل هذا يسعدك يا زينب ؟

- أجل يا سيد ميخيل...هذا يسعدني كثيرا.

هرعت لتحضر فنجان القهوة وكلها حبور وأمل، وعندما أتت به قال لها السيد ميخيل:

- السيدة تعترض.

- على ماذا ؟

- على خروج أبنائك لزيارة عائلتهم.

- ولكن...أنا أحب أن يتعرفوا على أهلهم.

وقفت السيدة روزا وهي تشير إلى الخادمة التي تسوق عربة الطعام وقالت :

- زينب، كم أنت ودودة، هذه الأصناف من السمك كلها حضرتها بنفس النكهة، رائع...رائع...الزعتر البري... آه... تسحرني رائحته.

- شكرا سيدتي...السيد ميخيل أخبرني أنك تعترضين على خروج أبنائي لرؤية

ذويهم.

- أجل، هذا ما أخبرت به زوجي الآن...لقد انسجموا مع أبنائي انسجاما فريدا، ولديهم قداس يوم الأحد.

- أنا أعترض، لا أريد منهم أن يذهبوا إلى هذا القداس.

- نحن لا نقصد غير إشعارهم أنهم أبناء لنا، لقد توفي والدهم العزيز فداء لوطننا يا زينب، يمرحون مع فلذات أكبادنا، ويذهبون حيث ذهبوا... أظن أن هذا العمل يستحق منك الشكر والثناء.

اقتربت روزا من النافذة وقالت :

- تعالي يا زينب، انظري هناك على الشاطئ...إنهم يلعبون بكل حرية، وبعد ساعة سيحضر الأستاذ ليعلمهم ويلقنهم كأنهم في مدرستهم.

شعرت زينب بإحباط كبير ونظرت إلى السيد ميخيل نظرات ملؤها الحقد والكراهية، لم يكترث وصار يقلب أصناف السمك المشوي الذي تصطاده سفنه على الشاطئ الصحراوي، ويقوم بتصديره جملة إلى اسبانيا عبر البحر.

اقتربت منه زوجته وقالت :

- أشعر أن هذه المرأة ستمنع هؤلاء الأبناء من حبي لهم، لقد تعلق قلبي بهم وصاروا مجدين... يتحمسون لديننا وعاداتنا، إنهم أذكياء إلى حد لا يتصور، أفكر في تعميدهم دون أن تعلم هي بذلك.

قال السيد ميخيل :

- أنا لا يهمني أمرهم، زينب طباخة ماهرة، تذوقي هذا الطبق يا روزا.

قالت روزا هامسة :

- أجل... هي طباخة ماهرة...ولكنها ماكرة.

- لا تنسي يا روزا، فهم أبناؤها، وقد توفي والدهم مطمورا في الرمال وهو يؤدي الخدمة لدينا، حتى جثته لم يجتهدوا في العثور عليها.

قالت روزا :

- لست ادري... لدي شعور أنها ستتركنا، منذ أن اختفى زوجها وهي حزينة و مضطربة.

- أصدري أوامرك للحراس بتشديد الرقابة عليها يا روزا، من سيطهو مثل هذه الأكلات ؟

استغرق الكولونيل ميخيل وزوجته في تناول طعامهما، بينما استغرقت زينب في البكاء، كانت تحاول ثني دموعها حتى لا يشعر بها أحد.

لم يمر أكثر من أسبوع، حتى حضر أعيان العديد من القبائل للاحتجاج على ما فعله بهم الفرنسيون والاسبان، إذ تدخلوا قسرا في شؤونهم، وصاروا يوزعون الأراضي ذات الماء والكلأ على القبائل بطريقة غير مرضية، يحرمون هذه ويرضون الأخرى، وكان يسرهم أن يستدرجوا الأعيان إلى حروب طاحنة بينهم، وهو الشئ الذي لم يحدث منذ قرون، مع محاولة إذكاء الصراعات وتغذيتها بين القبائل بعضها البعض بكل الوسائل الممكنة.

كان الباب الخلفي لإقامة الكولونيل ميخيل قد غص بالرجال المتلفعين بألبستهم المحلية وعمائمهم المثبتة حول أعناقهم، والتي يغطي طرفها بعضا من وجوههم الغاضبة، حوالي ستين رجلا تعلو احتجاجاتهم المكان، أطل عليهم الكولونيل ميخيل من غرفته وهو يثبت أزرار بدلته العسكرية، والتي يتعمد لبسها والإمساك بنظارته الصغيرة كلما أراد أن يفرض هيبته.

كان الصحراويون غاضبين لحد الجنون، تتعالى أصواتهم ويدعي كل واحد منهم الحق في حماه، أصر الكولونيل على استقبالهم جميعا في حديقة إقامته الفسيحة، وكان غروب الشمس على الأبواب، فأمر بإشعال الأنوار وتقديم الشاي

لضيوفه على طريقة أهل الصحراء.

كانت زوجته قد تضايقت من تلك الجلبة التي اشتعلت في المكان، فقال لها ميخيل بصوت حان :

- لا عليك يا عزيزتي، سأحاول تهدئتهم بطريقتي الخاصة، هذا عملي وأعرف جيدا كيف أتقنه.

نادى على ستة من مرافقيه في الإقامات العسكرية المجاورة لحراسته، وأصدر أوامره بالتزام الهدوء التام، ثم قام باستقبال المحتجين بطريقة لبقة.

خرج إلى حديقته وهو يمشي كالطاووس، ورحب بالصحراويين الغاضبين الذين قاموا جميعا وهم يرفعون أيديهم وأصواتهم وقال :

- أرحب بكم في بيتي، فهذه أول زيارة لكم، نحن نحتاج إلى زيارات أخرى للتنسيق والتعاون، سنؤسس لحوار يرضي كل الأطراف.

قال زعيم أحد القبائل وكان رجلا مهيبا وسط جماعته :

- تقول أنك تستقبلنا في بيتك ؟...أ... في بيتك ؟ ... ا... هل هو بيتك حقا ؟ هل أنت متأكد مما تقول ؟

ضحك الكثير من الأعيان ضحكا يلفه غضب عارم وأسى على مواشيهم التي لم تعد تنعم بالرعي الآمن، بينما عبر الكولونيل ميخيل عن غضبه وصار ينظر إلى السماء فقال :

- يبدو أننا مرة أخرى سنؤجل هذا الاجتماع... هذه ليست لغة حوار... أنا أمثل اسبانيا العظيمة.

رد زعيم أكبر القبائل وهو يظهر غضبه، ويرفض نداءات التهدئة التي بدأت تصدر عن بعض مرافقيه قائلا :

- منذ أتيتم إلى أرضنا ونحن نعاني من كيدكم، لم نكن نعرف هذه المناوشات من قبل، بل جمعتنا الأخوة والمصاهرة وعمنا الأمن والسكينة قرونا... كان الحوار طعما نتلذذ بحلاوته في طعم التمرة التي تسقط في أطباقنا من ذلك النخيل السامق... ونحن نتحلق حوله في مناسباتنا... و... نقرض شعرا... الحوار..الحوار..

قامت جلبة عظيمة في المكان، وأكدوا جميعا أن المستعمر هو الذي بدأ يشتت أوصالهم ويزرع التفرقة بينهم.

شعر الكولونيل ميخيل أن اجتماعهم للاحتجاج قد يولد اتفاقا بينهم على إنشاء معارضة منظمة ونافذة، فقال وهو يظهر اعتذاره:

- أتمنى أن تعتبروني واحدا منكم، أعدكم أننا سندرس مشاكلكم... وسنعيد بناء دوركم ونصب خيامكم.

رد زعيم قبيلة كبيرة تمت إحالتها على النفوذ الفرنسي في الجنوب.

- تصنعون مشاكلنا في عمليات غرفكم، تصنعون بؤسنا، ثم تنادون علينا للمفاوضات ودراسة الأوضاع، تهدمون دون توقف، ثم تعرضون أنفسكم لإعادة الإعمار... المفاوضات... المفاوضات... هههه... نحن لم نأت لهذا، نطلب منكم شيئا واحدا، أن ترفعوا أيديكم عن تقسيم القبائل وترسيم الحدود بينها بتلك الطريقة الخسيسة، ارفعوا أيديكم عنا ولا حاجة لنا في مفاوضتكم... ارحلوا من بلادنا، وسنشكركم ونقبل اعتذاركم.

قال الكولونيل ميخيل وهو يطلب منهم أن يتناولوا الشاي الساخن.

- إعادة الإعمار... لن يكلفنا كثيرا، إذ ليس لديكم غير هذه الخيام الرائعة، فهي تسهل تنقلاتكم و ترحالكم... حسنا... مرة أخرى أؤكد لكم نوايانا الحسنة، نحن هنا لأجلكم.

صمت قليلا ثم أردف :

- عددكم كثير يا سادة، وأتمنى أن تعودوا غدا صباحا وأنتم خمسة أو ستة فقط، أعدكم أنكم ستذهبون راضين عن مبادرتي.

كانت عيونهم تحدق في المترجم الذي يحدثهم وعيناه إلى الأرض خجلا منهم، فهو حساني اللسان مثلهم قاد نفسه بغية المال إلى الإقامة لدى ميخيل الذي خصص له من العطايا ما يجعله متشبثا بعمله ، قال لهم وهو يقوم على رجل واحدة بسبب عرج يعتريه :

- الكولونيل ميخيل يقول أنه لا يتفاءل بهذا الغروب، ويفضل أن يفاوضكم غدا، إنه يكرر ذلك ويلح عليه.

رفض كثير منهم الفكرة وأصروا على مفاوضته في تلك الليلة، محتجين بأنهم قطعوا مسافات طويلة ليصلوا إلى إقامته، ولا يحبون أن يمكثوا أكثر مما فعلوا، فعلا صراخهم ثانية.

كان الكولونيل ميخيل يرى خطة المستعمر الذي يراهن على إشغال القبائل ببعضها تؤتي أكلها وصار يقول منتشيا :

- اهدأوا...ستنصرفون في الغذ، وهذا هو قراري الأخير.

قال مستدركا :

- لدينا خيام لكم...سنأمر بنصبها الآن..ستبيتون في ضيافتنا.

كان الكولونيل بحاجة إلى بعض الوقت ليشرح لهم بنود وثيقة ترسيم الحدود التي حددت في غيابهم بين بلده وفرنسا، فأصر على أن يكون ذلك صباحا.

استمرت احتجاجاتهم وشعروا بالحقارة والحيرة، توجهوا خارجين نحو باب الاقامة، فاستغلت زينب انشغال الحراس بهم، ووضعت عليها لباس البستاني المعلق على الحائط، ولفت عمامته على رأسها مخفية بها وجهها، اندست بينهم بخفة عالية كأنها واحد منهم دون ان يشعر بها أحد، مضوا إلى خارج الاقامة حيث يعم ظلام خفيف، ولا يسمع إلا هدير البحر القريب من المكان، كان المستخدمون منهمكون في إحضار الأنوار ونصب الخيام، فقد أصدر الكولونيل أوامره بنصب خيمة لكل قبيلة، وأمر بوضع علم ذي ألوان خاصة على فسطاط كل واحدة منها، يتم فيها عزل كل قبيلة على حدة، وهو ما سيساعد على عدم التقائهم وتشاورهم في تلك الليلة، وإمكانية التراضي حول حل قد يجمعهم ولا يفرقهم.

لم تكن زينب تكترث لشئ من ذلك، كان قلبها يدق كأنه حجر سقط من فوق جبل شاهق، وكانت أطرافها ترتعش، ولم تصدق أنها استطاعت الخروج من الاقامة التي دخلتها أمة ذليلة منذ سنوات، تشعر بحريتها بعيدا عن أجواء الطبيخ وخدمة الضيوف الذين لا تتوقف اجتماعاتهم في تلك الاقامة، والتي كانت بمثابة ملحقة لوزارة خارجية اسبانيا، حيث يتم تدبير الكثير من القرارات بداخلها.

خشيت أن يكشف أمرها إذا مكثت حتى الصباح، فانسلت متظاهرة بقضاء حاجتها، ثم أطلقت ساقيها للريح باتجاه الشاطئ، فهي تعلم أن قبيلتها ليست بعيدة عن المكان، كما تعلم يقينا أنه ليس من السهل الاهتداء إليها، لقد تم استقدامها قسرا لأجل الخدمة، وكان زوجها راعيا في الواحة يتقاضى ما يسد به رمقه قبل أن يستقدمه الاسبان هو ايضا ويعلمونه لغتهم للعمل معهم، كان قد حفظ الكثير من سور القرآن في طفولته، وتزوج من زينب التي تتمتع بصحة جيدة وأخلاق عالية.

كانت زينب تجرى في الظلام محاذية الشاطئ، وهي لا تعلم أنها تقطع طريقا خطرة لا يسلكها إلا بعض الصيادين الأجانب المهووسين بالمغامرة والاستكشاف، والذين يحلو لهم الاستمتاع بالشمس الساطعة فوق الرمال الذهبية، ويشعرون بالنشوة وهم يحملون أنواع الأسماك النادرة مباشرة إلى أطباقهم، لا يستطيع أحد إقناعهم أنهم ينهبون خيرات ليست لهم، كما لا يستطيع أيضا أن يفكر بمجرد الاقتراب من تلك المنطقة المخصصة لهم.

كانت زينب تنظر إلى أضواء إقاماتهم الخافتة من بعيد، فترتبك رجلاها اللتان غاصتا في الرمال المبللة، لم تشأ أن تبتعد عن الشاطئ حتى لا تتيه في الصحراء،

كما أنها لا تستطيع التوقف حتى لا تبقى قريبة من الكولونيل ميخيل الذي سيبحث عنها فورا في كل الاتجاهات، فهي مدبرة الخدمة في بيته، وهي التي تدربت على إعداد وجباته في أوقاتها، وهي أيضا صاحبة الأطباق الساحرة التي يستمتع بها زبناؤه، لم يكن يدور بخلده أنها ستتوفق في الهروب من إقامته المحروسة، وظل يأخذ تحذيرات زوجته مأخذ الهزل.

لم يكن يهم زينب غير أن تهتدي إلى مكان آمن حتى يطلع الصباح، ولكن الشاطئ لا يحمل غير الوجوم الذي قتل أملها، ما جعلها تشعر بالندم على إقدامها على تلك المغامرة، إنها تعرف جيدا أن الليل قد امتد في الأفق، وعودتها صارت مستحيلة ومعدومة.

قررت أن تستأنف الجري بمحاذاة الموج المتدفق إلى أن خارت قواها، كان لباس الرجال الذي تضعه قد أعياها وهو يتدلى فوق رمال الشاطئ فيعيق حركاتها السريعة، فقررت أن ترفعه نحو خصرها الضامر.

كانت قد قطعت مسافة طويلة جدا، إلى أن شعرت بالتعب الشديد يكاد يزهق نفسها، مدت بصرها في جميع الاتجاهات فلم تعثر على بصيص أمل، خشيت أن تقبر في تلك الدروب الصامتة، فتلفعت بثوبها، وقنعت وجهها وتجمعت حول نفسها كأنها حلزون صغير، كان برد لاسع ترسله برودة الموج المتحرك يزيدها ضنكا، كما أن انتصاف الليل قد أوشك على الحلول، فزاد هلعها وبرد بدنها، فحاولت أن تدفئ أطرافها ببعضها، ولكن دون جدوى.

لم تتوقف عجلة الزمن، وامتد الليل مترنحا على أمواج البحر، فبدأت زينب تفقد الأمل، وأسرع بها التفكير في كل اتجاه حتى أصابها الإعياء وتمددت على الرمال كأنها سمكة لفظها البحر، أغمضت عينيها وهي تتفكر في مصيرها فغالبها نوم عميق، ولم تستفق إلا على نور الفجر يلوح في الأفق، قامت مذعورة وهي تتخيل أن الكولونيل ميخيل واقف أمامها، أو أنه يطير فوقها في السماء في طائرته الحربية، أو في سيارته العسكرية من ورائها، تجدد ذعرها وهلعها، فقررت المسير من جديد في نفس الاتجاه الذي قطعت المسافات نحوه بالأمس، كانت تمد بصرها لعلها تعثر على أحد الرعاة أو الصيادين الصحراويين دون جدوى، ترفع بصرها أحيانا نحو السماء إذا مر طائر جارح متمنية لو كانت لها جناحاه فتستطيع الطيران باتجاه زوجها وأبنائها، تذكرت أبناءها الذين تركتهم تحت رحمة الكولونيل ميخيل وزوجته روزا فجأة، فازداد بكاؤها وأنينها.

سارت زينب على نفس الحال يوما آخر وهي لا ترى أمامها غير صمت مقفر، وحده الموج يتحرك ويرسل بلله إلى الرمل الذي ظلت قدماها المتعبتان تداعبانه.

كانت ليلة المسير الثانية قد أرخت سدولها ، فارتمت على الرمال وهي متيقنة أنها أخطأت حساباتها، ولم تعلم أن الصحراء الصامتة قد تبتلعها إلى الأبد.

اكتشف الخدم في تلك الليلة أن زينب تمكنت من الفرار من إقامة السيد ميخيل، كان ابنها الصغير ينادي عليها في كل مكان، فقد تعود على احتضانها قبل النوم كل الليلة، فقرر الخدم أن لا يخبروا الكولونيل ميخيل بهروبها في نفس الليلة، تاركين لها فرصة النجاة بنفسها، لأنه قد يرسل من جنوده من يتعقبها فيقتلها، كانوا قد علموا أنها رفضت أن تعتد أربعة أشهر وعشرا بعد وفاة زوجها التي تم إعلانها رسميا داخل الإقامة، وظلت متيقنة أنه على قيد الحياة في مكان ما، وأنه تمكن من الفرار من تلك المهمة القذرة التي لم يكن مقتنعا بها يوما، وظل يزاولها خوفا من بطش الاسبان المستعمرين، كانت تراه وهو يحمل حفنات الرمل ويقبلها سائلا ربه الصفح والمغفرة، و يعاف الطعام والشراب الذي تحضره له وهو يعلم أن الفرنسيين والاسبان قد تآمروا على تمزيق أرضه، وتناول طعام أهله وخيرات بلده، وتفتيت بنيانه العاطفي والنفسي، وتركيع ذويه وقتل الثائرين بذلك العتاد العسكري الضخم الذي ترسو سفنه على الشاطئ ليلا ونهارا لإفراغها دون رحمة في تلك الصدور العزلاء، كثيرا ما سألها أطفالها عن سبب عيشهم بتلك الطريقة المخالفة لما عليه أبناء الصحراويين الآخرين، فكانت تعدم الإجابة، وتخبرهم أنهم في سفر، وسيعودون ذات يوم إلى قبيلتهم لينعموا بالدفئ والحنان الجماعي الذي تنعم به القبائل الصحراوية في كل مكان.

في صباح اليوم التالي، كانت روزا زوجة الكولونيل ميخيل تنادي كعادتها على زينب لإحضار الإفطار، فهرع أحد الخدم وهو يظهر الفزع وقال :

- سيدتي روزا... زينب اختفت...أظن أنها سقطت في بئر.
- ما الذي تقوله ؟ سقطت في بئر ؟
- لا أدري يا سيدتي...إنها ليست هنا، والحراس يقظون كما تعلمين، ولا يدخل هذه الاقامة ولا يخرج منها أحد بغير إذنكم.

اشتد غضب السيدة روزا، وعضت على شفتها السفلى وقالت :

- أظن أن هذه الحقيرة قد تمكنت من الفرار، كنت ألاحظ عن كثب تصرفاتها المريبة، كل الحراس سينالون عقابهم، ولا شك أنهم تواطأوا معها.

قال الخادم وهو يتلعثم :

- أظن يا سيدتي أنها ستكون قريبة جدا من هنا، أ.. أ... أرسلوا من يبحث عنها وسنخبركم بالحقيقة.
- الحقيقة ؟ ستخبرني بها ماريا الكاهنة، بلغ كل الخدم والحراس أن لدي مائة وسيلة لكشف مؤامراتهم.

توجهت السيدة روزا نحو غرفة نومها، وأيقظت زوجها لتعلمه بما حدث، أخبرته بفرار زينب بانفعال شديد ويداها ترتعشان من الغيظ، فقد كانت تمتلئ قسوة وضراوة، وتمنت لو تستطيع تغيير كل الخدم والحراس بآخرين تستقدمهم من اسبانيا، فالصحراوي لا يرضى أبدا أن يكون خادما للمستعمر، وتسري في عروقه دفقات كبرياء العروبة الصحراوية، وقد لاحظت السيدة روزا زوجة الكولونيل ميخيل ذلك حين حاولت أن تستغني عنهم و تستقدم الكثير من العمال للخدمة في شركات زوجها من سكان جنوب الصحراء الذين رحل أجدادهم قسرا قبل مدة طويلة إلى ما وراء البحار، إلا أن محاولاتها كانت فاشلة لكونها شاقة ومكلفة.

كان الكولونيل ميخيل ينظر إلى زوجته الغاضبة وهي تتوعد زينب بالويل والثبور، وظل ممددا على سريره ينظر إليها، فما كان يشغله أكثر هو السهر على خططه الكبرى في إحداث فجوات بين الصحراويين وتفريق كلمتهم حتى تضعف مقاومتهم ويتشتت عزمهم، فقد أسندت إليه مهمة قد ترفع رأس بلده عاليا أمام الدول الأخرى التي انقضت على القارة الافريقية تقضم كل أطرافها، وقد تخفضها وتظهر عجزها أمام إصرار المقاومين الثائرين، فأوربا متربصة وقررت أن تمد يدها نحو مقدرات شعوب العالم، وهو واحد من الأبطال الذين يكتبون المجد على صفحات التاريخ الاستعماري، كان يتابع أخبار استيلاء فرنسا على وسط البلاد وفي أقصى الجنوب، ويمحص الاتفاقيات، ويجتهد في تطبيق بنودها بدقة متناهية، ويراقب تلك الشركات الكبيرة التي تتأهب لنهب الثروات، ولا يمثل قرار زينب بالفرار من إقامته أمامه شيئا.

أغمض عينيه لحظة فصاحت روزا مزمجرة :

- تدعي أنك نائم، كأن الخطب لا يعنيك، هذه الحقيرة وجدت من يوفر لها فرصة الهروب من إقامتنا، ألا يعني هذا أننا في مكان غير آمن ؟

انتبه الكولونيل ميخيل إلى أن زوجته قد يتملكها الجنون وهي تلاحظ عدم اهتمامه بفرار زينب فقال :

- روزا.... يا عزيزتي، أعدك أننا سنجدها، وسأبعث بها إليك لتنظري في شأنها.

لم تهدأ روزا، وتوجهت نحو الخدم تشتمهم وتتهم الحراس بالتآمر على الاسبان، إلا أن برقية سريعة جاءت من الحكومة الاسبانية قد صرفتها فورا عن التحقيق في فرار زينب ومحاسبة المقصرين.

كان الكولونيل ميخيل قد استعد في ذلك الصباح لمزاولة عمله كالمعتاد، إذ صعدت روزا وسلمته برقية في ظرف مختوم وهي تقول :

- المبعوث الخاص حضر الآن، وقال إن هذه برقية عاجلة من الحاكم العسكري العام...

تناول ميخيل البرقية مندهشا وهو يتساءل عن فحواها، فهذه أول مرة يتسلم فيها برقية مباشرة من قائد عالي الرتبة، لم يكن يعلم أن عليه أن يتسلمها مباشرة ويوقع على ذلك، ولا يعلم كيف تم إعفاؤه من التوقيع، وتم إرسال الرسالة إلى إقامته مباشرة.

فتحها مستعجلا وهو يحاول إزاحة شمع الخاتم، فوجد فيها ما يلي : «الكولونيل ميخيل المحترم : القبائل الصحراوية تلملم نفسها لتجديد البيعة للسلطان، لم تطلعنا على ذلك، ولم يصلنا خبره إلأ عن طريق رئيس مخابراتنا، أنت موقوف لمدة سنة كاملة، بإمكانك الالتحاق بمقر القيادة فورا»

كان يقرأها والشحوب يعلو وجهه شيئا فشيئا، فهولم يكن يتخيل أنه سيأتي اليوم الذي سيترك فيه تلك الشواطئ الذهبية الساحرة، كل شركاته ومكاتب المقايضة التجارية التي يملكها متفرعة فوق الأرجاء، ولا يرى نفسه بعيدا عن أطباق الأسماك المشوية التي تخرج مباشرة من برودة البحر إلى حرارة النار أمامه على جلسات السمر الرائقة، بمحاذاة تلك الواحات الرائعة، التفت إلى زوجته التي كانت تتلهف لمعرفة ما بداخل البرقية وقال :

- مصيبة حلت بنا يا روزا... تخيلي...سنرحل من هنا... سنرحل !

- نرحل ؟ ماذا تقول ؟ مستحيل...لقد بنينا مستقبلنا هنا، وسنظل هنا ومن بعدنا أبناؤنا وأحفادنا، هذه الأرض لنا.

نظر إليها الكولونيل ميخيل وقال بصوت خافت :

- أنت تعرفين...الأوامر العسكرية منطقها صارم.

- ماذا تعني يا ميخيل ؟

- أعني...أ...أن أستجيب ولا خيار لي غير ذلك.

- ولكنك لم تقل لي ما هو السبب...أي قرار مفاجئ هذا الذي ؟...

قاطعها ميخيل بصوت حزين وقال :

- هؤلاء المتمردون...آه...لو استطعت إبادتهم...إنهم يتجمعون ليجددوا البيعة لسلطانهم، نحن من يحكمهم، ومثل هذه التجمعات والقرارت تجعلنا غرباء في هذه الأرض وتقوض حكمنا وسيطرتنا عليهم، لست أدري ما الذي حل بهؤلاء الأغبياء المخبرين... لم يطلعني أحد من قبل على هذا الخبر... مصيبتي أنني محاط بالأغبياء من كل مكان.

التفت مستدركا نحو زوجته روزا وقال :

- أنت الوحيدة التي تتمتع بذكاء خارق، ولذلك فإنني أظن أنني سأجعلك موكلتي على رأس شركاتي...وكذا المنجم المعدني الاستكشافي الذي ما زال قيد الإنشاء.

نظرت إليه روزا باندهاش فقال :

- أجل يا زوجتي العزيزة... لاأستطيع استخلاف أحد غيرك على ممتلكاتي... لقد أنفقنا الكثير من الجهد في تحصيل ثرواتنا، ولا يمكن وضعها في أيد غير أمينة.

- تعني أنك تذهب إلى اسبانيا وتتركني هنا ؟

- روزا يا عزيزتي...معك رونالدينو وفريرا وأنيتا....وأيضا...أ...أ...أنت محاطة بالكثير من الحراس والخدم والجنود...

قالت روزا متأسفة :

- لا أحد يعوض مكانك يا زوجي العزيز... لا أحد... أظن أن اتخاذ قرار كهذا يحتاج إلى دراسة متأنية.

- الرسالة أعطتني مهلة أسبوع لأكون هناك، يمكنك اصطحابي أولا...ولكن لا بد من العودة يا روزا...سنة واحدة تستطيعين فيها أن تتدبري كل شؤوننا...أنا...أنا أثق في قوتك وحكمتك.

- لست أدري كيف تتحول هذه الصورالسريعة أمام عيني الآن، أشعر أنني في صندوق كبير يتحرك فيه كل شئ...الصحراويون القتلة يتحركون، يتحركون ولا يهدأون... سيفتكون بي فتكا.

ضحك الكولونيل ميخيل ضحكا مصطنعا وقال :

- كلا..كلا يا عزيزتي...مخزن الذخيرة في ثكناتنا يكفي لقتالهم مائة سنة أخرى، ربما تولى كولونيل آخر غيري هذا المنصب، وأظن أنه لن يرحمهم.

قالت روزا بصوت حزين :

- سأرسل وراء قريبي وزوجته وأبنائه ليقيموا معنا.

- هذا جيد، هل جاءوا من فرنسا ؟

- أجل، لقد غادروا الجزائر بعدما باعوا مصنع الخمر الذي أنشأوه قبل سنوات هناك، وقرروا استثمار أموالهم هنا.

ابتسم الكولونيل ميخيل وقال :

- هذا رائع...قلت لك أنك حكيمة وتتدبرين أمورك جيدا...هه... هم أيضا فطنوا إلى أن هذه الأرجاء أفضل مكان لإقامتهم و راحتهم.

لم تمرإلا أيام قلائل، حتى حمل الكولونيل ميخيل حقيبته وغادر نحو مدريد، كان يعلم جيدا أنه سيلقى لوما وعتابا بسبب انهماكه في توسيع ثرواته والغفلة عن أنشطة الصحراويين، صار يقلب مذكراته ويختار الحجج والبراهين التي يقدمها حتى لا تكبر الغضبة التي لحقته، كان أفضل ما لديه صورته وهو يقف وسط مجموعة من الجثث المكومة لصحراويين تم قتلهم بدم بارد لكونهم أعانوا المقاومين الذين هجموا على بعض الاقامات الاسبانية على الشاطئ، كان قد رأى في طنجة صورة لبعض البلجيكيين وهم يضعون رؤوسا مقطوعة فوق العصي لبعض الأفارقة المتمردين، كما أنه التقى فرنسيا حكى له أن جنودا فرنسيين لديهم صورة مماثلة لجزائريين رفضوا الانصياع للمستعمر، ضغط على يديه وتمنى لو أتيحت له الفرصة ثانية ليمعن في الفتك بأولئك الذين سولت لهم أنفسهم أن يجددوا البيعة للسلطان، وهو الذي عمل ما في وسعه ليفهمهم أنه سيدهم، وأنهم لن يروا غير علم بلاده على تلك الأراضي الشاسعة، لقد فقد رفيقه عينه بسبب قذيفة يدوية الصنع أطلقها شاب صحراوي قبض على إثرها ومزقه شر ممزق، لم تتح له فرصة أخذ صورة ليجعلها تذكارا وعبرة لمن سولت له نفسه أي مقاومة.

كانت الطائرة تحوم محدثة دويا عاليا لم يمنع الكولونيل ميخيل من الاستمرار في تقليب أوراقه ومذكراته، كان العرق يتصبب من جبينه بفعل حرارة الشمس، ومن يديه بفعل خطورة تلك الأوراق التي ظل يقلبها بين أنامله، فقد غامر وجعل كل ما كدس من الثروة في سنوات باسم زوجته روزا، ووقع بأنه كان مجرد حام لها ولا يملك غير بيته وسيارته العسكرية.

كانت روزا قد تعرفت على الكولونيل خوليو، وهو الموظف الجديد الذي حضرمكان زوجها إلى الصحراء لأول مرة، وكان عليها أن تربط علاقة مع زوجته الفرنسية، والتي رفضت في بداية الأمر مرافقته، إلا أنها سرعان ما أحبت تلك الشمس

التي تلمع طيلة يوم كامل، كانت تحس أن الحياة تدب في السماء وهي تمتلئ نورا وضياء يصل إلى كل مكان، كما كان يحلو لها أن تصحب روزا وهي تضع قبعتها الفاخرة إلى أطراف الاقامة العسكرية، كثيرا ما كان الكولونيل الجديد يرقبهما وهما تتبادلان أطراف الحديث، فيبدي إعجابه الكبير بأطباق السمك المشوي لدى روزا، ولكن مهمته التي تولاها تجعله لا يهدأ في مكان واحد، لا تأخذه بالصحراويين رأفة أبدا، ينتقي منهم الشباب لاختبارهم وتهديدهم، فقد كان مشهورا ببطشه وقوته وعدم الاكتراث للتوسلات والاستعطافات، أخبرته روزا يوما أنها ستصحب زوجته إلى واحة قريبة من الاقامة، فأرسل من يمشطها ولا يترك فيها مقيما واحدا من الصحراويين الذين كانوا يقصدونها للماء والكلأ، أمر الجنود أن يحكموا قبضتهم على تلك الواحة ويضعوا عليها سياجا عاليا يعلو فوقه العلم الاسباني.

لم تمر أيام حتى حرم الصحراويون الرحل من الماء والكلأ القريب من الإقامة، وصاروا ينظرون إليه خلف السياج من بعيد، بينما كانت روزا وهيلين زوجة الكولونيل الجديد خوليو تنعمان بدفئ الشمس قرب المياه العذبة، إنها الواحة التي كانت زينب الهاربة تحلم بالوصول إليها فأخطأت الطريق، وتركت أبناءها الثلاثة في أحضان روزا التي عمدتهم وصاروا يترددون بانتظام على الكنيسة كل أحد.

توطدت علاقة روزا بهيلين، وصارت تتمنى أن تستثمر في شركاتها بعض أموالها، وصار الكولونيل خوليو يقارن بين زوجته الفرنسية الساذجة، وبين روزا القوية التي لا يراها إلا جندية تدير المعارك الاقتصادية الناجحة في كل مكان، صار يتقرب منها ويقترح عليها العشاء في بيتهم كل نهاية أسبوع، إلى أن اقترح على زوجته أن تقضي إجازة مطولة في الجزائر لدى بعض أهلها، وعندما رفضت وفضلت قضاء الاجازة في فرنسا، لم يتوان لحظة في اصطحابها إلى نقطة العبور طالبا منها أن تمكث هناك حتى يلحق بها.

استقر في إقامة روزا التي كانت تظن أن قلبا يعرف البطش والقتل لا يعرف الحب والحنان، فاكتشفت أن خوليو المتوحش، يعاملها كحمل وديع، و يغدق عليها الود والعطف، فانطلقت كطفلة صغيرة تتلهى بالأموال وتنفقها على الحفلات والسهرات التي تصل أصوات معزوفاتها إلى أرجاء بعيدة.

كان أبناء زينب ينظرون إلى روزا وهم مندهشون، فقد أغدقت عليهم المال والحب والحنان وعودتهم أن ينادوها : أمي، ولكنها لم تعد تلتفت إليهم منذ أن حل الكولونيل خوليو بتلك الاقامات، ولم تعد تقرأ معهم ترانيم الانجيل كل مساء، وكانوا يتساءلون فيما بينهم حائرين عن الكثير من الأشياء التي تحدث أمامهم بسرعة لافتة.



لم يكن خوسي وسالم يظنان أن قدرهما أن يصبحا رفيقين لا يفترقان، يتشابهان في كل شئ إلا في صفتيهما ودينهما، فقد ظل خوسي معجبا بدين الاسلام، خصوصا عندما يصطف الصحراويون خمس مرات لمناجاة خالقهم ركوعا وسجودا، كثيرا ما تأمل صورتهم وانحنى ساجدا من ورائهم وهو يحدث الرب ويسأله أن يحفظه ويحفظ أهله، رآه المحجوب وهوأحد الصحراويين القادمين من بعيد مرة وهو ساجد منفردا من ورائهم فقال لزعيم القبيلة حائرا :

- إنني لا أثق في هذا الاسباني...أخشى أن يبيعنا أو يغدر بنا.

رد شيخ القبيلة واثقا :

- لا تخف يا المحجوب...لقد محصنا أمره جيدا واعتبرناه تبرا بين معادننا، إنه ببساطة يؤمن بعدالة قضيتنا، ولا يرغب في أن يقتلنا إخوانه الاسبان كما يفعلون الآن، العملية الأخيرة فقدنا فيها أحد عشر مجاهدا، تصور أنه هو من علمنا صنع نوع جديد من المتفجرات التي هزت تلك الثكنة الظالمة.

حرك المحجوب رأسه قائلا :

- لست أدري يا سيدي...أمره يحيرني...لا أحب أن يندس بيننا اندساسا، ثم يسرب معلومات عنا.

- لا تخف...الحراسة دقيقة ليلا ونهارا...خوسي اسباني صادق، يمثل الكثير من الاسبان الذين يرفضون قتل الأبرياء من وراء البحار واستجلاب ثرواتهم واغتيالهم بدم بارد إذا هم رفضوا ذلك...

- ولكن...سيدي...سيظل يمثل المستعمر في مخيلتي، ولست أطيق النظر في عينيه.

- هذه مشكلتك أنت، وحقد لا موجب له، وظلم لا ينبغي أن ينتشر بين جنودنا الذين ذاقوا ويلات الظلم واكتووا بناره، ولكن أخبرني يا المحجوب... ما الذي جئت به ؟

- خبران سيئان يا سيدي، أصبحت تحركاتنا في خطر.

- ما الذي حدث ؟ هل ضبطوا مكاننا ؟ لا بد أن نرحل إذن.

- كلا..كلا...يا سيدي...لقد زرعوا الكثير من الألغام في أماكن مختلفة، تماما كما يزرع الفلاح البذور ليجنيها ناضجة بعد فترة.

- الألغام ؟ يا إلهي ؟ ما الذي تقوله ؟ يحصدون الموت جوا ويزرعونه برا، أي استعمار ظالم غاشم هذا الذي تسلط علينا ؟

- هذه الصحراء المطمئنة أصبحت مقبرة لبصماتهم الشريرة، لقد شغلوا في بلدانهم معامل كثيرة لصنع ألغام تبتر أرجل الرعاة والأطفال كلما حاولوا التحرك بحرية... إنها قد تتحول إلى مقابر تنفجر كل وقت وحين.

قال الشيخ بصوت حزين :

- كلما تأملت هذه الفظاعات يا المحجوب، إلا وازددت حقدا على المستعمر... يحدث هذا في كل البلاد...الاسبان..الفرنسيون والانجليز و..

- لقد وصلت تفاصيل العملية الأخيرة يا سيدي إلى الاسبان قبل وقوعها، جميع المقاومين تم اعتقالهم، ولا نعرف الآن شيئا عن مصيرهم، هذا هو الخبر السئ الثاني يا سيدي

- هذا أمر خطيريا المحجوب... لابد أن نمحص صفوفنا.

رد المحجوب مقاطعا :

- لذلك قلت لك أنني لا أحب رؤية خوسي بيننا يا سيدي، حتى ولو أظهر أنه دخل في ديننا وصار واحدا منا، لقد أظهر الجنرال فرانسيسكو فرانكو الاسلام وأوهم بسطاء الريف أنه سيحارب الكفار، وزج بالآلاف من أهل الريف ليقتلوا ويشردوا دون ان يعثر لهم أحد على خبر.

نظر إليه الشيخ مستغربا وقال :

- ما الذي تقصده يا المحجوب ؟

- الجنرال فرانكو... كيف تنسى أفاعيله يا سيدي وتقبل بوجود خوسي بيننا وتحت خيامنا ؟ كيف تنسى أن الجنرال فرانكو جند عملاء لتعبئة المجتمع الريفي وتحريضه وتشجيعه ليجاهد الملاحدة، ما جعل الريفي يجد نفسه مدفوعاً إلى حرب لا تعنيه ولا تهمه في شيء.

- خوسي ليس هو الجنرال فرانكو يا المحجوب، لا علاقة له بما أقدم عليه.

- أظن أنه سيتسلق حتى يتمكن ويحكمنا كما فعل أخوه فرانكو الذي اتبع سياسةالمراوغة وتجويع أهالي الريف وخنق وضعيتهم الاجتماعية والصحية للدفع بهم قسرا إلى الحرب الأهلية الإسبانية ؟ لقد التقيت ببعض الذين هربوا من شمال البلاد خوفا من هذا التجنيد القسري، وحكوا لي من الفظائع الكثير.

نظر إليه الشيخ وقال :

- حماسك وصدقك عملتنا التي نتداول بها في أسواق الحرية والكرامة، لكم أحتاجها، ولكم أحتاج أيضا أن أكرر أن خوسي ليس هو الجنرال فرانكو.

لم يتمالك المحجوب أعصابه وصرخ في وجه الشيخ قائلا :

- بل هو نفسه يا سيدي... أجل... هو نفسه في صورة جديدة، ولقد رأيت في منامي رؤيا فسرتها على أنه الثعبان الذي سيلدغنا.. سأنادي بأعلى صوتي : الجنرال فرانكو بيننا... الجنرال فرانكو بيننا... مد إلي يدك يا شيخي العزيز، واقطع وعدا بالتخلص منه.

- يا إلهي... المحجوب... ما الذي يحدث لك الآن؟

- سيدي، إنه الجنرال فرانكو نفسه... تذكر جيدا المآسي التي حدثت لأهل الريف، سيحدث لنا أفظع منها.

نظر إليه الشيخ وقد بدت عليه علامات الاستغراب الشديد، إلا أن المحجوب لم يتوقف عن محاولات الإقناع، واستمر في عرض فظاعات الجنرال فرانكو قائلا :

- اسمع يا شيخ، لن أقوم من هذا المكان حتى تتبنى رأيي، الجنرال فرانكو قدم نفسه للريفيين أنه إسباني طيب، ولكنه جوعهم وفرض ضرائب باهضة على كل ما ينتج من المواد الفلاحية سواء تعلق الأمر بشجرة مثمرة أو تربية مواشي أو دواجن أو غير ذلك... الجنرال فرانكو استغل انتشار الأمراض مثل مرض التيفوس والجذري والسل فحرض جيشه على اشتراط الانخراط في الجيش للاستفادة من التلقيح والدواء... الجنرال فرانكو صادر أراضي أهل الريف باستثناء أراضي المشاركين في الحرب الظالمة التي أعلنها هو أو أراضي عائلاتهم... ما ...ما دفع كثيراً من العائلات للدفع بأبنائهم الصغار للمشاركة في الحرب الأهلية حفاظاً على أراضيهم، مصدر عيشهم...تخيل ! الأطفال ؟ ابناؤنا الصغار الأبرياء ؟ دعني أضيف يا شيخنا أنه وعد أهل الريف بالإفلات من العقوبات والأحكام القضائية الصادرة في حقهم إذا هم لبوا رغبته، فما كان منهم إلا أن استجابوا قسرا لحماية أنفسهم وأفراد عائلاتهم.

قال الشيخ :

- اهدأ يا المحجوب... اهدأ...هذا يكفي يا عزيزي، سأعقد مجلسا استشاريا تحضره حتى لا نجعل من هذا الموضوع قضية تشغلنا، أنت تركن في ذهنك إسقاطات يصعب علي تفكيكها، خوسي... خوسي ليس قضيتنا الآن.

علا صوت المحجوب ثانية وقال :

- بل هو جوهر القضية، ما جدوى أن نخطط لعملياتنا وهو بيننا ؟ هذا الساذج الذي يصحبه واسمه سالم... أ... يشعرني بالقرف حين يكرر عليه ما يدور بيننا تحت ذريعة المتابعة وتعلم العربية... لقد كان فرانكو يتحدث بلهجة أهل الريف، واستطاع الوصول إلى الأعيان وشيوخ القبائل وأغراهم بالوعود الكاذبة، و وعدهم بالاستقلال الذاتي للريف، تخيل استقلال الريف ؟ المزيد من التمزيق والتفكيك

لصالح العبودية التي يستمرئ إطالتها، ليصنع فقراء يبيعون أطفالهم لأجل الحصول على لقمة عيش من أرضهم...وقد فطن المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي لهذه المؤامرة، ورفض أن يقتطع شبرا واحد من الريف لصالح الإضعاف والتبعية، إنهم يتكتلون ويمزقوننا قطعة قطعة... أ... أ... يحدث هذا شمالا وجنوبا... يا للهول !... يا للمصيبة!...

قال الشيخ مقاطعا :

- المحجوب...هذا يكفي.

قال المحجوب غاضبا :

- والله لن يبقى خوسي هنا أبدا... سأشكل إمارة توافقني إن لم...

- أرجوك يا بني... لا تخلط الأمور، دعك من أمر خوسي واذهب لإخبار الجنود ليأخذوا كامل الاحتياطات من هذه الألغام، فمجرد الذهاب إلى قضاء الحاجة قد يصير مستحيلا.

قال المحجوب مزمجرا:

- ليست لدينا خريطة نعلم بها مكان تواجدها تحت أقدامنا، لقد تحولت بلادنا إلى جحيم تحت الأرض أيضا.

- لا بد أن نعد كتيبة عسكرية خاصة بهذه الألغام، تحاول كشفها، أو على أقل تقدير تحاول التعرف على أماكنها.

قال المحجوب :

- إمكانياتنا ضعيفة أمام إمكانياتهم الجبارة، وأنى لنا أن نكشف أماكنها ؟

قال الشيخ :

- أجل، فما بيدنا من السلاح لا يمثل شيئا أمام ما بحوزتهم، إضافة إلى أننا

متناثرون في هذه الصحراء، وليس سهلا أن ننسق فيما بيننا...ومع ذلك... فإنه يحدث اتفاقا أننا نقاوم من شمال البلاد إلى جنوبها، فأخبار المقاومة في فاس وطنجة ومراكش وإفني ووجدة وغيرها، تصلنا تباعا، وبين يدي منشور سري وزعته المقاومة في مدينة فاس من فترة وجيزة.

شعر المحجوب أنه أكثر على الشيخ فقال بهدوء مصطنع :

- هل يمكنني الاطلاع على هذا المنشور؟

- إنه منشور يحث على الاصطفاف والوحدة ومواجهة المستعمر... لا شئ غير ذلك.

دخل سالم وعليه علامات الارتباك وقال :

- هل تأذن لي يا سيدي في الحديث ؟

- تفضل، أنت مرحب بك.

- سمعت في الخارج أن الاسبان دسوا تحت الأرض أجساما غريبة تنفجر على كل من يمر فوقها.

- علمنا بذلك، ولا حيلة لنا، وهو مزيد من العذاب... العذاب... بل هو التفنن في العذاب.

- خوسي يقترح أن نرسل قطعانا من الماعز في كل اتجاه لنتحقق من محيطها.

ابتسم شيخ القبيلة وهو ينظر إلى المحجوب وقال :

- عندما اخبرني المحجوب بأنها ستنفجر على أقدام الرعاة، فكرت في إرسال الماعز، أشفقت عليها... ولكن... في كل الأحوال...سنرى ما قاله خوسي بعد جلستنا هذه...خوسي رجل وفي ويناصر قضيتنا.

لم يتحمل المحجوب كلام الشيخ وقال مستنكرا :

- ولكنه لم يدخل في ديننا يا سيدي، وقد أمرنا بمحاربة غير المسلمين.

قال الشيخ وهو يبتسم :

- لست أدري من الذي أخبرك بذلك، لقد كان رسول الاسلام يتعامل مع النصارى واليهود اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا...وقال لهم : « لكم دينكم ولي دين»

رد المحجوب غاضبا :

- بل كان يقاتلهم.

- كلا... كلا... كلا يا بني، كل الذين سالموه سالمهم، وحرم الاعتداء على دور عبادتهم أو أمتعتهم، بل أعلن أنه خصيم من يؤذيهم.

نظر المحجوب إلى الشيخ وهو يكتم غضبا بداخله، وسيطر عليه شعور أن الشيخ المجاهد خان أمانة الجهاد وداهن الأعداء فقال :

- إذا كان خوسي انضم إلينا وخان بلده اسبانيا، كيف لا يخوننا نحن ؟ هؤلاء لا عهد لهم، انظر إلى ما يفعلونه بنا الآن.

- اسمع يا المحجوب، أكرر مرة أخرى أننا نهينا عن قتال من لا يقاتلنا، وأمرنا أن نجنح للسلم مع من جنح إليها، لا أحب أن تتمادى في معارضتك...ببساطة...لأن وحدة الصف الآن هي ما يشغلنا...خوسي مؤمن بعدالة قضيتنا، ونحن مدينون له بكل الشكر والتقدير، وليس لدينا الكثير من الوقت لننفقه فيما تدعيه.

نظر إليه المحجوب غاضبا وهو يردد بتهكم شديد :

- نحن مدينون له بكل الشكر والتقدير...الشكر والتقدير...

خرج أمام مجموعة من أفراد قبيلته وصرخ بأعلى صوته : «إعلان...إعلان... هذا الشيخ يلقي بالمودة إلى كافر، خوسي يدعي أنه لا يشاطر الاسبان الرأي فيما فعلوه بنا من الذبح والتقتيل ظاهرا... ولكنه...ولكنه يضمر غير ذلك في قلبه، لا تثقوا به...و...ومنذ اليوم أعلن أنه لا أمان له بيننا.. لا أمان له بيننا... لقد أهدر دمه»

تهافت مجموعة من أصدقائه الشباب أحداث الأسنان نحوه وقالوا :

- كنا ننتظر نتيجة مقابلتك... نحن معك...مرنا يا سيد المحجوب بما شئت... أنت مقاوم شجاع وتقول الحق جهرا ولا تخاف في الله لومة لائم... ستجدنا إن شاء الله مجيبين ولا نعصي لك أمرا.

قال المحجوب منتشيا :

- سنعمل على تنقية صفوفنا... لنقاتل الخونة أولا...الخونة الذين يجعلون أيديهم في أيدي الأعداء...سنقاتلهم حتى الموت...سنقاتلهم حتى الموت... الخونة العملاء أولا... ثم الاسبان ثانيا... سنقاتلهم حتى الموت.

كانوا يرددون جميعا : سنقاتلهم حتى الموت...سنقاتلهم حتى الموت...

صاح المحجوب :

- من سره أن يلقى الله صادقا فلينظم إلينا...

كان الشيخ يسمع صراخهم وينظر إلى سالم الذي أشفق على خوسي الوديع، والذي لم يعد له مكان بين الاسبان، فاتخذ الصحراويين الطيبين خلانا، اكتشف تدريجيا كرمهم وضيافتهم وترحيبهم الزائد به، فتعلق بهم واستحسن تناول الطعام والسمر تحت خيامهم، وصار يؤخر سفره إلى اسبانيا كلما فكر أنه سيغادرهم، كما أن الشيخ وأعوانه العسكريين تأكدوا من خصاله الحميدة، وصاروا يعلمونه لهجتهم، وكثيرا ما كانت تعلو ضحكاتهم تحت الخيام حين لا يحسن النطق ببعض الألفاظ.

استمر المحجوب في الصراخ والتهديد ثم اختفى فجأة، وعندما جن الليل، تقدم ومعه تسعة عشر مقاتلا مدججين بالبنادق والسيوف والهراوات، واقتحموا الخيام منددين بالولاء الذي قدمته القبيلة للأعداء، خرج الشيخ حاسر الرأس وقال في دهشة :

- توقفوا...ما هذا الذي تفعلونه ؟ نحن إخوانكم... نحن إخوانكم... تعقلوا... لا يجوز لكم قتالنا...توقفوا...لا يجوز قتالنا... أرواحنا في أعناقكم إلى يوم القيامة...هيا... توقفوا فورا يا أهلنا...توقفوا...رجاء...الفتنة أشد من القتل...إنما المؤمنون إخوة...

كان المحجوب ومجموعته ماضون في غيهم، ولا يأبهون لتوسلات الشيخ واستعطافه، ولا يرددون إلا شعارات الموت والخراب تخرج من تحت لثام خفيف على وجوههم.

عم صراخ وجلبة عظيمين المكان، وتناثرت ذرات الغبار وقطرات الدم في المكان، ولم تمر إلا لحظات قليلة حتى اندلعت النيران في الخيام، وهام النساء والذراري على وجوههم البريئة والفزع يعصف بهم، لم يفهموا مما يحدث أمامهم شيئا، بل وقفوا متسمرين برهة يتأملون تحت أضواء النيران المشتعلة إخوانهم الصحراويين وهم يقتلونهم ويذبحونهم والتكبير يصدح من حناجرهم.

لم يكن خوسي وسالم قد قضيا تلك الليلة الرهيبة في تلك الخيام، فقد انطلقا في كتيبة تدريبية مع مجموعة من الشباب على مقربة من إقامة القبيلة المنكوبة، ولم يكن خوسي يعلم أن ما حدث للقبيلة التي عوضته عن أهله ونعم بالطمأنينة فيها كان بسببه.

انطلق المحجوب وزمرته كالأسود المتوحشة بعد ساعات قليلة، وتركوا كثيرا من خيام القبيلة قاعا صفصفا، فر الكثيرون في الظلام دون أن يفهموا شيئا مما حصل أمامهم، حتى إن بعضهم حسب الهجوم اسبانيا.

أما المحجوب فقد عاد منتشيا وهو يشعر أنه عبر عن حبه لدينه بتلقينه للخونة درسا بليغا، وصار يتوعد كل من سولت له نفسه إيواء اسباني واحد، ويتحدث عن الولاء والبراء وبعض المصطلحات الفقهية الدقيقة.

كان قد أتعب نفسه في طلب رأس خوسي، وأعياه البحث والتمحيص، فسارع إلى إيقاع أكبر الخسائر في صفوف القبيلة، كان عدد من الفارين قد صحبوا الشيخ الذي أصابه الحزن والذهول إلى ربوة رملية بعيدة، فقد كان نائما عندما باغته الهجوم، ورأى المحجوب وهو يتلو آيات الجهاد ويصرخ بصوت مزمجر متوعدا بالقتال والويل والثبور، كان الشيخ ينظر إلى اتجاه صوته وسط الظلام وهويحوقل ويسترجع ويداه ترجفان.

وفي صباح ذلك اليوم، تبدت الخسائر الفادحة التي لحقت بالأبرياء الآمنين، وقام الناجون يتفقدون القتلى، وأقيمت لهم جنائز مهيبة، تمت الصلاة عليهم، وأقبرت الجثث مجتمعة في مقبرة صغيرة.

قضت القبيلة ليلة حزينة وكثفت الحراسة من حولها، وفي اليوم التالي، أمرهم شيخهم بالرحيل صابرين محتسبين.

وبعد يوم واحد، لحقت بهم مجموعة خوسي وسالم، وانطلقوا للإقامة في مكان آخر غير بعيد عن إقامتهم السابقة.

كان أفراد القبيلة المنكوبة قد اختلفوا اختلافا كبيرا، فمنهم من قال نعود إلى المحجوب القاتل وزمرته وننتقم منهم، ومن قال أنهم مغرر بهم وسيحرقهم تنطعهم قبل غيرهم، وأن تشددهم كفيل بإذابتهم، ومن سيطرت عليه الصدمة وتملكته فلا يدري ما يقدم ولا ما يؤخر، إلا أن شيخ القبيلة حسم الخلاف مبكرا، فجمع أفراد القبيلة وقال :

- لا نريد أن نحول معارك الاسبان المستعمرين إلى صدورنا، الأسلحة التي بحوزة المحجوب وزمرته ليست متواضعة، وتجعلني أشك أن مجموعته مدعومة من الأعداء، ربما جلهم ليسوا على اطلاع بالحقيقة... أو... منهم من لا يعلم من السذج البسطاء... ومنهم من يعلم علم اليقين أن ما يقدم عليه من الأهوال سيضعفنا، ولديه رسالة يستفيد من ورائها الكثير... هذه هي الحقيقة.

قال واحد من المقاومين المتحمسين :

- لست أدري كيف سنصبر على نكبتنا، الثمانية الذين قتلوا من أهلنا وذوينا... ما الذي سنفعله لأجلهم ؟... لا بد من القصاص... لابد من القصاص.

قال الشيخ بصوت هادئ :

- بلدنا كله محتل...الاسبان في الشمال والجنوب، والفرنسيون يمزقون الوسط، وإذا أخرجنا المستعمر، فهناك سلطان... وهناك عدالة... وإذا حييت حتى جلاء المستعمر، فسأكون أول المطالبين بدمائهم، لا أحب أن يقتل بعضنا بعضا.

سخر أحد المعارضين وقال :

- سيدي...تتحدث كأن المستعمر سيخرج غدا قبل شروق الشمس.

نظر إليه الشيخ وهو يخشى أن تنبت في قبيلته معارضة جديدة تزيد الصف تمزيقا وقال :

- - لنتفق أولا حول وجهة معاركنا، هل رأيتم غزالا يفترسها أسد جائع وهي تقضي وقتها في محاولة نطح غزال أخرى بقرنيها ؟

قال خوسي متأسفا :

- أنا من سبب لكم هذه المتاعب، أظن أنني سأغادركم، وسأبقى على ذكراكم في قلبي ما حييت.

ضغط سالم على يده وقال :

- أفديك بروحي يا خوسي، فقد أسعفتني وضحيت بنفسك من أجلي يوم أنقذتني من الكولونيل مانويل...ستبقى هنا.

ابتسم خوسي ابتسامة باردة وقال :

- يبدو أن كثيرا من الأمور بدأت تتغير بسرعة من حولنا يا سالم.

تدخل السالك وهو رئيس كتيبة الشبان المقاومين وقال :

- أشعر بالمهانة الشديدة، لا أظن أنني سأسكت وأدع هذه المصيبة التي حلت بنا تمر دون انتقام، لقد حرقت خيامنا، وروعت نساؤنا وذرارينا، وقلبت قدورنا، يستحيل أن ننسحب كأن شيئا لم يحصل... يستحيل.

صار الشيخ يحرك يده آمرا المجموعة بالهدوء والروية، إلا أن السالك خرج مسرعا للانتقام وفي يده بندقيته التي لا تفارقه، وركب على الجمل الذي انطلق به نحو خيام المحجوب وأعوانه، والذين تمكنوا بسهولة من القبض عليه وأوثقوه بحبل كبير، كان يلعنهم ويشتمهم ويتوعدهم، فاقترب منه المحجوب وقال :

- ماذا تريد تحديدا ؟ أتيت مرسولا من عند ذلك الشيخ الذي يقدم الولاء للاسبان...أنت كافر... بإمكاننا قتلك... أ... أتعلم أن دمك مهدور ؟ ألست من الذين يحمون الخائن خوسي ويخفونه بينهم في الصحراء ويقدمون له الولاء ؟

قال السالك غاضبا :

- خوسي يحارب معنا ويعتذر باستمرار على ما يفعله أهله.

رد المحجوب مستدركا :

- هل أسلم ؟ لماذا تضعون فيه ثقتكم ؟ هذه خيانة لدينكم ولوطنكم.

- شيخنا يقول له دائما : لكم دينكم ولي دين، ولا يحمله على شئ لم يقتنع به، وبإمكانه أن يظهر إسلامه حتى نطمئن إليه، ثم يخدعنا، خوسي قرر أن يكون واضحا وصادقا.

- شيخكم هذا مخطئ ويجب قتله هو أيضا... أجل... يجب قتل الشيخ عبد الغني أيضا.

استمر المحجوب في إقناع السالك بأفكاره التكفيرية، حتى استطاع بعد أسبوع أن يجعله متحمسا لقتل خوسي وإراحة القبيلة، لم يكن المحجوب شيخا ولا مريدا بقدر ما كان قوي الشخصية، جهوري الصوت عنيد الفكر، يخرج لعاب سيال

من جانبي شفتيه عندما يتحدث، فتتحرك لحيته الكثة وهي تمتص عرق وجنتيه الملتهبتين، يصر على وضع حذاء عسكري كبير المقاس، يرفعه كلما غاص في الرمل مدعيا أنه كان ملكا لكولونيل اسباني مشهور قتله بيديه الشجاعتين، لكم كان يحلو له أن ينزعه قبل الالتحاق بالصف في الصلاة مدعيا أنه لا يحب أن يقف به بين يدي ربه، يحمل في رأسه أفكارا غريبة عن المعارك والحروب الغابرة، ومغامرات غامضة هي أقرب إلى الخيال، لم يكن يخفي في كل مقام أنه معجب بالتاريخ وبطولاته، ولكن ما كان يخفيه هو أن لديه أجندة تملى عليه من خارج القبيلة، فقد كان على اتصال بمجموعة من المجندين لاختراق المقاومة وصناعة القلاقل بين القبائل، ومدمنا على قراءة الجرائد والنشرات الثورية التي تصنع أفكاره المتشددة، فكان لديه ما يقول لإذكاء النعرات القبلية المناسبة للظهير البربري الذي دعمه الفرنسيون للتفرقة بين العرب والأمازيغ في شتى بقاع الوطن، وكان لديه أيضا ما يقوله لإذكاء الصراعات داخل الدين الواحد والتشديد على أن هذا سني وهذا مبتدع وجب قتله، وتفريق المقاومين إلى خونة ومشبوهين ونفعيين وموالين للاستعمار، ونشر الأكاذيب حول سلطان البلاد لإضعاف جذوة الجهاد في النفوس ومحاولة الصد عن التنسيق بين المقاومين في كل مكان، كان صناعة أجنبية متقنة بامتياز، وصار لديه الجنود والأتباع والأسلحة ما بين عشية وضحاها، بل إنه بدأ يفكر بإصدار النشرات باللهجة الحسانية وإيصالها إلى كل القبائل، وإطلاق إذاعة محلية توصل أطروحاته الغريبة إلى كل النوادي، متحملا باندفاع غامض تكاليف الإرسال والطبع والنسخ والنشرفي تلك الظروف المادية الصعبة.

لم يأل جهدا في إكرام السالك الذي اقتنع بأفكاره وتشبث به و أقامه عنده، وأمده بما يحتاج إليه من المال لسحب البساط من تحت أرجل الشيخ المجاهد والأعيان الرافضين للاستعمار الأجنبي، وكانت العملة التي بين يديه بالدولار والبيسيتا الاسبانية والدرهم المغربي.

وذات صباح قام السالك متحمسا، وودع المحجوب بعجالة، ثم توجه نحو الطرف الآخر من الواحة التي تقيم بها قبيلته، أظهر توبته وقبل يد الشيخ الذي أمسك بيده وصار يدعو له، وعندما أقبل ليل ذلك اليوم، تسلل السالك نحو خيمة سالم، وحمل مصباحا صغيرا به ضوء خافت ليتعرف على خوسي، وفي لمح البرق، أعمل سكينه في رقبته، وذبحه من الوريد إلى الوريد، ثم انطلق بسرعة وهو يكبر حتى وصل إلى خيمة المحجوب الذي هتف بالتكبير وجعله واحدا من مقربيه.



قضى الناس ذلك اليوم في حزن عميق، وشعروا أنهم فتنوا من الداخل، وأن هذه الفتنة ستؤخر مسيرتهم، وقد صادف ذلك اليوم قدوم وفد من فاس ومراكش إلى الصحراء للتواصل مع المقاومين ومدهم بآخر النشرات السرية، فقررالصحراويون أن لا يظهروا حزنهم، وأن يتسموا برباطة الجأش حتى لا يفتنوا إخوانهم الذين سيحلون ضيوفا عليهم في تلك الليلة.

وفي ساعة متأخرة من الليل، وصلت القافلة وعليها خمسة عشر رجلا من الوطنيين المقاومين وقد وضعوا عليهم اللباس الصحراوي، ومعهم الكثير من الأخبار عما آلت إليه أمور البلد، يتقدمهم السيد يحيى الذي تخرج من القرويين، وقضى فترة قصيرة في التدريس، ثم خرج إلى ميدان المقاومة والجهاد، كان قد قبض عليه من طرف الفرنسيين عدة مرات، ثم حكم عليه بالاعدام غيابيا، إلا أنه ظل مختفيا يتنقل بين البوادي والحواضر.

أقبل فعانق إخوانه الصحراويين عناقا حارا، وبادلوه التحية والترحيب، وأطلقوا بخور الطيب وأعدوا طعاما وفيرا، إلا أن الشيخ يحيى كان مفتونا ولم يتوقف عن سؤال الشيخ عبد الغني الدعاء بالنصر على الفرنسيين والاسبان في كل لحظة.

كانت مدة الاجتماع السري وجيزة جدا، إذ كان على المجموعة أن تنفض قبل الفجر ليلحق الشيخ يحيي بقبائل أخرى جهة الشرق وأقصى الجنوب، كان يتظاهر بأنه تاجر يحمل بعض المؤن والسلع فوق تلك النوق السريعة، فقال للمجموعة الصحراوية التي أمامه على عجل :

- لقد سيطرت فرنسا على الأراضي الخصبة في البلاد، ودعمت القواد الجائرين، ووفرت لهم الحماية وأعطتهم صلاحيات واسعة لنزع الملكية وفق برنامج الجنرال ليوطي الذي قضى أربعة عشر عاما وهو يسهر على هذه العمليات المخزية، لقد أصبح الفلاحون البسطاء عبيدا في ضيعاتهم، يزرعون ما لا يأكلون.

قال الشيخ عبد الغني :

- المارشال ليوطي هو الذي حذر من مؤسسة القرويين وسماها البيت المظلم، حين خرجت هذه الجامعة الكثير من المقاومين لهيمنته، ورفضت الذل والصغار، وأبطلت مفعول قنبلة الظهير البربري، وكشفت المخططات الاستعمارية التي أسست وقننت بيوت الدعارة في مختلف المراكز الحضارية، وهو ما لم يكن يعرفه الناس في البلاد حيث انتشرت تجارة الأجساد البريئة، وعم الاغتصاب في دور مخصصة لامتهان كرامة المرأة والدوس عليها...هذا هو مخطط الاستعمار، ليته اقتصر فقط على الفلاحة والزراعة...

قال أحد الحاضرين :

- الاستعمار يريد تشققا وتصدعا من الداخل... لقد أتيت من الحوز مؤخرا، وعاينت تلك الهكتارات الشاسعة التي نزعت من أصحابها وتحولت إلى ضيعات محروسة لفائدة الجالية الفرنسية، ولم يتم هذا إلا بالتنسيق مع الخونة الذين نصبهم الاستعمار للتحكم بمصيرالعباد والرقاب.

رد الشيخ عبد الغني :

- هذا صحيح، عايناه بأنفسنا في زياراتنا السرية للتنسيق مع المقاومة، الخونة الذين استمدوا سلطتهم من الاستعمار، يمثلون إدارته في المجال الاقتصادي والقضائي والصحي وغير ذلك، يجبون له الضرائب المباشرة وغير المباشرة.

قال الشيخ يحيى :

- لقد قامت كل من فرنسا واسبانيا بشق الطرق وتعبيدها، وإنشاء المراكز والموانئ لكي تتمكن مؤسساتها المالية والصناعية والفلاحية من استغلال خيرات البلاد.

تنهد الشيخ يحيى وأردف :

- كل الأراضي الخصبة والجيدة صارت بحوزتهم، هكتارات كثيرة جدا يا سيدي،

لقد وضعوا ظهائر لتحفيظها والاستيلاء على أراضي الجماعة والأحباس والكيش، كما أنهم وزعوا أملاكا وأراضي على المستوطنين بأثمان زهيدة... وتسهيلات في الأداء.

صمت قليلا وهو يدير كأس الشاي بين يديه ملتمسا حرارته فأردف أحد مرافقيه قائلا :

- لقد أصبحنا في بلادنا كالعبيد، منحوا المستوطنين الآليات الحديثة للاستغلال الجيد لأجود أراضينا، وركزوا على الكروم والحوامض والفواكه... أ... ما يحتاجون تسويقه فقط، وأما الانتاج الصناعي فأهملوه تماما، لأنهم مهووسون باستغلال الثروات الطبيعية.

قال آخر :

- لا يرون فينا إلا سوقا لمنتجاتهم الصناعية الفرنسية، وأصبح العمال يقضون الساعات الطوال في العمل بأجور زهيدة، فاضطروا للسكن في دور الصفيح حول أحياء الفرنسيين الراقية...

قال الشيخ عبد الغني واثقا :

- ولذلك فقد ترك كثير من الفلاحين المنجل والمحراث، وحملوا البنادق والمتفجرات، وترك الصناع ايضا المطرقة،وحملوا السلاح للدفاع عن وطنهم، وشكلوا مقاومة مسلحة حول تلك الأحزمة الظالمة، فأصبح هذا المستعمر الغاشم لا يغمض له جفن أينما حل وارتحل.

قال الشيخ يحيى :

- أينما حل وارتحل ؟...أ... لقد حلوا وارتحلوا إلى كل مكان، واستقدموا الجاليات التي أسست شركات في التخصصات التي تخدم مصالحهم، ولذلك فنحن اليوم هنا في الصحراء، وفي كل بقعة من بلادنا سننتشر، وستظل مقاومتنا المسلحة لهم بالمرصاد.

قال الشيخ عبد الغني :

- وماذا عن الاقتصاد ومعيشة الناس اليومية ؟

قال الشيخ يحيى :

- لقد أصبحنا منذ مجئ الاستعمار مرتعا لتلبية السوق الفرنسية لا غير، وبذلك ضاقت إنتاجاتنا الملحة وانتشر الفقر والجوع، ولولا التراحم والتكافل والقناعة لحدثت كارثة.. لقد أصبحنا في أرضنا كالعبيد.

كان سالم في جانب مظلم من الخيمة الكبيرة يبكي خوسي ويشم ثيابه، فاختلط بكاؤه على خوسي بفاجعته على الوطن الأسير وهو يتابع حوار الضيوف ومضيفيهم، كان يسمع أزيز صدره الكئيب فيشعر بكبده يتفطر من الأسى، تذكر أسرته البعيدة وتمنى لو مات ولحق بخوسي الطيب، صار يلعن الاستعمار والجشع والطمع الذي جعل الاسبان يقطعون البحار ليمزقوا كيانه، انطوى على نفسه وقشعريرة برد خفيف ترعد أطرافه.



لم يستطع الاسبان صد الصحراويين عن التعلق بملكهم ووطنهم، وكان الشيخ عبد الغني يحضر لجمع أفواج مختلف القبائل لزيارة السلطان، لكن تحالف اسبانيا و فرنسا أمعن في إبادة الأنفس و الأموال في مختلف ربوع الصحراء مما حمل السكان على إعلان الجهاد، إذ أبلت المقاومة الصحراوية بلاء في إقلاق راحة الاسبان في كل من إفني وطرفاية وطانطان والعيون والكويرة والسمارة وغيرها، وظل الصحراويون مفتونين بحروب مباشرة وغير مباشرة، إذ استمات الاستعمار في إحداث الفجوات والقلاقل للتمكين لشركاته التي تنظر إلى ما تحت البر والبحر بشراهة كبيرة، فقد كانت جزءا من الاستعمار الهائج الذي انطلق من أوربا الصناعية في مشارق الأرض ومغاربها لإحكام سيطرته على مقدرات الشعوب، مقتنعا أنه أولى بالاستثمار فيها وتحويل كنوزها لصالحه.

قضى الوفد معظم الليل في تدبير شؤون المقاومة الادارية والعسكرية والتي كان أهمها كيفية الحصول على السلاح، وكان الذين يحضرون الاجتماع لا يتجاوزون الخمسة، إذ طلب من كل الجالسين الانتقال إلى الخيمة الأخرى لأخذ قسط من الراحة، غادر معهم سالم الذي لم يغمض له جفن في تلك الليلة، وظل يتمثل صورة خوسي أمامه وهو يضاحكه ويسامره، ولم يقطع عليه شروده الحزين إلا صرخات رضيع ولد في تلك الليلة، وكان من أحفاد الشيخ عبد الغني، فحمل على عجل إلى خيمة جده الذي دعا له بالبركة وسماه يحيى تيمنا بضيفه، فكان الوليد نزيل الصحراء هو الوحيد الذي سمح له بأن يكون سادس المجتمعين في تلك الجلسة السرية، وكانت صرخاته تخترق المجلس الطارئ كأنها تعلن احتجاجا على الأوضاع، حمله جده وأذن في أذنه، ثم قال بصوت هادئ :

- مرحبا بالمقاوم الجديد... مرحبا بالمقاوم الجديد...

- سلمه إلى جدته التي أحضرته، وظلت واقفة على مدخل الخيمة ووجهها يتهلل فرحا، فناولها خاتمه الفضي الذي لا يفارقه وقال :

- هذا الخاتم سيحمله ابني هذا عندما يكبر.

استمر الرضيع في البكاء فقال الشيخ يحيى ضاحكا :

- أرجو أن لا تنصرف به المرأة حتى يهدأ بكاؤه ويرضى عنا.

ابتسم جده وقال :

- سيصمت عندما يعلم أن قبائل الشرفاء والعرب والبربر والزوايا وغيرهم بانتظاره.

توجه نحو أذنه الصغيرة وردد هامسا:

- - هؤلاء كلهم بانتظارك يا بني، فهم يقاومون المستعمر وهم يد واحدة... اصمت قليلا لتسجل وصاياهم...

قال الشيخ يحيى :

- لقد رحبت بالصبي أيما ترحيب.

انخرط الصبي مجددا في البكاء فقال له جده :

- - هيا يا يحيى لا وقت للبكاء... نحن بانتظار بسالتك...

كان الشيخ عبد الغني يسرد أسماء القبائل الصحراوية ليعلم ضيفه أيضا أن الصحراء من شمالها إلى جنوبها تحت صف المقاومة للمستعمر، وكان الشيخ يحيى يبتسم معجبا، وينظر إليه تحت نور القنديل الخافت وهو يعد أسماء القبائل بأصابعه فقال :

- نتمنى أن يحيا أحفادنا بكرامة...نتمنى أن ينعموا بالحرية والاستقلال.

كان الحديث داخل الخيمة همسا، لأن عيون المستعمر ترقب كل حركة من شمال البلاد إلى جنوبها، وكان بعض ضعاف النفوس الذين يخونون دينهم ووطنهم لقاء بعض المصالح المادية والمعنوية البسيطة، يسجلون ويدونون كل ما يمر أمام أعينهم، وقد حرص الشيخ عبد الغني على أن يظهر ضيوفه كتجار ينقلون المواد

والسلع ما بين شمال البلاد وجنوبها، ولم يبزغ ضوء الفجر إلا والشيخ يحيى على راحلته إلى جانب السلع التجارية التي علقت على ظهر الناقة، فقد ودعه الشيخ عبد الغني وداعا حارا ودعا له أن تصحبه السلامة.



كان الشيخ يحيى قد واصل مسيرته متخفيا نحو مواقع القبائل الصحراوية، يصل معهم الرحم ويطلعهم على تطورات الأوضاع، فاكتشف أن الاستعمار الاسباني ارتمى على أجمل الواحات وأخصبها، وحول أهلها إلى رعاة يحومون حولها، ولم يختلف عن الاستعمار الفرنسي في شئ.

كان الشيخ يحيى حريصا على تثبيت اللباس الصحراوي الذي يجمعه فوق كتفيه ليتحرك بخفة، وظلت تلك السلع التي يحمل على ظهر النوق هي زاده، وعندما اقترب من البحر لاحت له سلسلة إقامات للاسبان تمتلئ حركة وحيوية، فتأخر قليلا ثم توجه نحو البحر يتوضأ من مائه لأداء صلاة الظهر، فإذا بقارب صغير للصيد يرسو على الشاطئ وعليه أربعة صيادين من أهل الصحراء، التحقوا بالصف للصلاة والماء يتقاطر من ثيابهم، فقاموا بعد الانتهاء من الصلاة وسلموا على الشيخ يحيى الذي قال لهم :

- علمت ان أهل هذه المنطقة يتاجرون في السلع الاسبانية.

- أجل سيدي... ليس أمامهم غيرها، الحصار مفروض على السلع القادمة من مراكش وسهل سوس، خصوصا بعد اشتعال فتيل المقاومة الأخير واشتداده.

قال الشيخ يحيى مستعطفا :

- أريد أن أقابل أحد أعيانكم، نحن وفد من مناطق شتى من البلاد، نريد أن لا تفوتنا استضافاتكم ونحن في هذا الطريق التجاري الطويل.

- دعني ألملم الشباك وأصحبك.

كان الشيخ يحيى يظهر لمرافقه وهو يصحبه نحو قبيلته أنه مجرد تاجر يتوخى الحذر حتى لا يصادر المستعمر سلعه، وظل يكتم أنه اختار أسلوب مقاومة غاية في الكتمان والدقة، نظر إليه الصياد وقال بلهجته الحسانية الأصيلة :

- الأسماك على الشاطئ متوفرة جدا، تكاد تمسكها بيدك... هل تصدق ؟

لم يكن الشيخ يحيى معنيا كثيرا بالحديث عن السمك فقال :

- ما اسمك ؟ هل لديك أبناء ؟

- اسمي الحبيب وينادونني ب: حبوه... لدي أربع بنات.

- أربع بنات ؟ ما شاء الله، محمد رسول الله كان له أربع بنات، وكان يحبهن كثيرا.

- تمنيت لو كان لدي ولد.

- وما الفرق يا...يا حبوه ؟ البنات كلهن بركة.

- قال الحبيب مازحا :

- إذا ذهبت إلى البحروحدك، ستعرف الفرق.

ضحك الشيخ حتى كاد يسقط على قفاه وقال :

- فهمت الآن، تريد أسماكا وليس أبناء.

- أجل...أريد أسماكا وحيتانا ضخمة تغوص معي وتستخرج ما يكفي من الرزق لأسد به رمقي أنا ومن حولي... أنا في فقر شديد، تقنيات الصيد التي لدى الاسبان لا نملكها نحن، نعتمد على سواعدنا لا غير.

نظر إليه الشيخ متألما، وعمد إلى كيس السلع وناوله لباسا جيدا وبعض القطع من اللحم المجفف وقال :

- البلاد كلها تتألم يا حبوه، لست وحدك، الوضع الاقتصادي في انحدار شديد، والناس يكتفون باليسير مما يجدونه أمامهم.

قال الصياد متألما :

- يؤسفني أنني تركت لهذا المستعمر اليابسة على شساعتها، فوجدته أيضا في البحر، حتى الأسماك اصبحت تعلم بوجوده...إنه يملك سفنا متطورة فيغرق السوق

بمنتوجه في وقت وجيز، بينما يظل زورقي ليومين أو ثلاثة دون أن يصل إلى المستوى المطلوب...ماذا تغني عني تلك المجاديف التي شققتها ملوحة البحر؟

صمت الشيخ قليلا، وأحنى رأسه،ثم استغرق في إنكار قلبي صامت، بينما ظل حبوه يهمهم بكلمات غير مفهومة، مشيا صامتين، وبعد لحظات وقف الصياد حبوه أمام خيمة كبيرة وصار ينادي على الشيخ عبد العزيز وهو يقول :

- السلام عليكم يا شيخنا، هناك ضيوف قدموا الآن.

انحنى الشيخ عبد العزيز وهو يمسك بسبحته الخشبية التي لا تفارقه وقال:

- مرحبا بالشيخ يحيى، يا مرحبا...

تعانقا مطولا فقال الشيخ عبد العزيز :

- كنت عازما على زيارتك عندما يحل الخريف، ولكنك سبقت و أتيت إلينا بنفسك.

تعانقا مجددا، ثم دلفا إلى داخل الخيمة التي رش الماء البارد على جنباتها حتى يخفف من وهج الشمس، وصارا يتبادلان أطراف الحديث، بينما أمسك الصياد بضرع إحدى النوق وصار يحلبه، إذ لم يكن الشيخ يمنع أحدا من ذلك.

وجد الشيخ يحيى أخبارا سيئة وصلت للتو إلى الشيخ عبد العزيز، فقد أخبره أن فرنسا نصبت بن عرفة سلطانا للبلاد مكان السلطان الذي نفته إلى خارج الوطن، وأن بعض الخونة باركوا تلك الخطوة الخطيرة ، ما جعل المقاومة تشتد وتشتعل شراراتها في كل مكان فقال :

- سنقوي حرب العصابات ونشعل النار من تحت أقدامهم، هذا سلطاننا الذي بايعناه واجتمعت عليه كلمتنا، لو كان الشيخ ماء العينين رحمه الله حيا وسمع بهذا الذي يحدث.

- لقد ترك رحمه الله رسالة الجهاد والمقاومة...وليس أمامنا الآن خيار غير ذلك... فقد كان نعم الخليفة للسلطان على أرض الصحراء.

قاطعه الشيخ يحيى وقال :

- سأضع صندوقا به عدد كبير من عيارات الرصاص الخفيف في الجانب الأيمن من خيمتك، و... و...أظن أنني سأنصرف الآن... خبر كهذا لا يتيح لي البقاء هنا مطولا.

نظر إليه الشيخ عبد العزيز وقال :

- كنت أتمنى أن نجالسك قليلا، ولكن هذا الخائن بن عرفة...

- بن عرفة و أمثاله ما تركونا نجلس لحظة.

- أخبرت أنهم لم يجدوا له لباسا على مقاسه عند التنصيب، وحاروا في أمره المستعجل.

- لم يجدوا له لباسا على مقياسه... وكذلك لن يجدوا له وطنا على المقاس.

- نحن على يقين من ذلك.

نظر إليه الشيخ يحيى نظرة حائرة، وقام مسرعا نحو القافلة، وترك للصياد الكثير من الزيت واللحم المجفف، وودع الشيخ وسار باتجاه كلميم.



كانت زينب تواصل المسير نحو المجهول وقد فنيت وذاب عظمها، واشتد بها الجوع والعطش، وصارت تبحث عن أعشاب البحر فوق الشاطئ لتلتهمها، كان هدير الموج يخفي أنينها الذي بدأ يضعف إلى أن سكن ولم يتبقى من أنفاسها إلا القليل، تذكرت أبناءها مولود ومحمد ومصطفى، فدمعت عيناها دمعا حارقا،كانت رجلاها الممدودتان نحو الماء تشعراناها ببرودة البحر فتعلم أنها ما زالت على قيد الحياة، إلى أن جاء صباح مشرق الشمس، فاندفع البحر في مده ليحمل جثة زينب طافية فوق الماء وقد فارقت الحياة.

كان سالم قد تمزق قلبه حزنا على خوسي، وبكاه بكاء حارا حتى كاد يغمى عليه، حمل صورة زوجته الاسبانية وبزته العسكرية وخوذته، ودسهم بيد مرتعشة معه في قبره، كان يهيل الرمال على جثته التي تدلى رأسها والدموع تجرى على خديه، وصار يسوي التراب براحتيه تسوية، ولما أتم ذلك كتب بأصبعه على جانب القبر و بحروف مبعثرة : «هنا يرقد عاشق الصحراء « ثم رفع يديه الموحلتين وصار يدعو له بالمغفرة والرضوان.

أفلح المحجوب في إشغال القبيلة بأفكاره المتطرفة، وبث الرعب في صفوفها، ووقعت فتنة عظيمة زلزلت الناس صغارا وكبارا، وقام بعض العلماء يشرحون للناس موقف الدين مما أقدم عليه المحجوب الذي شكل جيبا خطيرا صرف بعض المقاومين عن مقاومة المستعمر الغاشم، وصدهم عن فتح الجبهات الحقيقية التي تقطع أنفاس الظلم، وكانت خطب الجمعة في ذلك الشهر تدور حول خروج المحجوب عن الاجماع وعدم إسناده الحكم لولي الأمر، بعدما كانت الخطب تحث المقاومين على الجهاد ضد الاستعمار، وتمدهم بطاقة روحية تكسبهم المناعة اللازمة للقيام بواجبهم.

قرر سالم أن يعود إلى قبيلته ليتصل بزوجته زينب و أبنائه، ويعلمهم أنه على قيد الحياة، وأن الله نجاه من تلك العاصفة التي واجهته هو ومن كان معه من الجنود المستعمرين في كتيبة الكولونيل مانويل، لم يكن متيقنا أنهم هلكوا، وليست

لديه أخبار عنهم، كل ما علمه هو أنهم ركبوا مركبا صعبا وخطيرا، ولم يفطنوا إلى أن من يتحدى الصحراء فنصيبه الهزيمة.

حمل ذات صباح جرابه بعد أن دس فيه حبات من التمر الجاف، وملأ قربة صغيرة من الماء العذب، وقرر توديع شيخ القبيلة وكل الذين أكرموه طيلة مقامه بينهم، كان وداعا حزينا و مؤثرا.

دلف نحو قبر خوسي، ووقف يدعو له بالخير والرحمة، فهو يعلم أنه اعتنق الاسلام قبل يومين من اغتياله، وطلب منه كتم الأمر حتى يفاجئ به الشيخ والمصلين بعد صلاة الجمعة مباشرة، كان يمتلئ سرورا وحيوية حينما اكتشف أن دين الصحراويين يجعله قريبا من الرب، وانه دين يحرم الظلم والبغي، ويمنحه الثقة بأن لا فضل لغني على فقير، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، تأثر كثيرا بتعامل الصحراويين معه بعد مقتل ذويهم بسببه، فلم يسبه أو ينهره أحد منهم، بل ظلوا يتقبلون العزاء بصبر فريد وعزيمة لا تلين.

كان خوسي قد استأمن سالما على سر دفين ظل يحتفظ به، ويتعلق بأخيه الأكبر الذي استقدمه الجنرال فرانكو من شمال المغرب قسرا للانخراط في الحرب الأهلية في اسبانيا، ومعه الكثير من الأطفال الصغار الذين كان الطفل خوسي واحدا منهم، وأنه يتذكر بحسرة صورة أخيه الذي كان بمثابة والده، والذي مات موتا شنيعا في الحرب الأهلية الاسبانية ليتركه وحيدا، فقام أحد الجنرالات باحتضانه حتى كبر، وقدمه للخدمة العسكرية في الصحراء، ذكر لسالم أنه كان يسمى سعيد، وأن أمه ماتت في قرية قرب تطوان متردية من جبل تقطف في شجره بعض التين، أما والده فقد انخرط في صفوف المقاومة ولم يظهر له بعد ذلك أي أثر، كان خوسي يبكي وهو ينبش في دواخل ذاكرته وصورها المخزونة، واعترف لسالم أن عروقه ظلت تنبض بذلك السر الدفين وتجذبه نحو إخوانه كالمغناطيس، ولذلك أودع سالما أيضا سر دخوله في دينه، فقام وعانقه عناقا حارا وهو يقول مندهشا :

- كنت صديقا وفيا يا سعيد... أ... أ... وأنت الآن أخا أعتز به...أعاهدك أن لا أفارقك إلا أن تحول الموت بيننا.

قال خوسي بصوت خافت :

- لم أكن أظن أنني سأكشف يوما سري لأحد من الناس، فقد كنت دائما أتقمص شخصية خوسي المناضل من أجل اسبانيا العظيمة، رجاء أن أحصل على مكانة واعتراف بين الجنود الذين حالفني الحظ حيث كنت أشبههم في خلقتي، وقد حصلت على امتيازات عديدة ، وتمت ترقيتي مرارا، ولكن على حساب تمثيلية وهمية عشتها لسنوات طويلة، ودمرتني داخليا لحد الجنون أحيانا، وقد تقدمت لأجل هذا السبب مرارا بطلب للالتحاق بالصف العسكري في أمريكا الجنوبية، حتى أسكن جوارحي التي لا تطاوعني في رمي رصاصة واحدة باتجاه الصحراويين الذين أشعر أن دماءهم البريئة تنبض في عروقي... الريف... الصحراء... دين واحد، وطن واحد، دم واحد... أنا... أ... أخيرا بين أهلي الحقيقيين.

قام سالم و عانقه بحرارة كبيرة وقال :

- حسبك...حسبك يا سعيد... توقف عن البوح...توقف... لقد أبكاني ما تقول... ها... ها...ها...

قال خوسي وقد بللت دموعه الجارية عنق سالم :

- ما أتمناه هو أن أموت راضيا، ربما قدري أن أموت يوما على هذه الأرض، فأنا اسباني عشق الصحراء التي ألهمته أن يكون إنسانا يشعر بالآخرين.

صمت سالم وشرد ذهنه، بينما انهمك خوسي في مسح دموعه ولملمة مشاعره.

طال بهما المقام وهما على تلك الحالة، وامتد الليل وطويت ساعاته، فصارت جفنتا سالم تسقطان قسرا على عينيه المحمرتين، فقال متلطفا وهو يريد طي صفحة ذكريات خوسي المؤلمة :

- ألا تنام يا عاشق الصحراء الجريح ؟ لقد كانت تدريبات اليوم قاسية... و... أرهقتني أكثر من اللازم.

رد خوسي بصوت حاني :

- تلك الضيافة التي عقد لنا سيدي ابراهيم أثرت في كثيرا، كان يخصني بالعطر قبل الوداع دون الشيخ نفسه، رأيت سرورا عظيما في عينيه.
- الصحراويون يا سعيد، يمتازون بضيافتهم الفريدة، ويبالغون في المودة والترحيب.
- أجل... المودة والترحيب، هذا ما لاحظته اول ما وطئت قدماي هذه الأرض، وعندما كلفت بجمع المعلومات عنكم، انتابني خوف كبير، وتوجس رهيب ، ولكني أدركت فيما بعد أن خيامكم مفتوحة، ولطالما رشفت الشاي في ضيافتكم حتى أصبحت مدمنا عليه.
- الصحراويون يحبون الود والصفاء، يتوارثون ذلك جيلا بعد جيل.
- صدقت يا سالم، لو قدر للكولونيل مانويل أن يكتشف أخلاقهم، لدفع استقالته من حكومة جاءت لقتلهم واستعبادهم دون ان يقترفوا ذنبا.
- الصحراوي كالنخلة يا خوسي، عندما يركع ينكسر، ولذلك تجده دائما محافظا على شموخه في أعالي السماء.
- لو كنت في درجة عالية في السلك العسكري، لحملت إلى حكومتي تقارير مخالفة لما يصدر الآن عن مستعمرتها، ففي اسبانيا كثير من الطيبين الذين لا يسمع صوتهم...

قال سالم موافقا :

- الكولونيل مانويل يمثل شراسة المستعمر، وقد زاره يوما في إقامته عسكري بدرجة كبيرة، ووضع يده على ظهري متلطفا وأنا أفتح له باب الإقامة، فاستغربت وأنا أرى ابتسامته الحانية، تساءلت في نفسي حينها : هل يمكن أن يكون بين هؤلاء العسكريين الشرسين من يملك قلبا ودودا ؟
- هناك من هو كذلك يا سالم... لا نسمعهم الآن ولكن... من يدري...ربما يعلو صوتهم عندما تصمت البنادق يوما، فيتعقلوا، ويقدموا اعتذارا باسم الآخرين لهؤلاء الأبرياء والمستضعفين.

كان سالم وخوسي يتناجيان في الظلام، ويتبادلان الكلمات همسا، إلى أن اكتشف خوسي أن سالم قد غرق في نوم عميق.

مرت ثلاثة أيام وهما في التدريبات العسكرية على حرب العصابات، وفي الليلة الأخيرة، لم يناما باكرا لأن سالم كان حريصا على أن يتعلم خوسي سورة الفاتحة دون تعتعة، إلا أن يد الغدر امتدت واغتالته باسم الدين، وقدمته قربانا للخائنين.

انطبعت صور خوسي كلها وسكناته في مخيلة سالم التي لا تتوقف عن استرجاع الذكرى، ولا يقوم من مقام إلا ويشعر أنه يصحبه، فقرر أن يغادر تلك القبيلة ويودع أهلها، قصد الشيخ فانحنى على يده يقبلها، أمسك الشيخ بيده وقال :

- الحرية تطلب لها ثمنا يا سالم، ولكنها بإذن الله قادمة، فمهما طال الليل لا بد من صبح يبدد ظلامه...سالم يا بني...احرص على أن تكون أحد مصابيحه.

حمل سالم في يده مصباحا صغيرا وودع الشيخ الذي تهيأ لصلاة المغرب وقال :

- أتمنى أن ألحق بزوجتي وأبنائي، وأعود من حين لآخر لزيارتكم، أتمنى أن لا يعتقلني الاسبان وهم يظنون أنني سقت جنودهم غدرا نحو العاصفة، لن يصدقوني مهما حاولت إقناعهم بالحقيقة...ادع لي الله أن تصحبني عنايته في طريقي.

نظر إليه الشيخ تحت ضوء المصباح الخافت وقال مبتسما :

- رافقتك السلامة يا بني...رافقتك السلامة يا سالم... أستودعك الله يا بني.

كانت قافلة الملح التي مرت من الواحة قد تأهبت للانطلاق نحو أقصى الجنوب، قرر سالم أن يصحبها باتجاه قبيلته، ركب جملا جيدا سلمه الشيخ إياه، وانطلق يردد مع القافلة حداء السفر، كان كل أمله أن يلتقي مجددا بزوجته وأبنائه.



تشبث الكولونيل خوليو بروزا، وقرر أن يستقدمها إلى إقامته العسكرية، فكان في نهاية كل أسبوع يقيم حفلات راقصة على نغمات أغاني الفلامنكو، يغرقان معا في احتساء الخمرة المستقدمة من اسبانيا، وتغدق روزا على تلك السهرات الكثير من الأموال حتى كادت شركاتها أن تفلس وتعود إلى نقطة الصفر التي بدأت منها أول مرة.

مر أحد عشر شهرا كاملا، فصدر قرار بإيفاد زوجها الكولونيل ميخيل مرة أخرى إلى شمال البلاد بصفة نهائية، حيث المستعمرة الأخرى للاسبان، وكانت مدينة تطوان هي مقر إقامته الجديدة، فقرر أن يحضر إلى الصحراء لجمع ثرواته وبيع الممتلكات إلى عسكري كبير في مدريد.

حل ذات صباح بإقامته القديمة في الصحراء، فقال لزوجته وهو يتناول وجبة السمك المفضلة لديه :

- روزا يا عزيزتي، التحف الفنية التي كانت بحوزتنا قد نقصت كثيرا، إنها لا تقدر بثمن، وفيها نسخة من كتاب عربي يعود لأكثر من خمسة قرون.

ردت روزا متجاهلة :

- كنت أقدمها هدايا لبعض المقربين قصد الرفع من صفقاتنا، عموما فهي لا تمثل الكثير.

- كلا...كلا..يا روزا، هذه المخطوطات للصحراويين تعود إلى قرون خلت، ومنها بعض الكتب النادرة التي سلمت من الحريق المهول الذي أحدثناه في مكتبتهم الكبيرة.

قالت روزا غاضبة :

- لست أفهم مما تقول شيئا، كنت دائما تردد أنه يتحتم علينا إحراق ماضيهم ومحو ذاكرتهم، ثم تتشبث بتلك الكتب الرديئة، إنها شبه ممزقة ومليئة بطفيليات دقيقة، ويعلوها غبار يضايقني كثيرا.

كانت روزا حانقة على زوجها، ولا تحب كثيرا تبادل الحديث معه، وتتصنع الاهتمام بمزهرية للزهور الجافة كانت أمامها، صمتت قليلا ثم قالت بصوت مرتفع :

- أصبحت لا أطيق تصرفاتك، تفتح معي تحقيقا في كل شئ، كأنني في غرفة تفتيش.

قال الكولونيل ميخيل بصوت خافت :

- عذرا يا روزا...لا تخفى عليك قيمة تلك التحف، قلت لك أن فيها كتابا يعود إلى خمسة قرون، وأحتاج بيعه إلى المتحف، كثيرون اختصوا في بيع تحف مستعمراتهم وذر عليهم ذلك مالا وفيرا.

نظرت إليه روزا ممتعضة وقالت :

- تجارة جديدة إذن ؟

- أجل يا روزا...خفة حمل ووفرة ثمن...ههه... ما رأيك ؟

انحنت روزا وهي تمدد يديها نحو الأعلى لألم أصاب ظهرها وقالت :

- يبدو أنك ستعود قريبا إلى تطوان، لقد اشتقت إليك وفي نفس الوقت استمتعت بإدارة أموالي.

ضحك ملء فيه وقال :

- أموالنا معا يا عزيزتي... أموالنا التي جمعناها بكدنا ونباهتنا.

نظرت إليه ببصر ثاقب وقالت :

- بل أموالي أنا...أنسيت أنك وقعت على صك يحول كل شئ في ملكيتي ؟ لكم أرغب في أن ترحل الآن...دعني أصارحك بذلك.

فغر فاه لحظة وهو ينظر إليها وقال في حيرة :

- روزا يا عزيزتي...لقد تغيرت كثيرا...منذ أن عدت وأنت تصدين عني، هل حدث شئ ما أستحق به هذا الجفاء ؟

- لقد أخبرني الكولونيل خوليو بكل غرامياتك التي كنت تستقدم لها خليلات من هنا وهناك...الثكنة كانت مستودع أسرارك، وقد انكشف كل شئ الآن...الحب والسلاح في آن واحد ؟ كنت تخدعني إذن، فمحال الجمع بين سلاحين متناقضين تماما...هه...الحب والسلاح...

ضحك ضحكا عاليا وقال :

- هذا محض افتراء يا روزا، لقد كنت مشغولا بتفان في تطويع هؤلاء المتمردين، وأنت تعلمين ذلك جيدا...هههه.... خليلات ؟ لم أكن أرى أمامي إلا هؤلاء المتمردين العنيدين...

قالت روزا مزمجرة :

- قلت لك أن تلك الأموال لا تملك منها شيئا... هذا قراري...أتسمع ؟

خرجت روزا مسرعة وهي تضع قبعتها المفضلة فوق رأسها، وقصدت إقامة خوليو، وقضت معه تلك الليلة.

حمل ميخيل أمتعته وتذكاراته، ثم أرسل في طلب روزا التي حضرت غاضبة وقالت :

- الأليق بك أن تعود إلى تطوان، ربما لحقت بك هناك يا عزيزي.

كانت بقايا رائحة الخمر تفوح منها، وتصل إلى أنف ميخيل فتزيد نار قلبه اشتعالا، أدرك جيدا ما أقدمت عليه زوجته من مغامرة في غيابه، فأغلق النافذة بهدوء، بينما ارتمت هي على الأريكة متعبة، اخرج مسدسه وأطلق كل عياراته في رأسها الثمل.

جر جثتها بخفة نحو السرير، ولفها ببرودة أعصاب في شرشف غرفة نومها، وحملها لوحده في سيارته العسكرية، ثم انطلق باتجاه البحر، فإذا بجندي يهرول

نحوه بلباسه المدني وهو يردد :

- سيدي الكولونيل... سيدي الكولونيل... لقد تم نفي ملك الصحراويين خارج البلاد... لقد تم نفي ملكهم خارج البلاد... محمد الخامس...محمد الخامس يا سيدي نفاه الفرنسيون هو وعائلته...هذه البرقية و جدتها...

نظر إليه الكولونيل غاضبا وقال وهو يسرع الخطى :

- لا جديد لديك أيها الأبله، اتبعني فورا.

مضى الكولونيل مسرعا كالمجنون، بينما صار الجندي ينظر باستغراب إلى بقع الدماء التي وشمت الشرشف، التفت دون أن يفهم شيئا مما يحدث، فإذا بالخدم ينظرون مندهشين ومعهم أبناء سالم الثلاثة الذين ساءت أحوالهم.

مرأسبوع كامل، فجمع الكولونيل ميخيل أمواله متجها نحو إقامته الجديدة بمدينة تطوان، والتي تئن هي الأخرى تحت نير الاستعمار الاسباني الغاشم، كان آخر ما فعله هو الصلاة على روح روزا في غرفتها صبيحة أحد غائم.



شاع نفي ملك البلاد وعائلته إلى مدغشقر، وتم تنصيب بن عرفة سلطانا للمغرب بتشجيع من «كيوم» و بعض الخونة، كان المتواطئ مع الاستعمار يبلغ من العمرعتيا، إذ لم يكن الهدف هو تحديث النظام السياسي بقدر ما كان إذلالا وتطويعا للبلاد و أهلها، كان تنصيبه يوم 15 غشت 1953، وكان التنصيب على عجل كما يفعل سارق النهار، فتمت كسوته برداء على غير مقاسه من دولاب الباشا الكلاوي، ثم استغرق في توقيع الظهائر، وقام المقاوم علال بن عبد الله لاغتياله،إلا أن حراسه باغتوه ومنعوه من ذلك، فتكررت المحاولة في مراكش معقل الكلاوي، وظل يوقع الظهائر إرضاء للمستعمرين واستعبادا للوطنيين.

أحدث المستعمر في البلاد فتنة جديدة انضافت إلى الفتن السابقة، واخذ المصلون يشتمون الخائن بن عرفة عندما يذكر اسمه في صلاة الجمعة، فقد كان عبارة عن آلة شغالة لتوقيع الظهائرالمخزية.

كان الصحراويون يرقبون الوضع بحذر، ويتألمون لمغادرة سلطان البلاد بتلك الطريقة المهينة، قام أحد الخطباء يحث المصلين على التشبث بمقاومة الاستعمار الفرنسي والاسباني الذي مزق شمل البلاد، وكان على يقين أنه سينزل من المنبر إلى السجن، فقدم خطبة نارية على شكل منشور يأمر بمساندة المقاومة لحين زوال بن عرفة الخائن الذي باع البلاد للمستعمر، فطاوعته يده على توقيع الظهائر بوتيرة سريعة لأجل التمكين للمستعمر الظالم، وطالب الخطيب بالعصيان والمقاومة حتى رجوع ملك البلاد إلى أرض الوطن، كانت خطبة كأنها خطبة مودع، خصوصا عندما دعا دعاء مطولا تمنى فيه للبلاد وسلطانها وأهلها الأمن والاستقرار، وللمستعمر الجلاء والهلاك، كان يعلم في قرارة نفسه أنه تجاوز الخطوط الحمراء المسموح بها، وأنه صار يحرض على المستعمر علنا، ويدعو لمناصرة السلطان وطلب رجوعه إلى عرشه بكل جرأة، وأنه سيتهم فورا باستغلال الدين لأغراض سياسية، فودع المصلين وهو يذكرهم بما يجب عليهم أثناء الابتلاءات والمحن.

كانت الخطبة النارية بعد ساعات على مكتب المحقق التابع للحكومة الاسبانية، وعليها كلمات ومعاني الترجمة بالأحمر، فتم استدعاء الخطيب الذي قال للمحقق غاضبا و دون أن يلقي التحية :

- لو كنت في اسبانيا وأتت دولة وحملت الحاكم قسرا ونفته إلى بلد آخر، ما الذي كنت ستفعله ؟

نظر إليه المحقق متوعدا وقال :

- هذا الافتراض غير حاصل الآن... السيادة لنا هنا، والملك تم نفيه في مستعمرة فرنسا، ولا شأن لكم بما يحصل في الجزء المستعمر فرنسيا.

- لم تجبني أيها المحقق، ماذا لو تم نفي حاكمكم قسرا ؟ ما الذي كنت ستفعله ؟

قال المحقق وقد انتفخت أوداجه من الغضب :

- قلت لك هذا الافتراض غير حاصل الآن... السيادة لنا نحن.

- ولكن هب أنه حصل... تنزل بكم الويلات، وتقسم بلادكم إلى أجزاء، وتمنعون من التعبير عن الألم،حين يحمل حاكمكم خارج البلاد... أي سيادة هذه ؟

- المساجد لا تعنيها السياسة في شئ، تدخلون وتصلون فقط ولا يمنعكم أحد.

وقف الخطيب وهو يهم بالانصراف قائلا :

- نحن أدرى بما علينا فعله في مساجدنا.

- أنت تستغل الدين لأجل السياسة، علم المصلين أمامك الغسل و طريقة السفر إلى مكة، ولا شأن بعزل الملك أو تنصيبه... أحذرك...

ابتسم الخطيب وقال :

- عندما اكون في مدريد، أصدر إلي الأوامر بذلك، يبدو أنه لا فائدة من حواركم.

أشار إلى الكاتب بجانبه أن يدون وقال وهو يقطب حاجبيه :

- يبدو أنك عنيد أكثر مما يلزم، هذه الوثيقة ستوقعها، ستلتزم أنك لن تتحدث في السياسة بعد اليوم، أنت مجرد خطيب... أتفهم ؟ أنت مجرد خطيب.

- لن أوقع على ما يحولني إلى بوق يسوق لآرائكم، افعل ما بدا لك.

- سأترك لك فرصة أخرى، هذه الجمعة سأرى أي المواضيع ستختار.

نظر إليه الخطيب غاضبا وقال :

- لا تتعب نفسك، عندما أكون في بلدك سأفكر... أما الآن فهذا قراري، وهذا واجبي، وهذا نصيبي من المقاومة.

قال المحقق بدم بارد :

- تتمنى أن أمنحك شرف الموت لأجل فكرتك، لتنغرس معانيها في قلوب الآخرين من ورائك، لن يحصل ذلك هنا أبدا.

قال الخطيب وهو يمسك بمقبض الباب :

- قلت لك، افعل ما بدا لك.

قال المحقق وقد جحظت عيناه :

- لن أكون متسرعا، وهؤلاء الذين يصلون وراءك ستفقدهم.

- بل أنت من سيفقدهم، تعرف جيدا أنه بتضييقك عليهم سيلجأون إلى المقاومة من بابها الواسع، وحينها سأشكرك.

- اخرج من هنا... وأنا على موعد معك بعد أسبوع، وإذا لم تغير قرارك فودع أبناءك قبل خروجك إلى منبرك.

سمع الناس بأن المحقق استدعى الخطيب فاشتد عليهم ذلك، وشعروا بأن الإهانة لحقت دور العبادة أيضا، وآلمهم تهديد الخطيب واحتقاره، فخرج بعض الشبان المسلحين ليلا، وباغتوا إقامة المحقق واغتالوه ثم أشعلوا النيران في المكان، كان أربعة منهم قد قتلوا بنيران الحراس الذين أيقظهم نباح الكلاب المتكرر، وعلم الاسبان بالحادثة المفجعة، فأطلقوا وابلا من القنابل صبيحة الجمعة على الصحراويين، صعد الخطيب إلى المنبر في موعده الأسبوعي، وكثف من التحريض على الجهاد والمقاومة، ولم يغادر المسجد إلا بعد صلاة الجنازة على الأموات وطلب النصر للأحياء.



اللقاء



كان أبناء سالم الثلاثة مولود ومحمد ومصطفى قد شبوا على الصلوات الكنسية كل أحد، وكانت إحدى الخادمات اللواتي كن على علاقة بأمهم زينب تحاول جاهدة ثنيهم عن ذلك، لم يتعلموا التحدث إلى الناس باللهجة الحسانية جيدا، بل كان لسانهم إسباني، ودينهم مسيحي، وسحناتهم صحراوية، كان مولود أشبه إخوته بأبيه، تعلو سمرة البحر محياه، حيث كان يحب دائما أن يلهو ويصطاد السمك، ويتدثر بالشباك التالفة، ثم يترنح فوق الرمال كأنه سمكة سقطت في شراك الصياد، كان يخاف دائما من أن تلتف خيوط الشباك بعنقه، فيحاول فك خيوطها ولو بقضمها بأسنانه الصغيرة، كثيرا ما ارتمى بين أمواج البحر حتى اختفى بين مدها وجزرها، وظن إخوته أنه اختفى إلى الأبد، ثم يظهر رأسه على شكل نقطة سوداء صغيرة تزحف نحو الشاطئ الناعم.

كان الإخوة الثلاثة يشعرون بفقدان أبيهم وأمهم، ثم أمهم الثانية روزا التي اغدقت عليهم العطف والحنان، وأرادت أن تجعلهم نواة لنشر الدين المسيحي في تلك الصحراء التي يعلو الأذان في كل ربوعها، كانوا قد علموا أن زوجها الكولونيل ميخيل قد اغتالها بدم بارد، ورحل إلى الأبد.

قرروا ذات يوم أن يخرجوا في رحلة صيد جماعية يخرج إليها العساكر الاسبان من حين لآخر، فقال مولود :

- أتمنى أن أصطاد طائرا جارحا لأظهر لهؤلاء العساكر مدى قدرتي على التفوق عليهم والوصول بسهولة إلى الهدف.

ضحك أخواه ثم رفعا رأسيهما نحو الأعلى، فإذا بالكولونيل خوليو يقول :

- أنتما... ستعينان كلاب الصيد على تعقب فرائسي.

اخذ ينظر إليهما مليا ثم قال :

- أنت ما اسمك ؟

- محمد.

- ستبقى هنا لرعي الابل، وأخوك سيصحبنا لتعقب الفرائس الكثيرة التي سأمسك بها.

- ولكن... سيدي... أنا لا أحسن تعقب الفرائس.

- وأنا أيضا يا سيدي الكولونيل لا أحسن رعاية الإبل، لقد ربتنا أمي روزا على...

صرخ الكولونيل خوليو مقاطعا :

- روزا ؟ اخرسا...هيا...لا أراكما هنا ثانية... توجه انت نحو حظيرة الابل، ومنذ اليوم، فأنت من سيصحب الرعاة وراءها.

توجه نحو الطفل الآخر وقال :

- أنت... ماذا تفعل هناك...هيا... تقدم أمامي.

ارتجف الأطفال وهرعوا لتنفيذ ما أمر به الكولونيل خوليو، وصورته الشرسة ماثلة أمام أعينهم.

كان الطفل محمد يبكي وهو يخرج مع الرعاة كل صباح إلى تلك الشمس الحارقة، أمامهم العديد من الابل الجيدة، التي يستعملها الجنود بدل السيارات العسكرية إذا قرروا التوغل في ملاحقة المقاومين الذين ينشطون في بعض الأماكن الوعرة وراء الكثبان، فنحل جسمه كثيرا، ولم يعد يقدر على الانسجام مع الرعاة الذين يدينون بدين غير دينه، ويتحدثون بغير اللغة التي يتقنها، فقد عاش حياة

مختلفة عن حياتهم، لم يكن يعلم أنه سينتهي ذات يوم في تلك الواحة الحارة، يرعى الجمال تحت أشعة الشمس الحارقة.

- مرت قافلة الملح التي يصحبها والده سالم بالمكان، وتوقفت قليلا ليصدر الرعاء، فإذا بسالم يتعرف على بعض رعاة إبل كتيبة الكولونيل مانويل فيهش فرحا، أسرع نحو أمتعته وأخرج ثوبا لفه على وجهه ورأسه حتى لا يتعرف عليه أحد، فاقترب منه وناداه همسا :

- سيدي أحمد...سيدي أحمد...

- التفت الراعي نحو سالم الذي عانقه وقال همسا :

- هل تعرفت علي ؟ أنا سالم مترجم السيد مانويل...أنا سالم.

- سالم ؟ هذا مستحيل...سالم مات في كتيبة مانويل وطمرت العاصفة جسده تحت الرمال ولم يعثروا عليه.

نزع سالم جزءا من لثامه عن وجهه وقال :

- لم يعثروا على جثته ؟ لأنه...ببساطة...لأنه حي يرزق...أنا حي أرزق يا سيدي أحمد..انظر أنا هو..أنا سالم.

نظر إليه سيدي أحمد محدقا فصاح بأعلى صوته :

- محمد..سعيد...ميمون...سالم هنا...سالم حي يرزق.

تملك الفزع الشديد سالم، فوضع يده على فم سيدي أحمد وهو يقول :

- اخفض صوتك، ربما يتعقبني أحدهم... ربما ظنوا أني أنا من ساق تلك الكتيبة المشئومة نحو العاصفة.

ضحك سيدي أحمد وقال :

- لا تخف...أكثر العساكر حولوهم نحو المستعمرة شمال البلاد، كل فترة نرى

وجوههم القاتمة تتغير، ولا تتغير معاملاتهم الحقيرة.

تجمع الرعاة حول سالم الذي بادر بسؤالهم عن زوجته وأبنائه، أطرقوا رؤوسهم جميعا، ثم قال ميمون :

- محمد ابنك معنا.

صاح سالم قائلا :

- أين هو ؟ أحب أن أراه.

- زوجتي زينب ؟ ما أخبارها ؟ هل حدث لها مكروه ؟ هل تزوجت ؟

- لا خبر عنها... لا خبر...

- قام ميمون مسرعا ينادي على محمد وهو يشير نحو الابل حتى لا تبتعد عن المكان، بينما خارت قوى سالم وجلس يبكي حتى سمع أنينه وهو يقول :

- يا إلهي...ما الذي جنيناه ؟ ما الذي فعله بنا المستعمر، زوجتي...أبنائي... ها...ها..

أقبل غلام نحيف سودته تلك الشمس اللافحة، فوقف حافيا أمام سالم وقال :مسرورا :

- ارفع رأسك يا سيدي، هل أنت حقا هو والدي..دعني أنظر إليك.

رفع سالم رأسه وهو يمسح دموعه ويحاول فتح عينيه الباكيتين وصاح :

- ابني...محمد... محمد... أين مصطفى ومولود ؟

صاح الابن أيضا :

- أبي...أبي...أخيرا وجدتك.. أنا محمد... ظننت أنك مت مطمورا تحت تلك الرمال إلى الأبد....يا الهي...أبي حي...أبي حي...إذن أمي أيضا على قيد الحياة في مكان ما...أكاد لا أصدق ما تراه عيناي.

- كانا يتحادثان وهما يعانقان بعضهما كل حين، وكانت ذرات الرمال المخلوطة بالتراب على جنب الواحة تثور من تحت أقدامهما الحافية، ويعود الصدى بصرخاتهما مؤذنا بالشوق إلى حياة جديدة.



أخبر سالم أن زوجته خرجت للبحث عنه في ليلة باردة، وربما كانت مقيمة في مكان بعيد، أو أنها ما زالت تبحث عن أهلها، تجدد أمله فقال لابنه محمد :

- ستحضر إلى هذا المكان غدا بحول الله، وفي مثل هذا الوقت يا بني...لا تنس أن تحضر ومعك أخواك...لكم أشتاق إلى رؤيتهما...سنفر من هذا الجحيم الذي طوقنا به المستعمر...فأرض الله واسعة يا بني، وهذه الصحراء بسطت لنا، ونحن نعشقها، وهي ايضا تعشقنا، وستضمنا وتكتم أسرارنا.

عانقه محمد من جديد ووجهه الصغير يمتلئ بشاشة وقال :

- ساخبر أخوي أنك حي، وأننا سنذهب معا للبحث عن أمي زينب.

وضع يده المنهكة على فمه الصغير وقال :

- كلا يا محمد...لا تخبر أحدا، سنتواعد هنا، وسأحضر لأصحبكما متخفيا إلى قبيلتنا، ثم نخبرهم...

نظر إليه الطفل مندهشا، فهو لا يعلم لماذا يصر والده على أن لا يظهر عيانا، ويفضل الاجتماع بأبنائه في ذلك المكان الخالي.

أطرق سالم رأسه قليلا، ثم قال :

- سنخبر فيما بعد أهلنا،أتمنى أن يصدقوني هم أيضا يا بني، يظنون أنني خائن وعميل... آه... كم أنا حائر يا بني.

- أنت لست خائنا يا أبي، لماذا سيقولون ذلك ؟

- سأشرح لك فيما بعد يا بني...

- الخائن يا أبي هو الكولونيل ميخيل، فقد قتل أمي روزا، شاهدته بعيني وهو يحمل جثتها ودمها الأحمر يلوث الأرض.

نظر سالم إلى ولده مستغربا وقال :

- يا إلهي ؟ ماتت روزا ؟
- أجل يا أبي، ستباركها العذراء، فقد كانت أما طيبة.

حدق سالم مطولا في عيني ولده الذي تغير دينه ولسانه، فهو لا يتواصل معه إلا بالاسبانية التي شب عليها، فشعر بكبريائه ينهار، وبهويته تضمحل، وبدا أمامه المستقبل قاتما وقال بصوت حزين :

- لا بد أن تعتز بلغتك يا بني وتحافظ عليها، كيف ستتواصل مع هؤلاء الذين من حولك ؟ ولا بد أيضا أن...أ... أ...غدا يا بني سنلتقي هنا، ونذهب للبحث عن أمكم زينب، أتمنى أن يجمع الله شملنا.

أدرك سالم أن الظرف ليس صالحا لتنبيه الطفل الذي استغرقت روزا زمنا في تغيير دينه، وهي التي كانت تتأسف دائما على الصحراويين الذين لم يعلموا دينا غير الاسلام، بخلاف مستعمرين آخرين استطاعوا تحويل شعوب بكاملها جنوب الصحراء إلى النصرانية، واستحقوا بذلك ثناء الكنائس وأوسمة القساوسة.

كان سالم يفكر في أن يجمع أبناءه و يصحبهم إلى شمال الصحراء بعيدا عن عيون الاسبان الذين سيغتالونه إذا علموا أنه على قيد الحياة، إلى منطقة سوس تحديدا، حيث سمع الكثير عن مقاومة الفرنسيين الذين عاثوا في تلك المنطقة فسادا، وزجوا بالأمازيغيين الشرفاء في السجون، وعذبوهم ونكبوهم، وحكموا عليهم بالأعمال الشاقة، وأعدموا بمعاونة القواد الخونة الكثير منهم، ونهبوا أراضيهم الخصبة وجعلوها ضيعات مغلقة، وأصبح أهلها مجرد خدم يحصلون على الفتات، فقد كان يسمع الكثير عن المقاومة في تزنيت وتارودانت والصويرة، وعن بعض المقاومين الذين يأتون من وجدة وتطوان وفاس والرباط والدار البيضاء ومنطقة دكالة... يقصدون منطقة سوس، ويحملون نشرات للمقاومة الباسلة التي تصل إلى الصحراء، تحث فيها كل المواطنين في الجبال والصحراء والسهول على التشبث بدينهم ووطنهم.

كان بطش المستعمر قد اشتد أواره، فقرر نفي سلطان البلاد لمزيد من الذل والإهانة، وعمل على الإبقاء على أزلامه ينهشون الشرفاء وذوي المروءة والكرامة.

تولى المستعمر القيادة المركزية والمحلية، واجتهد في شق الطرق التي يحمل عليها ثروات البلاد، فقد شغل الناس بحروبه الداخلية والخارجية ردحا من الزمن، وبالمعاهدات التي يقتسم بنودها مع أعوانه، ومكن لشركاته وإعلامه ليتحقق نفوذه، وأنشأ المدارس لتتخرج منها الأجيال التي سيفرض عليها مناهجه، واستقدم البعثات، وقدم كل التسهيلات العلمية للتمكين لأفكاره وتثبيتها، إلا أن تلك المحاولات كلها باءت بالفشل، وتاقت الشعوب إلى الحرية والكرامة، وظلت تستنكر تعيين الخونة والانتهازيين الذين يعادون الدين والهوية والوطن.

كان المستعمر على استعداد لينتظر طويلا، إلا أن الثورات قطعت عليه الانتظار، فقرر زرع الألغام في القلوب ليتحكم في تفجيرها متى شاء، وبعون الله، ثم بالإصرار والثبات على المبادئ، وجد المستعمر نفسه مجبرا على تنكيس أعلامه، وخرج خائبا مدحورا، بعد أن اكتشف أن المقاومة التي خرجت من رحم المساجد والزوايا والمقرات بدأت تأخذ منحى تصعيديا خطيرا، إلا أنه فضل الإبقاء على الصحراء تحت نفوذه، بل إنه أخضعها لعدة تقسيمات إدارية استهدفت عزلها تماما عن المملكة التي تعتبر امتدادها الطبيعي منذ قرون عديدة.

شعر سالم الذي كان قد انخرط في مقاومة أهل سوس بالفخر والغبن في آن واحد، فقد تحامل عليه إخوته عندما عاد إلى قبيلته لاسترجاع أبنائه، وأرغموه على الرحيل، مستنكرين عليه تعاونه مع الاسبان المحتلين زمنا طويلا، وبعدما ظنوا أن العار الذي ألحقه بهم قد دفن بوفاته، قدم من جديد ليذكرهم أنهم إخوة لخائن لدينه ووطنه، كان قد التقى بهم في الظلام خلسة، وظل يحلف بأغلظ الأيمان أنه كان مجبرا على ذلك العمل الشنيع، وأن الله نجاه من العاصفة التي كانت ستجمعه بالمستعمر الظالم حتى بعد وفاته، فقرر أن يكفر عن ذنوبه ويلتحق بصفوف المقاومة، وظل يقسم مستعطفا، إلى أن هدأ بعض إخوته من روعه وأخبروه أنهم

صدقوا كلامه، ولكنهم رفضوا إيواءه، وطلبوا منه أن يرحل بعيدا عن الصحراء حيث معارف القبيلة وأهلها الذين يرفضون كل من سولت له نفسه وضع يده في يد المستعمر ولو بالمصافحة، نظر إليهم مليا ثم قال والدموع تهطل من مقلتيه :

- ستعلمون يوما أنني رضعت الكرامة والحرية من هذه الرمال الحاضنة، لن أكون عاقا لأم آوتني بين أحضانها، وسأظل أقاتل حتى تنكس أعلام الاسبان المستعمرين ويرحلون إلى الأبد.

كان بعض إخوته ينظرون إليه في الظلام الخافت مشفقين، وهموا بالعفو و الصفح عن زلته، ولكن حمى الشائعات كانت تتهددهم فقال كبيرهم :

- أتمنى أن لا تعود إلى هنا، فقد كانت وفاتك راحة لنا.

تعجب من القسوة التي جعلت أكبر إخوته يتمنى وفاته وقال يائسا :

- أبنائي أمانة بين أيديكم، لا تتركوهم يسومهم الإسبان العذاب... أ... أ... زوجتي ورفيقة دربي زينب... إذا... إذا ظهر لها أثر...أ...أ...أناشدكم الله... أن تعلموني متى عثرتم لها على خبر، سأخبركم بمكان تواجدي لاحقا.

اقترب منه أحد إخوته وعانقه بحرارة وقال :

- اطمئن يا سالم، أبناؤك... كأنك أنت الذي ترعاهم...سنحفظهم... ولن يستعبدهم هذا الاسباني بعد اليوم، فهم أبناؤنا، ورعايتهم في ذمتنا.

- أشكرك...أحب أن يشبوا على دينهم ويدرسوا...

قال أكبر إخوته مقاطعا :

- لا تعد إلى هنا يا سالم...فقد كنا نرفض المال والطعام الذي تأتينا به من عند المستعمر الذي أيدته في استعبادنا، فكيف نقبلك اليوم بيننا.

قال آخر وهو يمسك بطرف لحيته :

- الأفضل لأبنائك أن يقال عنهم أنهم أيتام، من أن يعيروا بأنهم أبناء الخائن لدينه ووطنه.

رد سالم مقاطعا وعلامات الحزن على محياه :

- ما أقسى قلبك يا عبد الله...أنا من التائبين...ألا تغفر لي ؟

رد عبد الله كبير إخوته غاضبا :

- اسأل وطنك إن كان سيغفر لك...

أطرق سالم رأسه برهة وقال :

- هل يمكنني أن أودع أبنائي ؟ ربما لا أعود لرؤيتهم ثانية.

دفعه عبد الله برفق وقال :

- الوقت متأخر، وهم نائمون... ونحن أعلنا أنك توفيت في حادثة العاصفة، لا حاجة بنا إلى مزيد من الفضائح، تقدم وتدبر أمرك في مكان غير هذا.

انطلق سالم حزينا فآوى إلى واحة صغيرة، وجلس تحت نخلة ينظر نحو الأفق، كان الألم يعصر قلبه، وعلم أنه سينتهي إلى التشرد إذا لم يتدارك ما فات ويقرر مصيره بنفسه.

رفع رأسه نحو السماء وهو ينظر إلى النجوم المعلقة كالمصابيح، وصار ينصت إلى الأفكار المضطربة التي تزاحمت في ذهنه، إلى أن غالبه النوم في ذلك المكان الخالي.

وفي صباح ذلك اليوم، قام فاقترب من أحد الرعاة وسأله عن القوافل التي تصعد نحو الشمال، فدله على ساحة رملية فسيحة يعقد قربها السوق الكبير، فقصدها وهو يفكر بأمره، وعندما طال به المشي، سار نحو صخرة عظيمة ترسل ظلها الوارف نحو بقعة الرمل فتحتفظ ببرودتها، وهناك وجد قتيلا مضرجا في دمائه، فأصابه الفزع وهو ينظر إليه محاولا التعرف على ملامحه، إلا أن وجهه كان مخترقا بالرصاص من كل جانب، فقرر أن يدفنه فورا قبل أن تتعفن جثته، انحنى وأدخل يده

في جيب ردائه الصحراوي الأبيض، فأخرج ورقا وصار يقرأه بتأن، فإذا خطبة جمعة نارية من ورقتين صغيرتين كتبتا بالصمغ الأسود، كانت الأولى تسرد آيات القرآن التي تحرض المصلين على مؤازرة المقاومة ومناصرتها، والوقوف بوجه المحتل حيثما كان، أما الخطبة الثانية فكتبت عليها آيات تنذر الفساد والمفسدين وتتوعدهم، فعلم سالم للتو أن القتيل من أولئك الخطباء الذين يعقدون فوق منابرهم مؤتمراتهم الأسبوعية التي تقض مضاجع المستعمر، وأن اختيار ذلك المكان المقفر لقتله لن يؤلب المصلين، وسيشغلهم البحث عنه إلى حين، طوى الورقتين وراح يقبلهما، فإذا هما تفوحان مسكا فائقا، قام وصلى عليه صلاة الجنازة، ثم انشغل بدفن جثته تحت الرمال التي أوقفت انسياب الدماء الفائرة.

صف حجرا صغيرا فوق القبر الرملي حتى لا تعريه الرياح، وانطلق كالسهم وهو يبكي محن الوطن ومحن أهل الوطن، كان الغروب يأتي كئيبا ليغطي الأفق الحزين، بعض النباتات الشوكية تشكل ظلا حولها دون أدنى حركة، وكان القمر يقترب في دورته المعتادة ليرسل ضوءا خافتا يسمح لسالم بأن يتم مسيرته، فلا يكل ولا يتوقف، إذ لم يعد هناك مجال للوقوف أو الركون، كان يود أن تحدث خطواته صوتا يؤنسه وينسيه تلك الصور القاتمة التي صنعها الظلم الاستعماري من حوله، سار باتجاه الغرب، فإذا هدير البحر يرسل صوته المزمجر ليمزق السكون، لم يكن يعلم أنه يسير باتجاه المكان الذي فارقت فيه زوجته زينب الحياة وحيدة وهي تبحث عنه كما يبحث هو الآن عن وطن يلملم جراحه، قطع مسافة طويلة دون توقف، فلاح له ضوء الميناء الصغير الذي بني على عجل لأجل صيد الأسماك ونقل السلع والبضائع، كان العلم الاسباني يخفق فوقه، فمكث في بناء صغير مهجور حتى الصباح.

رافق القوافل نحو طانطان و أقام بها وقتا قصيرا، واشتغل حمالا يتدرب على التجارة وتبادل السلع، وبعدها اخترق الحدود الوهمية بين فرنسا واسبانيا نحو سهل سوس، وهو منطقة رسوبية غاية في الخصوبة، أدرك المستعمر الفرنسي أنها لوحدها

يمكن أن تكون سلة البلاد الغذائية، لما تتوفر عليه من أراض منبسطة تخترقها أنهار تنحدر من قمم جبال الأطلس الشاهقة، فشكلت فرنسا الاستعمارية ضيعات كبيرة للحوامض والبواكر، وجعلت لذلك معامل تتلاءم مع احتياجاتها.

قرر سالم ان ينخرط في التجارة بدل الفلاحة التي انحصرت في التردد على عمل السخرة في ضيعات المستعمر، أو في بعض الاستثمارات الفقيرة التي لا تتجاوز تغطية حاجيات العائلة الواحدة، فمارس تجارة بسيطة في بعض الأسواق المتنقلة، ثم حاول تنميتها ببطء، والتحق بالمقاومة الثائرة.

مرت مدة استطاع فيها سالم أن يشعر ببعض الاستقرار، خصوصا بعدما زف خبر عودة الملك من منفاه تحت وابل من التحايا والأهازيج، وعلم الناس أنهم خرجوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، فاختلطت عليهم المشاعر والأحاسيس، إذ انتهت مغامرة بن عرفة القصيرة على كرسي الحكم، بعدما ثار الجميع ضده ملكا وشعبا، وتسعرت المقاومة واشتد أوارها، _فلجأ بن عرفة في اكتوبر 1955 إلى طنجة، ومنها إلى مدينة نيس الفرنسية، حيث كانت قبلته التي أراد تطويع البلاد في اتجاهها، حاملا معه خزيا أدخله التاريخ من بابه الأسود.

قام المنادي بين النوادي والأحياء يردد : لقد عاد الملك... لقد عاد الملك...

قصد سالم الناس الذين تجمعوا في الطرقات وهم يتحدثون عن النصر الذي تحقق، وكل أمنيتهم أن ينخرطوا في الحلم الجديد، والثبات على روح الوطنية التي اشتعلت في قلوبهم، راجين أن يتم توظيفها نحو البناء والعمران والتشييد و تحرير الجنوب الذي امتد استعماره سنوات أخرى.

كان سالم يرجو أن تستكمل البلاد استقلالها جنوبا، سيما وأن الملك محمد بن يوسف ألقى خطابا في محاميد الغزلان في 25 فبراير 1958 جاء فيه : "... سنواصل العمل بكل ما في وسعنا لاسترجاع صحرائنا، وكل ما هو ثابت لمملكتنا بحكم التاريخ ورغبات السكان، وهكذا نحافظ على الأمانة التي أخذنا أنفسنا بتأديتها كاملة غير

ناقصة...".

المسيرة

مرت سنين عديدة، وأعلن ملك البلاد الحسن بن محمدعن انطلاق مسيرة خضراء نحو الصحراء التي ظلت تئن تحت وطأة المستعمر، كان ذلك الخطاب بمثابة جرعة الأمل الكبرى التي تحدو سالم في رؤية أهله وذويه، ظلت جمله المتتابعة ترن في أذنيه، لبس لباسه الصحراوي وصار يجوب مدن سوس التي أقام بها سنين طويلة، وتزوج من عائلة أمازيغية أصيلة، شعر بسعادة كبيرة تغمره، وكانت زوجته تتعجب من حماسه الشديد وتقول له:

- أنت كبرت يا سالم، وما زلت تحلم بالسفر والتنقل من مكان إلى آخر... قيل بأن الطريق نحو تلك الصحراء طويل.

قال وهو يشعر بالنخوة والفخر :

- نداء الوطن موجه لكل من تنبض عروقه بحب وطنه، كان شابا أوشيخا، لقد انتظرت هذا اليوم من مدة يا رقية.

قالت رقية والغيرة والخوف تشملانها :

- لا أرى نفسي مستعدة للسفر معك، تتعرف على أهلك، ويقل في قلبك حبك لي، لقد استقر كل شئ بالنسبة لنا هنا...

قال مقاطعا وهو يضع يده على قلبه وقال :

- بإمكان قلبي أن يجمع مشاعر الحب والفرح والحنين دفعة واحدة، منذ ذلك الخطاب يا رقية وهو يهتز في صدري ويتوق...يتوق إلى لقاء الأحبة...

قالت رقية متضايقة :

- يالك من عنيد، أظن أنك ستتركني هنا أنتظرك وحيدة.

- كلا..كلا...أقترح عليك مرافقتي، فالنساء أيضا سينخرطن في هذه المسيرة الفريدة.

نظرت إليه رقية وقالت ساخرة :

- دعني أكرر على مسامعك أنك ستلتقي بزوجتك وأبنائك، وتصل معهم الرحم و...

قاطعها وهو يضحك قائلا :

- أي رحم هذه التي تتحدثين عنها ؟ لقد غدونا رحما واحدا يا رقية، ستتعلمين اللهجة الحسانية، وتتذوقين كؤوس الشاي الساخن في تلك الأجواء الدافئة.. آه.. الشاي الساخن يا رقية..لكم أشتاق إلى أهلي الذين حال بيني وبينهم المستعمر الغاشم سنين عديدة، وأنا أجالسهم هناك...لكم أشتاق إلى تلك الأرض التي غذتني ولم تبتلعني حين هبت العاصفة.

- ومتى يكون هذا السفر ؟

- ليته كان اليوم... آه... بل ليته كان الآن.

- ألهذا الحد استبد بك الشوق يا سالم ؟

- كنت جالسا في المقهى عندما سمعت ذلك الخطاب الذي اخترق كياني، لم أفهم جيدا في البداية فحواه، ولكنني علمت أن أوان اللقاء الموعود قد حان، لم أشعر إلا وأنا أصفق وأعلن أنني من سيدفع ثمن كؤوس القهوة والشاي لكل من كان في المقهى.

- أنا أستغرب... كيف سنذهب من غير سلاح...كيف ؟

- تخيلي...تخيلي يا رقية العزيزة... سالم يعود إلى أهله عزيزا كريما، رافعا رأسه نحو السماء الصافية.

صارسالم يصفق تصفيقا عاليا، ويقوم بحركات غريبة، فقالت له زوجته :

- سالم... هل جننت ؟

- أجل يا رقية، لقد جننت... هناك جنون يلاحقونني من سنين عديدة، حان الأوان لملاحقتهم حتى يعودوا إلى قمقمهم المظلم.

- عافاك الله يا سالم... ما الذي يحدث لك، لا بد أن تقرأ شيئا من القرآن.

- أجل... سيكون القرآن في يميني، وعلم بلادي في الشمال.

كان سالم يتحدث بصوت مرتفع، وهو يغمض عينيه ويترنح كالمجنون بحب وطنه ثم قال :

- سأذهب إلى الصحراء، وأصرخ بأعلى صوتي : اذهب أيها المستعمر الغاشم إلى الهاوية، يكفي ما فعلته بي...مزقت أوصالي سنين عديدة... وضيعت أملي... ولكنني بقيت صامدا...منتصرا...وها قد عدت... ولو بعد حين... أنا عاشق وطنه...أنا عاشق الصحراء الذي لا تنال منه الخطوب والمؤامرات...أنا...

- كفى يا سالم... كفى... أرجوك... أظن أنك ستفقد عقلك، منذ أن سمعت هذا النداء وأنت متغير الأحوال.

نظر إليها سالم وقال :

- سأرى أهلي يا رقية، وتلمس قدماي أرضي، وأرى بأم عيني علم المستعمر الذي عذبني ينكس، ويعلوه علم بلادي الأحمر الرفراف... كيف لا أجن ؟

- وماذا ستفعل بالدكان الذي استقرت فيه تجارتك ؟

- الجهاد الأكبر يدعونا إلى بذل ما نستطيع...بلادنا بحاجة إلى سواعدنا.

قالت رقية ساخرة :

- ههه...أي ساعد تملك أيها الهرم، هذه اليد المرتعشة لن تفعل غير نفض الغبار عن ردائك...حينما تجلس على الرمال الساخنة.

- آه...كم أنا مشتاق إلى تلك الجلسة يا رقية... سأخبر إخوتي أنني وفيت بوعدي، وانضممت إلى كتائب المقاومة في سوس، وصنعت القنابل اليدوية التي انفجرت تحت أقدام المستعمرين، وحرقت مزارع القمح التي يحملون سنبلها ويتركون لنا التبن الجاف.

- ههه...ستحكي لهم قصة الفأر المحترق.

- أجل....كأنني أراه الآن يخترق الحقول وذيله يحترق، إنه أفضل موزع للنار وفي لمحة البرق...ما هي إلا لحظات حتى تغدو تلك الحقول اليانعة قاعا صفصفا، خسائر فادحة، بأسلحة واهية...هه...

- لا شك أن قصة الفأر هذه ستجعلهم يسقطون على قفاهم من الضحك.

قال سالم ودموع الفرح تهطل من عينيه :

- الفأر...ههه... أمسكت بفأر كبير يوما، تعقبته كما يفعل القط تماما، ثم غمسته في الزيت الحارق، وأشعلت النار في ذيله، ثم أرسلته ليقوم بمهمة توزيع النار قبل موته، كنت أطلب منه العفو والصفح بإلحاح، وأخبره أنني لا أملك خيارا غير ذلك، كان «المسيو موريس» ينظر إلى اللهب يسطع فوق السنابل دون أن يعلم من يوزعها، جن جنونه، وصار يصرخ متوعدا، وهو الذي كان ينتظر حصد هكتارات شاسعة استولى عليها ظلما وعدوانا...أ...لم تمر إلا لحظات يسيرة حتى أصبحت كهشيم تذروه الرياح... ههه...



قضى سالم وزوجته أياما في مكاتب التسجيل في لوائح المنخرطين في المسيرة الخضراء، وكانت المكاتب قد غصت بالمتطوعين، و حينما حصل على الموافقة للدخول في قائمة الرقم الصعب الذي غير تاريخ المنطقة، انطلق كالسهم وقال لرقية التي كانت تجمع بعض الأطعمة :

- لا تتعبي نفسك، فقد أخبرونا أن الزاد والمؤن ستكون متوفرة.

نظرت إليه رقية وانهمكت في جمع بعض الأعشاب التي لا تستغني عنها المرأة في سوس، مثل أعشاب الشيح وإلزعتر، فبعد أيام ستنطلق طوابير المتطوعين من شتى بقاع الوطن، وقد أعلن الخطاب الملكي أن أوان الانطلاقة قد حان، و ترددت على مسمع الناس تلك الجمل الملكية التي تقول مخاطبة الشعب قاطبة : « غدا إن شاء الله ستخترق الحدود، غدا إن شاء الله ستنطلق المسيرة الخضراء، غدا إن شاء الله ستطأون طرفا من أراضيكم، وستلمسون رملا من رمالكم، وستقبلون ثرى من وطنكم العزيز»

كان سالم يرى أنه سيطأ أرض الوطن، وستلامس قدماه ثراها لا محالة.

لم يمر وقت يسير وتحقق الحلم، فبدت له طرفاية وما بعدها كأنها أمه التي ستحضنه، كان يمضي وهو ينحنى ويحمل غبار الأرض ويقبله وهو يكبر، فقد استطاع أن يكون رقما ثابتا في مسيرة الثلاثمائة وخمسين ألفا، وقضى وقتا طويلا في نسج الحلم والاقتراب من الأمل، لقد شارك سفراء كل من المملكة العربية السعودية، ;والأردن، وقطر، والإمارات، وسلطنة عمان، والسودان، والجابون، ووفد من السنغال، والأمين العام لمنظمة المؤتمر الاسلامي، في ذلك الجمع على شكل مشط منتظم من أعلاه إلى أدناه، لا يتخلف عن الصف الطويل الممتد أحد، لا يحملون سلاحا، ولا تسبقهم دبابات ولا طائرات حربية ولا مدرعات، جيش ساكن يحمل حرية مشتعلة بداخله، يقول للاستعمار ارحل فلا أوان إلا للرحيل، فينبض قلب سالم ويشعره أنه يصطف مع الدبلوماسيين وممثلي الدول، كأن العالم بأسره يصحبه و يشاركه فرحته، وينتشي وهو يرى الكامرات تنقل صوره حين يلوح بعلم الوطن، فيهتف فرحا بعودته إلى

وطنه، وعودة وطنه إليه، لم يأبه بتلك الشرذمة من الصحراويين القلائل الذين شذوا عن الحق، ووضعوا أيديهم في أيدي المستعمر طالبين منه التمكين لهم، فلا خبرهم يعنيه ولا مناوشاتهم ترعبه، حمل الراية وصار يهتف أمام الصحافيين بإسبانية جيدة: اخرج أيها المحتل... نحن هنا اليوم أحرار ولا مكان لك بيننا... ارحل... ارحل... اقترب منه أحد الصحافيين الاسبان وقال :

- هل أنت من أبناء الصحراء ؟

- أجل... أجل... أنا من أبناء هذا الوطن العزيز.

- ألا تخشى أن تقوم الآن حرب وليس معك سلاح أو عتاد ؟

رد سالم وهو يرفع صوته عاليا :

- عاشق الحرية لا يرهبه شئ، وسلاحي هو إيماني بعدالة قضيتي.

كان بعض الصحفيين الآخرين ينظرون إليه وهو يمد صدره الأعزل نحو الكاميرا ويقول بصوت عال :

- صوروا صدري، ففيه سلاحي الذي لا يفارقني.

لم يملكوا إلا أن هتفوا بالتصفيق متعجبين من جرأة سالم وإقدامه وهو في تلك السن المتقدمة، كما تعجبوا من حديثه المتحدي باسبانية جيدة، وهم الذين حسبوه مواطنا بسيط الوعي والإدراك.

كان الصف الطويل قد انطلق نحو الصحراء، بعدما أديرت محركات الطائرات والقطارات والشاحنات والسيارات المدنية، مصحوبة بآليات الدعم واللوجستيك من كل أرجاء البلاد، و محملة بالمنخرطين والمواد الغذائية والخيام والأعلام والمصاحف، حيث تم تعبيد طريقين مداهما 100 كلم في ظرف قياسي بلغ 18 يوما فقط، ومرت عليه أطنان من المواد الغذائية عبارة عن علب الحليب والسكر والسمك المعلب والتمور وملايين اللترات من الماء، إضافة إلى آلاف الأطنان من البطانيات وقطع

أدوات الأكل وأواني الشاي والقهوة، وأطنان أخرى من الشموع للإضاءة، وأطنان من الصابون، ومن الطحين المحشو في الأكياس، وعشرات الآلاف من القدور التي يطبخ فيها الأكل، كما أتي بطباخين من كل المناطق ليطبخوا لكل مجموعة الطبخ الذي يلائم منطقتها، وتم بناء معسكرات استقبال مجهزة في مدن مراكش وأكادير و طاطان وطرفاية ، إضافة إلى أعوان السلطة والأطباء والممرضين والمساعدين الاجتماعيين وأطر الكشفية ومختلف الإدارات والصحفيين المحليين والدوليين الذين لم يسبق لهم أن غطوا نشاطا يبلغ تعداد المشاركين فيه 350 ألف نسمة، فقد كانت ملحمة تاريخية بامتياز، خصوصا وهم يرون لأول مرة جيشا جرارا يحمل المصحف بيمينه بدل البندقية وهو متجه صوب أرض تخترقها القواعد العسكرية لاستعمار دام أكثر من تسعين سنة، فتعجبوا من إقدامهم وعدم انشغالهم بأي هجوم بالسلاح قد تنفذه اسبانيا في أي لحظة، كانوا يهتفون بشعارات سلمية وهم غير مكترثين، فبدا ذلك الصف البشري كأنه واد من الفضة ينحدر معانقا واد الذهب، تعلوه الأعلام الحمراء والمصاحف الخضراء فتشكل خطوطا بالأحمر والأخضر كأنها مروج ربيعية ساحرة.

كانت **المجموعات الأولى قد اتخذت موقعها في طرفاية يوم 23 أكتوبر، استعدادا لعبور الحدود** والتحمت لحمة الوطن، ثم توغلت بعد ذلك الجموع أمام أنظار المستعمر.

وعندما توقفت الحشود لأخذ قسط من الراحة وتفقد الحاجيات الشخصية، استغل سالم الفرصة، وسجد سجدة شكر وهو يمرغ وجهه في تراب الوطن، كان يشم فيه رائحة أهله الذين لم يترك لهم الاستعمار فرصة لينعموا بالدفء والراحة، أطال السجود والشكر، ثم رفع رأسه وانتصب واقفا ينظر إلى السماء الزرقاء التي تلتحم بالأفق كأنهما سقف واحد، كانت زوجته تصفف الطعام الذي تم توزيعه بشكل منظم، فحضر مسرورا وهو يفرك يديه وقال :

- ما الذي تشعرين به يا رقية ؟ تأملي... هل تصدقين... الصحراء بلا إسبان... الصحراء بلا إسبان...لا أصدق ما تراه عيناي.

نظرت إليه زوجته وهي تخلط القليل من الطحين المحمر المخلوط بالنعناع المجفف وبذور النافع وقالت :

- هل تصدق أنني أقطع هذه المسافات في هذه الرحلة الغريبة و أنا التي أشكو دائما من الألم في قدمي ؟ ما كنت أظن أنني سأتحمل المشي الطويل...لا أصدق.

قال متحمسا :

- إنني أصدق ما هو أبعد من ذلك، أتمنى ان أسبح في هذه الصحراء يا رقية، فلدي مع هذه الكثبان العشرات من الذكريات ولكن...

قاطعته قائلة بسخرية :

- ما الذي يمنعك... سنتقدم مشيا على الأقدام وتلحق بنا سباحة... ههه...

قال سالم متأسفا :

- الألغام يا رقية... آه... الألغام... ما الذي فعلته أيها المستعمر ؟



كان محمد ابن سالم قد قطع المسافة باتجاه الشمال متخفيا عن أعين فلول الاسبان الذين قد يتعقبوه، خصوصا أولئك الذين لم يرحلوا بعد، وظلوا في تلك الثكنات يراقبون ما يحدث على الساحة، فلف طرف عمامته على وجهه كأنه تاجر بسيط، ولم يصحب معه إلا ثلاثة من أوفياء جلسائه وبني عمومته، فتسلل يريد جموع الوطن التي هبت لصلة الرحم ودحر الاستعمار بأغرب سلاح سلمي عرفه التاريخ، وسمع التكبير والهتاف من مسافة بعيدة، فتهلل وجهه فرحا، وصار يكبر هو أيضا ويردد معه رفقاؤه، كانت أصوات الرجال والنساء لثلاثمائة وخمسين ألفا تزلزل سكون الصحراء زلزالا، وتخبر الرمل و البحر والصخر أن شمس الحرية قد بزغت، كانت دموع محمد تنزل بغزارة كبيرة فتبتلعها أطراف عمامته القطنية ابتلاعا، فصار يقترب ويقترب، كان الصحراويون يعانقون إخوانهم ويرحبون بهم ويؤدون تحية الوطن، انطلق سالم كالسهم وهو يرى جموع الصحراويين، فصار يعانقهم ويضغط على أيديهم، كان يلمس وجوههم ويضع يده على صدورهم كالمجنون، رأى ابنه محمدا فتوجه نحوه وعانقا بعضهما عناقا حارا دون أن يتعرف أي منهما على الآخر، كان موقفا رهيبا يشعل الشوق في قلب كل واحد منهما، فافترقا فورا وانشغلا بمعايشة تلك الصور التي تمر أمام أعينهما بوتيرة سريعة جدا.

كان أحد المسؤولين يردد : تقدموا... تقدموا...وكان الجميع يتقدم في تنظيم بديع وفق التعليمات التي كانت موصولة بالقيادة المركزية، كأن المشاركين في المسيرة تدربوا على السير في الرحلات الجماعية في دورات لأشهر أو لسنوات.

كان سالم يغرس العلم الوطني في الرمال مرارا، ثم ينزعه ويلوح به عاليا، فهو شاهد الجيش المغربي ينتظر أن يرفع العلم في منطقة الطاح على بعد 120 كلم شمال العيون، وظل رافعا رأسه نحو السماء يشكر الله الذي أراه يوم الحرية وجلاء المستعمر إلى الأبد، حيث توقفت المسيرة في تلك المنطقة وأدت دورها، وحققت مرادها بكسر الحدود الوهمية.

كانت النساء تشكلن عشرة بالمائة من جموع السائرين نحو لم شمل الوطن، وأثبتن كفاءات عالية في المساهمة في رفع روح الوطنية لدى المتطوعين، وبدت تلك الكتلة البشرية برجالها ونسائها، وجيشها وكل متطوعيها بأصنافهم ورتبهم وتخصصاتهم... كأنها لوحة تسبح فوقها ريشة فنان ينسق الألوان بعناية فائقة، لا تدافع، ولا مشاحنات، ولم تسجل حادثة واحدة قط، الجميع ينخرط في النداء الخالد : نحن فداء للوطن... نحن فداء للوطن...

اتكأ سالم لحظة، وأغمض عينيه، وصار يتخيل صور زحف المواطنين شيبا وشبابا نحو الجزء المستعمر من وطنهم، وكيف انتظم هو وزوجته في السير الرشيد، يحملان كتاب الله في يد، والعلم الوطني في اليد الأخرى، ولم يكن يسمع إلا نداء الوطن في كل الأرجاء، بعد أن صمت هدير الحافلات التي توجهت من جميع أنحاء الوطن لصلة الرحم ودحر المستعمر الذي جثم على صدور إخوانهم، وإشعارهم أنهم لن يتركوهم تحت الحكم الاسباني الغاشم، أمواج بشرية أشبه بسحابة حمراء تتخللها نقاط خضراء، ومن ورائها غبار رملي كثيف تداعبه أقدام المشاة بكرامة، قام من مكانه فجأة، ثم أفرغ الماء على يديه، وتناول بعض العسل، ومشى مهرولا نحو المجموعة.

كان سالم يشعر أنه شاب في العشرين من عمره، يعانق الصحراويين بحرارة ويبارك لهم النصر، تمنى لو رأى خوسي تلك الجموع وسلم عليها، ليرى أن الله دحر الاستعمار الظالم بأقل كلفة، كان يكبر ويهتف : مرادنا لازم يكمل بالمسيرة الخضراء... مرادنا لازم يكمل بالمسيرة الخضراء...

أحب أن يلتحق بقبيلته فورا وهو مرفوع الرأس، ولكنه شعرأنه يلزمه قبل ذلك تكملة مشواره الأول في إثبات الوجود على تلك الأرض، فصار يقضي يومه في السلام والترحيب بكل من يصادفه من أهل الشمال والجنوب والشرق والوسط الذين يرافقونه، يسجل لديه عنوان هذا، ويستضيف ذاك، ويحيي من عرف ومن لم يعرف، ويقتسم الطعام مع من حوله، كان فرحهم جميعا برجوع الجزء المستعمر إلى حظيرة الوطن، أما هو فكان يعيش فرحا برجوع الوطن إليه، ورجوعه إلى الوطن، فتزاحمت

في ذهنه الذكريات وطويت المشاعر بداخله طيا، وصار ينط كالفراشة متهللا، حضرت الصلاة فهوى نحو الأرض يقبلها ويحدثها كأنها تسمعه، ويحمد الله خالق الأرض والسماء الذي كتب له أن يحيا حتى يقدم الاعتذار.

كانت المسيرة قد حققت نجاحا شعبيا وإقليميا وعالميا أدى إلى إعادة التوازن في الموقف الأسباني تجاه المشكلة، كما أن اتصالات مكثفة انطلقت بين اسبانيا والمغرب، وبدأ الموقف الأسباني يجد نفسه مجبرا على التغير والتململ، واقتنع أن الشعوب لا تقبل بالمستعمر الذي يستعبدها وينهب خيراتها، كما أن التغيرات الإقليمية والدولية فرضت نفسها بقوة على تلك المواقف المتشنجة، ، ولذلك أصدرت الرباط الأوامر بعودة المتطوعين في المسيرة إلى طرفاية، وقد أدوا مهمتهم الخالدة نيابة عن الأجيال.

كان الصحراويون قد فرحوا بقدوم إخوانهم من شتى أنحاء الوطن، وكان أكبر زعماء قبائلهم الشيخ خطري ولد سعيد الجماني قد التحق بالوطن قبيل انطلاق المسيرة، وهو من الذين كان الاستعمار يراهن عليهم كثيرا لتمثيليته الواسعة في الصحراء ، وفي 28 فبراير 1976، كانت راية الوطن عالية خفاقة في سماء مدينة العيون لؤلؤة الصحراء التي كتب الله لها الحياة بعد الموت في نعش المستعمر، بينما كتب للجنرال فرانكوأن يصارع الموت ويخرج من الحياة في 20 نونبر 1975.



المصير

شب أبناء سالم الذين احتضنهم أعمامهم ولم يقصروا في إكرامهم، كانت بصمات روزا تبدو عليهم أحيانا، تزاحمها ذكريات أمهم زينب التي لم يعثر لها على خبر، واعتقدوا أن أحد أعداء الكولونيل مانويل قتلها، ورمى بها في البئر كما فعل الكولونيل ميخيل بروزا، كان مولود قد التحق بفرقة سينيمائية اسبانية في جزر الكناري عندما احتاجت إلى الكومبارس في أحد أفلامها التاريخية، والتي توليها اسبانيا اهتماما كبيرا، وتخصص لها دعما من أموال الدولة، لأنها تؤمن برسالة السينما في تثبيت الهوية وإعلام الأجيال بعظمة دولتهم و ريادتها، فكان من حظ مولود أن يدرج في لقطات تتحدث عن بطولات اسبانيا النادرة في مستعمرتها الصحراوية، فاكتشف المخرج أنه يتقن الحديث بالاسبانية،وأنه موسيقي يعزف على القيتارة بشكل جيد، كما أنه يستطيع التواصل مع الصحراويين، فأسند له العديد من الأدوار، وتبناه فنيا و إعلاميا، وكان مولود يرسل بعضا من ماله إلى أخيه مصطفى الذي يمارس تجارة الشاي والأثواب قرب الميناء مقابل نسب معينة، أما محمد فأقام في قبيلته وخلف والده الذي لم يصل من عنده خبرمنذ مغادرته قبل سنوات طويلة، كان يتردد على شيخ القبيلة الذي يلقي الدروس الدينية في زاويته، وتعلم قراءة اللغة العربية وصار يقرأ القرآن، وختم موطأ الإمام ماك، واشتهر بذكائه الحاد الذي كان يتمتع به منذ طفولته، كانت روزا تهيئه في طفولته ليكون صحافيا ومبشرا، وكانت تأتي بأحد الصحفيين العسكريين لتدريبه، فقد كانت تقول له دائما أنه سيكون لسان الاسبان لدى الصحراويين، واستفاد من العلوم التي مكنت له داخل قبيلته، وصار يحلم بأن يكون رمزا يحتذى به في شتى الميادين.

دخل مولود سلك الإعلام، واستدرج لتغطية أنشطة البوليساريو، وهو الجيش اللقيط الذي جمع الاستعمار الخفي أطرافه من دول شتى، فأعطيت له الإمكانيات الهائلة لإنجاز فلم وثائقي عن القضية الوهمية بمساعدة أحد المخرجين.

كان مولود يتصل بمحمد الذي ذاع صيته وصار خطيبا مفوها في قبيلته، ليقنعه بالالتحاق بالمجموعة الانفصالية التي قررت أن تقوم بقطع أوصال الوطن من جديد بعدما فرح المواطنون بالتئامها، فأرسل إليه أخاه مصطفى الذي حضر ومعه هدية فاخرة فقال بعد أن أدى التحية :

- محمد يا عزيزي... لقد تقطعنا في الأرض، وتفككت أوصالنا، واختفت أمنا، ولحق بها والدنا، ألا ترى معي هذا الذي يحدث من حولنا ؟

- أجل يا مصطفى، أنت ومولود ابتعدتما عن القبيلة ولم تعودا تتفقدان أحوالها، اخشى أن تكونا قد ارتميتا في أحضان الأجنبي من جديد ؟

- الأجنبي ؟ ماذا تعني يا أخي ؟

- دعمكما له يجدد بقاءه بعد أن سالت دماء كثيرة لأجل رحيله، ما الذي تفعلانه بحق أهلكما ووطنكما ؟ هذه أرضنا التي تنتظر سواعدنا... لا...لا تنسيا أن لحمنا وعظمنا نبت في ثراها.

ابتسم مصطفى وقال :

- لقد فطن مولود أخيرا إلى ذلك، وأرسلني لألتقي بك في مكان على الحدود.

- على الحدود ؟ لماذا هذا المكان تحديدا، لماذا لا يأتي إلى هنا ليصل رحمه ؟ القبيلة كلها ستحضنه لو حضر إليها، فهو ابنها الذي غاب طويلا.

قال مصطفى مترددا :

- لا أعلم... ليست لدي إجابات عن اسئلتك.

- لماذا لا يكلف نفسه بالبحث عن جواب ؟

- أنت تعلم، فقد أغدقت عليه الأموال، وهو يعيش مرفها بين المكاتب والمنتديات والاستوديوهات...

- الأموال ؟...المنتديات ؟...

- حسنا... هذا ليس موضوعنا الآن... هذه الهدية منه إليك، إنها عطر فرنسي فاخر، وساعة سويسرية تضئ ليلا...وعندما تراه ستطرح عليه أسئلتك.

تصافحا وهما يبتسمان، وبعد ساعات تقدما نحو المكان المحدد، فقد كان صوت الرصاص يدوي في المنطقة من حين لآخر لخرق جدار الأمن المغربي الذي وجد نفسه أمام زمرة تسيرها أيدي خفية لا تريد أن يلتئم شمل الوطن.

كان محمد يرى بقايا أسلحة ودبابات على الطريق، ويشعر أنها جراح جديدة تنضاف إلى جراحه القديمة، إذ كيف تقاتل هذه الزمرة العميلة إخوانا لهم تجمعهم بهم القرابة والنسب ؟ كيف ينزفون مقدراتهم ويقتلون شبابهم لأجل أفكار وهمية يتغذى عليها الاستعمار ويشتت بها القوة والمال ؟ كيف يأمرنا الله بالوحدة والتكتل ويأبى أولئك المغرر بهم إلا أن يقطعوا الرحم والأوصال ؟ ما ذنب أولئك الأبرياء الذين زج بهم في تلك المؤامرات الخبيثة التي تتغذى على سفك الدماء ؟

لم يتعب محمد نفسه في سؤال مصطفى الذي لا يعلق ولا يجيب على أسئلته الحائرة إلا لماما، ولم يكن همه إلا النظر إلى الخريطة التي أعطاه مولود سابقا للتعرف على نقطة الالتقاء به عند الغروب التام.

قرر مولود أن يتسرب إلى المكان ليلا، فقابل أخويه قرب صخرة كبيرة إلى جانبها هيكل سيارة عسكرية محترقة، ففزع محمد الذي لم يكن يعلم أن أخاه انقلب على فطرته والتحق بالانفصاليين، فظل يكتم عليه الخبر، وأقنعه أنه يود استقباله في إقامته السرية، وهي خيمة كبيرة مجهزة بمكيف، وحولها الكثير من المؤن والألبسة العسكرية والأحذية، وعلى طاولة حديدية صغيرة وضعت جرائد ونشرات اسبانية.

بدأ محمد يشعر بالريبة، وظل متسمرا في مكانه وهو ينظر إلى مولود الذي تغير تماما، ولولا مصطفى الذي لاقاه به لما تعرف عليه، فقد كان لون وجهه يميل نحو زرقة قاتمة بسبب الإدمان على السيجارة التي تغوص كل حين تحت شاربه الستاليني الكبير، وقد زادته النظارات الشمسية التي يخفي بها زغللة العينين قتامة، كما لفت نظره الفتور الكبير الذي استقبل به أخاه الذي لم يره منذ سنوات طويلة.

كان محمد يدير سبحة صغيرة في يده، وكان مولود ينظر إليه باشمئزاز وهو يداعب تارة جهازا لاسلكيا، وتارة أخرى يحرك ملعقة كأس الشاي الفضية الصغيرة، كان على مكتبه الفاخر مفاتيح مكدسة بشكل عشوائي وقد ربطت بحاملة مفاتيح عليها شعار فريق كرة القدم الاسباني، ظل يحرك رجليه جهة اليمين وجهة الشمال وهو ينظر إلى ساعته كأنه ينتظر قادما، وكان محمد ينظر إليه باستغراب وإلى حركاته التي تخبره أن أخاه قد تغير كثيرا، وأنه يضمر في نفسه شيئا، خصوصا عندما أخرج سيجارة كوبية فاخرة، وصار ينفث دخانها داخل الخيمة نفثا.

لم يتمالك محمد نفسه وقال :

- كنت أتوقع أنني سألتقي بك في مكان آخر غير هذا، لقد تغيرت كثيرا يا مولود، ما هذا الفتور الذي اعتراك ؟

ضحك مولود وهو ينظر إلى مصطفى الذي عرف بقلة تعليقاته وعدم اكتراثه فقال :

- أنت أيضا تغيرت كثيرا يامحمد، لدي تقرير عنك أنك... انك صرت من الذين يعادوننا... ويحرضون علينا أيضا.

نظر إليه محمد مندهشا وقال :

- يعادونكم ؟ من أنتم ؟ أين توجدون تحديدا ؟ هذه الخيمة أشبه بثكنة عسكرية...أظن يا مولود أن شيئا ما قد حدث لك... أنا... أنا... أنا أخوك الذي اشتاق إلى لقائك.

صرخ مولود في وجهه وقال :

- بل حدث لك أنت شئ في رأسك يا محمد، ألا تعلم أنه يتوجب عليك إحداث ثورة بداخلك، ثورة في القبيلة، ثورة تهز كل شئ من تحتها لتتحرر الشعوب.

صمت محمد وأحنى رأسه وقد فهم كل شئ، فقرر أن يلتزم الهدوء والسكينة في الحوار، ما جعل مولود يشعر أنه أساء إلى أخيه بصراخه فقال :

- أحب أن أعرفك على ثلة من أصدقائي، فهم في القسم الاعلامي والفني لمجموعتنا، سيقدمون لك كل ما تحتاجه.

- ومن أين لهم بما يمدونني به مما أحتاجه ؟

طمع مولود في استدراج محمد وقال مبتسما :

- لا عليك...لا تهتم لهذه الأمور كثيرا، لدينا دعم مادي ولوجستي كبير...كل الذين يعشقون الحرية يدعموننا.

حرك رأسه مسرورا وأردف :

- أجل...أجل...سيقدمون الآن، خذ هذه الورقة والقلم، اكتب...هيا...ضع قائمة بكل ما تحتاجه يا محمد... أنا... أنا غدوت رجل أعمال كبيرمن الآن، ولدي شركة صغيرة للانتاج والتوزيع... ويمكنك الانخراط فيها.

حمل محمد القلم الذهبي والورقة الصقيلة وكتب باللغة العربية : أحتاج إلى :» وطن...حرية...كرامة « سلمها إلى مولود الذي تملكه غضب يحاول عبثا كظمه وقال :

- أصبحت تتكلم اللغة العربية ؟ وتكتب بها أيضا ؟ تظن أنني عاجز عن قراءتها ؟ وطن... حرية... كرامة... رائع... رائع يا محمد... هذا هو ما نسعى نحن أيضا من أجله... أحسنت... أحسنت...

قال محمد غاضبا :

- ما شاهدته وسمعته قبل مجيئي إلى هنا لا يدل على ذلك.

- اسمع جيدا يا محمد... لا تضيع فرصتك، سيحضر مجموعة من الرفاق وأعرفك بهم، هذا الهراء الذي كتبت على الورقة...أ... لا تعرضه عليهم.

قاطعه محمد قائلا :

- تسميه هراء يا مولود ؟ لا حاجة لي في البقاء هنا إذن.

التفت إليه مصطفى الذي كسر صمته وقال :

- لم نقطع هذه المسافة لنتفرق ثانية، بل ليلتئم شملنا من جديد، كنت مسرورا أننا سنجتمع تحت سقف واحد...ولو للحظات.

كان مصطفى مشغولا بتجارته الناجحة، ولا يهتم بالسياسة ولا ما يمت إليها بصلة، يلتحق صباحا بمتاجره المتعددة، ولا يتركها إلا عندما يجن الليل، وقد بدأ يتعامل مع التجار الآخرين الذين يأتون بسلعهم من شتى أنحاء المملكة، ولا يجد غضاضة في أن تنتعش الدورة الاقتصادية في مسارها الطبيعي، بعد أن كانت محكومة بمصالح المستعمر الذي ينهب جيوب الصحراويين، بل إنه يشعر بالفرق الكبير وهو يحصل على كل السلع والحاجيات الضرورية والكمالية بوفرة ، ولا يفهم ما الذي يدور تحديدا بين أخويه اللذين ينظران إلى الأمور من زاوية أخرى، كان يرقب حوارهما ويسمع الحديث عن الصفقة دون أن يدرك مغزاها، وقف فورا وربت على كتف محمد وقال :

- لا أظن أننا سنذهب في هذا الليل يا محمد، لقد رأينا معا ما الذي يحصل قريبا من هنا، إنهم يقتلون ويفعلون ما كان يفعله المستعمر بالأمس... لا أدري من هؤلاء القتلة ولا من وراءهم...رجاء يا محمد...حرصا على حياتنا، سنبيت الليلة هنا.

استغل محمد سذاجة مصطفى وقال وهو ينظر إلى مولود :

- إنهم قطاع الطريق على الأخوة والوحدة، الذين يستغلون الفوضى المزروعة بسبب ثلة من الشاردين عن الحقيقة.

قال مصطفى متذمرا :

- الحقيقة... الحقيقة...الحقيقة...

لم يتم كلامه حتى وقفت سيارة عسكرية صغيرة وعليها أربعة من الرجال بلباس عسكري، يتقلدون مسدسات فوق أحزمتهم، ويحملون ملفات بأيديهم، كان مولود قد ضغط على زر النور الذي توهج، وقام مسرعا نحوهم وهو يؤدي التحية العسكرية، دخلوا مسرعين وقال واحد منهم وهو يهم بالجلوس :

- تأخرنا عن الموعد، نعتذر... فقد كان علينا أن نسوق السيارة دون إشعال الأضواء حتى لا ينكشف أمرنا.

ضحك آخر وقال بإسبانية مكسرة :

- كدنا نجد أنفسنا لدى العدو...لقد كان على مسافة قريبة منا.

كان محمد ينظر إليهم وهم يتبادلون أطراف الحديث، وأثارته كلمة العدو التي نطق بها مسلح أجنبي عن المنطقة برمتها، كأنه واحد من زعماء الهنود الحمر الذين كان يؤدي أدوارهم في مسرحيات الطفولة بمدرسة روزا، فيضع ريشا ملونا على رأسه ليفاوض المستكشف الاسباني المتحضر، فقد كان يحمل ملامح بارزة لسكان أمريكا اللاتينية، فازداد غضبه وقرر مغادرة المكان فورا، إلا أن واحدا منهم وضع يده على كتفه وقال :

- إلى أين ؟ أ... مرحبا بك... سمعنا عنك كثيرا، أتغادرنا بهذه السرعة ؟ أظن أننا سنحتاجك...و...ستحتاجنا انت أيضا...أليس كذلك ؟

استدرك مولود وقال :

- لو تكرمت يا سيدي، فسأتكفل أنا بعرض احتياجاته، يهمنا أيضا أن يتعرف علينا أولا.

- حسنا...أنت من سيفعل ذلك إذن.

اقترب مولود الذي أشعل سيجارة عادية، وصار يرشفها بلهفة وقال :

- محمد يا أخي العزيز، هذا الكولونيل محمد، صحراوي مثلنا...حصل على شهادة الباكالوريا من مراكش، وأتم دراسته العسكرية في كوبا، وهذا المحجوب من الجزائر، رجل فاضل وله أخلاق كريمة، وهذا عمر من مالي ولكنه ترعرع في فرنسا، لديه خبرة كبيرة في المجال العسكري والسياسي، وهذا ريكاردو، تاجر مجوهرات، وممثل شركة لصنع السلاح.

كان مولود يتحدث بالاسبانية وهو يبتسم تارة، وينحني تارة أخرى، فقال له محمد بلغته الحسانية :

- مولود يا عزيزي، أرى أنك أقبلت على شأن خطير.

قال مولود وهو يتصنع الضحك :

- خطير...ههه...أظن أنك تمزح.

كانت بعض المناوشات قد بدأت ترسل أصوات الرصاص من بعيد إلى الخيمة، فقام ريكاردو وخفف من وهج الضوء إلى أقصاه وقال :

- ترجم لنا بسرعة يا مولود ما يقوله أخوك هذا، لقد قلت أنه يتقن الاسبانية، فلم لا يتحدث بها ونربح الوقت، لا وقت لدينا لنضيعه.

أظهر مولود غضبا شديدا في وجه أخيه محمد، كان يحب أن يظهر لمرافقيه أنه ملتزم بالأوامر وقال :

- أخشى أن تخذلني يا محمد...لقد أقنعتهم بصعوبة بملاقاتك، أنت لم تتعرف على هؤلاء الرفاق لتدرك أن عليك إبداء التفهم والتعاون في آن واحد.

قال محمد واثقا :

- بلى...تعرفت عليهم...هؤلاء أولياء نعمتك الذين تلهج بذكرهم، لقد غدوت ما بين عشية وضحاها غنيا تضع الساعات الذهبية، وتنعم بنسيم المكيف المنقول لأجل راحتك داخل الخيام، لا حاجة لك في الصحراويين الذين يبحثون عن الحرية والأمن والكرامة.

وفجأة، خلع محمد الساعة ووضعها بقوة على الطاولة وقال بصوت مرتفع:

- خذ هديتك وقدمها لمن يرى نفسه وضيعا تحت أقدامك...ظننت أنك اشتقت لملاقاتي...لا لمساومتي أيها الخائن.

ارتبك مولود وقال لرفاقه :

- أظن أننا سنذهب الآن ونتركه هنا متشردا، لقد خاب ظني و... أ... أ.... أستسمحكم... اعلم أنني أضعت من وقتكم الكثير...

نظر إليه ريكاردو وقال :

- لا...لا...لايليق...لا يليق أن نتركه هنا مشردا... الأرض من حولنا مزروعة بالألغام... و... وقد ينفجر تحت قدمه واحد منها...

رفع محمد يده وضرب على الطاولة الحديدية بقوة وقال :

- هذه الألغام لم تصنع هنا...إنها ثمار أشجار الشر التي تجني المال من ورائها، لا يهمكم قطع الأيدي والأرجل، بقدر ما يهمكم قطع أوتار القلب وجعل بلادنا كأنها قطعة شطرنج تلعبون بها... لا يوجد في وطني مصنع واحد يصدر هذا الشر... أسمعتم... ليس لدينا مكان لصناعة هذه الشرور... وليس بيننا من يرعاها خلسة في الظلام.

قال مولود وقد اشتد غضبه وكاد يقضم سيجارته :

- أتدري من تخاطب أيها الحقير ؟ أنت تخاطب السيد ريكاردو، يجب أن تختار ألفاظك بعناية.

قام مصطفى من مكانه مسرعا نحو مولود وهو يترجاه أن يدعهما ينصرفان، إلا أن ريكاردو أمره بالجلوس وقال :

- هذا الرأس العنيد...يهمني أن أعلم حكايته.

استدار شمالا وقال لمولود :

- لم لم تقدم الشاي احتفاء بأخيك الثائر ؟ من الأدب أن نكرم وفادته... التفت نحو محمد وهو يضبط أعصابه وقال ساخرا :

- أليس كذلك أيها الثائر ؟

نظر إليه محمد وهو يقرأ مكرا شديدا في عينيه دون أن يقول شيئا، وفي قرارة نفسه أن لا يشرب شايا حتى لا يتجرع سما من أيدي من صاروا يعتبرون إخوانهم أعداء إرضاء لريكاردو.

كان الليل قد انتصف، وما زال أزيز الرصاص المتقطع يسمع غير بعيد من الخيمة التي ستؤوي الضباط بعد إفراغ ذخيرتهم، بينما يأوى الجنود الصغار إلى ما يشبه الأكواخ تحت قساوة البرد ليلا، وحرارة الشمس نهارا، فالمكيف يحتاج إلى بطاريات ضخمة لتشغيله، وإلى أموال لا بد من التوقيع على ميزانياتها قبل الحصول عليها بتقرير مضبوط.

أحضر مولود الشاي وهو يرسل نظرات التهديد والوعيد إلى أخيه محمد، بينما ظل مصطفى ينظر إليهما مشفقا، وبعد لحظات جاءت الأوامر من أعلى لريكاردو بمغادرة المكان فورا، لأن هناك حوامة للأعداء تمشط المنطقة، قام مذعورا ولم يلتفت إلى مولود الذي تأخر في وداع مصطفى، والذي أمسك بقميصه وأصر على إقناعه بالاعتذار لمحمد واصطحابهما معه، كانت السيارة العسكرية قد انطلقت بسرعة جنونية بعد إبلاغها أن الحوامة تقترب أكثر من المعتاد، التحق به مولود جريا فمد بصره دون أن يعثر له على أثر، هرع نحو الضوء الخافت وأوقف شحنه بشكل نهائي، فذابت صورة الخيمة المتآمرة وسط بحر من الظلام.

كان محمد ينطق الشهادتين وهو يتوقع أن تصيبه قذيفة أو طلقة رصاص من الجو، أما مولود فقد تسمر في مكانه وظل يرتعش، بينما قبع بينهما مصطفى وهو يذكرهما بأن يخبروا الجنود في حال الأسر بأنهم إنما اجتمعوا لأجل صلة الرحم.

ظلت الحوامة تتطوف لحظات ثم اختفت وسط الظلام، وتبين أنها حوامة مستطلعة فقط، وأن جنودها لا يصبون حمما من السماء بقدر ما يضبطون الأمر وينشرون الأمن في المنطقة، فأبناء الوطن الأصلاء لا يقتلون إخوانهم الذين فرقت بينهم الأهوال والمؤامرات لسنوات عديدة.

تنفس الإخوة الثلاثة الصعداء، ووجدوا أنفسهم وجها لوجه في لحظات حرجة ودقيقة، ليس معهم أجنبي يحرضهم على قتال بعضهم، ولا معهم سلاح يسلم إليهم ويؤمروا بصبه على صدور بعضهم البعض، كان مسدس مولود هو السلاح الوحيد الذي بحوزتهم، بينما تسلح محمد بسلاح الصبر والعزيمة، وقرر أن لا ينام تلك الليلة المشهودة، يتأمل الأقدار الالهية التي شاءت أن يصفو لقاؤهم وتتجدد أخوتهم في تلك الظروف العجيبة، فقرر أن يضفي على ذلك المجمع لمسة عاطفية أخوية، حتى يتبدد الخوف والتوجس والضغينة، فقام يذكر إخوته بطفولتهم وما مضى أمامهم من الأهوال والمتاعب بعد غياب والدهم، واختفاء أمهم، ومقتل روزا أمهم الثانية... كما أنه قرر أن يحدثهم عن المؤامرة التي حاكها الاستعمار في العالم ضد الأوطان المستضعفة، فقال وهو يمزج حديثه ببعض اللمسات العاطفية :

- تعلم يا أخي مولود أن أوربا الجامحة نظرت إلى إمكانياتها الفقيرة، فقررت أن تنقض على العالم وتفتته من حولها، خطوة خطوة...من الاستعمار إلى التجزئة... أطلت على الخارج من حولها، فاكتشفت أنه غزير الامكانيات وغني بالمعادن والخيرات، فحولت أزماتها إلينا لتصير ذاتنا جزءا من ذاتها...

قاطعه مولود بتصفيقات ساخرة وقال :

- يا لك من أستاذ بارع تسيطر على عقله نظرية المؤامرة.

قال محمد :

- لقد جاءوا بجيوشهم لاستئصالنا... هل تستطيع أن تنكر أن أحفاد الثورة الصناعية قسموا بلادنا من شرقها إلى غربها لأجل إضعافنا ومحو حضارتنا ؟ مولود يا أخي... أتستطيع إنكار ذلك ؟ أهناك مؤامرة أكبر من هذه ؟

قال مولود ساخرا :

- يا إلهي...ألا تكف عن النبش في التاريخ، نحن الآن نتوق إلى الحرية...إلى الحرية...

قال محمد :

- يا للسخرية... الحرية... أن لا نتنسم الحرية هوالذي جعل الاسبان يقطعون البحر المتوسط والأطلسي طيلة أربعة قرون للوصول إلى شعوب تستهلك ولاتنتج، فترحل بريطانيا وتستولي على جبل طارق وترسي بطنجة جيوشها، وتطل فرنسا ذات النفس الطويل على وسط البلاد وجنوبه، ويتآمروا مع إيطاليا وألمانيا وغيرهما لتنفيذ خطة واحدة هي تقسيم القارة بأسرها...وتقسيم القطر الواحد إلى أجزاء... التقسيم والإضعاف والاستضعاف، ولا شئ غير ذلك يا مولود.

قال مولود :

- الاستعمار لم يفعل سوى الإشراف على تجزئة حتمية كانت تأخذ مجراها بشكل طبيعي ؟

- هذا غير صحيح، كانت وجوه السلاطين تتغير، ووحدة الشعوب ثابتة على الأرض... كل مراسلات السلاطين إلى ولاتهم في الشمال والجنوب تثبت أننا من قديم أمة واحدة... ولكن... ولكن المؤامرات على وحدتنا كانت متلاحقة، لقد دفنت في رمال الصحراء القنابل بأنواعها... أ... أ...اعذرني يا مولود إذا أخبرتك أنك واحدة منها، ومع ذلك... فإن وطنك لا يحاكمك، و إنما يفتح لك ذراعيه ليحضنك، ويناديك لتعود إليه.

قاطعه مولود قائلا :

- الأبطال يصنعون الثورات، والانخراط في الثورات يقتضي أن تتجرد مما يخدر عقلك... وأنت غارق في المتاهات... الأبطال يصنعون الثورات يا محمد.

- الأبطال ؟ ماذا تعرف عن الشيخ ماء العينين ؟ والشيخ أحمد الهيبة ؟ والشيخ مربيه ربه ؟ وغيرهم كثير من المتجدرين في تاريخ هذه الصحراء... والذين أحاول أن أكون على أثرهم...هؤلاء هم الأبطال الحقيقيون الذين حرروا الأرض من المستعمر وأزلامه.

قال مولود :

- تقطف ثوراتهم ؟ ههه... تجارة رابحة...

- أفخر بذلك، لأنني أفعله لأجدد عهد الأجيال بها، لا لأسترزق الأعداء.

- يا لك من مناور عنيد يا محمد.

- مولود يا عزيزي، لقد تخلى الاستعمار الفرنسي بعد خروجه مدحورا عن القواد والعملاء والمرتزقة الذين ساندوه سنينا، لا وزن لمن يبيع وطنه لدى الأعداء والأصدقاء على السواء.

تجاهل مولود ما قاله محمد، ورفع رأسه برهة نحو السماء وقال :

- كأنني أسمع أزيز الحوامة من جديد، لعلها تقترب... أنا لست خائفا، فالرفاق سيلحقون بي حتما.

كان الخوف يهجم على مولود من حين لآخر، إذ دأب على الحديث عن حرب الأعداء إعلاميا، وعن مساندتها معنويا، ولم يسبق له أن واجه الحرب التي يعلنها مباشرة ودون حجاب، فالحوامة التي تطوف بالمكان كادت أن تخلع قلبه وتفتك بروحه، إلا أنه يحاول أن يستمر في النقاش مع أخيه حتى يتبدد ذلك الشعور الرهيب من حوله.

قام محمد من مكانه، وانحنى تحت الخيمة يرقب السماء المظلمة، كانت النجوم تسبح متلألئة دون أن يفسح الفضاء الصامت فرجة لبروز أي حوامة عسكرية ، فقفل راجعا إلى مكانه وهو يدير سبحته محركا شفتيه وقال :

- - لعل هذه الأرض ما زالت حبلى ببقايا المستعمر، ما زلت أسمع أنينها كما لو أنه لم يخرج.

نظر إليه مولود وهو يتعجب من إصراره على تلك الأفكار الرجعية التي لا تفارقه وقال :

- عقلك يغلي يا محمد، لكم أشفق عليك.

راح محمد يسرد عليه تاريخ المنطقة منذ قرون خلت، راجيا أن يقنعه بخيبة اختياره، وكيف كانت سيادة المغرب منذ أمد بعيد على كل تلك الصحاري الشاسعة، ويحدثه عن لقاء الشيخ ماء العينين في سنة 1906 ومعه وفود الصحراء وموريتانيا بالسلطان المغربي مولاي عبد العزيز بن الحسن الأول من أجل دعمهم في مقاومة المستعمر الأوروبي. ، ويحدثه أيضا عن الفترة التي أرسل فيها المغرب مولاي إدريس ابن عم السلطان مع وفود القبائل الصحراوية والموريتانية من أجل قتال الفرنسيين بموريتانيا...

راح مولود ينصت إلى أخيه مستغربا إلمامه الواسع بالتاريخ، وتتبعه الدقيق للأحداث القديمة والحديثة، فتيقن أنه أمام محمد آخر غير الذي كان يعلم، وأن إقناعه بأطروحته الانفصالية صار بعيد المنال، فقال مظهرا عدم اهتمام :

- يبدو أنك قرأت الكثير من الكتب، ووجدت الوقت الكافي لذلك أيضا.

فرح محمد بجوابه وظن أنه بدأ يقترب من الفهم والإدراك كأي إنسان عاقل فقال :

- اجل يا مولود، لدي ما يغنيك من الكتب والمخطوطات التي تحفظ وقائع التاريخ وتوثقه، لو زرت مكتبتي لأريتك العديد من نسخ المراسلات بين الولاة والسلاطين ... أ... العديد من الأدلة على وحدتنا منذ قرون خلت، وستكتشف حينها أنك تنفخ في الرماد.

أخذ مولود يغطي وجهه بكلتا يديه، ويظهر ضجرا كبيرا، ويتنهد كل حين، ما جعل محمدا يتأكد أن أخاه قد حدث له غسيل دماغ حقيقي، وأن المنصب والمال اللذين حصل عليهما يحكمان قناعاته، فقرر التوقف عن الكلام.

ساد المكان صمت مطبق، فأشعل مولود سيجارة خنقت رائحتها محمدا الذي خرج إلى العراء ينتظر المجهول، اقترب منه مصطفى الذي ظل يرقب نقطة السيجارة الحمراء وسط الظلام ليحدد مكان مولود وقال :

- أشعر بالخوف الشديد يا محمد... ليتنا لم نأت إلى هنا.

- سننتظر، ونرجو أن لا يطول انتظارنا هنا.

- لحق بهما مولود وقال :

- متى تعلمت اللغة العربية الفصحى وصرت تغوص في كتبها يا محمد؟ نحن نشأنا في المدرسة الاسبانية منذ صغرنا...لقد أدهشتني.

- أنت ايضا أدهشتني يا مولود، كنت أشعر في بداية هذه الليلة أنك سترمي برصاصة في قلبي إرضاء لسيدك ريكاردو، وعندما غاب هدأت، ألا ترى أننا بحاجة إلى التواصل والتفاهم حول مصيرنا دون إملاءات من الأجانب ؟

- ما الذي تقصده ؟

- إذا غاب المغرضون، اشتغل العقلاء.

قال مصطفى متوترا :

- نحن في هذه الظروف العصيبة، وفي هذا المكان الخطير الذي استدرجنا إليه مولود... آه... لست أدري... أنتما... أنتما تتحاوران كأنكما في فندق من فنادق الخمسة نجوم، يمكن لأي رصاصة أو قذيفة أن تفجرنا الآن تحت هذه الخيمة المظلمة...أمركما يدعو للاستغراب... فأنا أشعر بالخوف.

قال محمد بلهجة الواثق :

- أخونا مولود استدرجنا إلى هنا لكي يساوم، فزهد فيه ريكاردو ومجموعته... حسنا... كان جيدا أن نبقى هنا لوحدنا، ولا داعي للخوف، فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا مصطفى...

قال مصطفى بلهجة مضطربة :

- القلق يسيطر علي الآن.

قال محمد مستدركا :

- نحن إخوة يا مولود، وإذا مكنا للأجنبي أن يفسد بيننا فسيقتل بعضنا بعضا، وحتما... سيجلس... سيجلس للفرجة وهو يكدس من حولنا سلاحه الذي يبيعه مرتين... لقد هدأت بعد انصراف ذاك اللعين، صدقني أني أحب تقديم الشكر لتلك الحوامة المسالمة...

قال مصطفى :

- أتوقع عودتها في أي لحظة، وربما كشفتنا في هذا الظلام... أشعر بالخوف الشديد، ولو علمت أننا سننتهي هنا لما استجبت...

قال مولود متأففا :

- أنا لدي مصالح عديدة مع ريكاردو، لقد غدوت رجل أعمال ذائع الصيت... ويبدو أن لكل واحد منا اختياراته الخاصة في هذه الحياة.

نظر إليه محمد وهو يعلم أن خيانة الوطن لها صور ومنافذ عديدة، وأنه ما دام متحالفا مع ريكاردو، فسيظل مستعدا لفعل أي شئ لإدامة الحروب والاقتتال والتمكين للدخلاء والغرباء متى سنحت الفرصة فقال :

- اسمع يا مولود، ستصدق فطرتك بكل الشجاعة التي تملك، وستعود إلى وطنك، وستجده غفورا رحيما، وستعلم طال الأمد أم قصر أنك كنت جزءا من مؤامرة تستهدف تمزيق الأوصال شر ممزق، تحركها أيدي خفية لا تريد لنا أن نرتقي، كل الأرواح التي تزهق بسبب تعنتك يا مولود... هي في ذمتك يوم القيامة... هل أنت مستعد للاجابة في ذلك اليوم العادل ؟

- أوه يا محمد... لقد صرت واعظا تتحدث كأنك الآن على منبرك، أنت هنا في خيمتنا... وتحت رحمتنا...ولدي سلاح يمكنه في أي لحظة أن يكتم أنفاسك.

ابتسم محمد وهو يتمدد على الأرض المفروشة بقطعة اسفنج رص فوق بساط بلاستيكي سميك، ويمم وجهه باتجاه سقف الخيمة، وصار ينظر إلى السماء من خلال ثقوب يهبط منها ضوء القمر كأنها نجوم في أعالي السماء.

صمتوا جميعا لحظة وفي ذهن كل واحد منهم من الصور والمشاعر ما لا يعلمه إلا الله.

وفجأة قام محمد وهو يسوي عمامته الصحراوية فوق رأسه، وينظر إلى الوسام اللامع في الظلام، والذي يعلقه مولود على بدلته العسكرية وقال :

- هل سنظل هنا في هذه الخيمة ننتظر يا مولود ؟ لابد أن نخرج سويا ونعانق الحرية... هذه الخيمة العميلة ليست هي مكاننا، فنحن إخوة تجمعنا أم واحدة، وأرض واحدة، ومصير واحد.

- أجل... سنخرج بالتأكيد... ولكن... حين يعود ريكاردو، وسنستأنف مشاوراتنا.

- هذا هو الفرق الذي بيني وبينك يا مولود، ففي الحين الذي أمسكت حريتي بيدي وصرت سيد نفسي، ما زلت تنتظر أن يؤشر ريكاردو الغادر على حريتك، تشجع وأمسك بيدي، وخذ المبادرة وعد إلى أهلك ووطنك، وستذوق طعم الحرية الحقيقي... أ... أ... إذا شئت، سنتوكل على الله وننسل نحو ديارنا.

قال مولود والضجر يخنقه :

- هذا يكفي الآن يا محمد، انتقاداتك لاختياراتي الشخصية تزعجني.

- لأنني أحبك، وأحب أن نظل إخوة كما كنا من قبل، أنا مستعد للتضحية من أجلك... أنا الآن أخاطب ضميرك الحي.

قال مولود ساخرا :

- أشكرك... أشكرك...

- اسمع يا مولود... لم يكلف ريكاردو نفسه عناء العودة لتفقدك عندما اقتربت الحوامة، أنت بالنسبة له مجرد رقم...مجرد رقم يا مولود... ينقله إلى عملياته الحسابية المدروسة.

كسر مصطفى صمته وقال :

- يا إلهي... ماذا لوتم قصف هذه الخيمة الآن ؟ لقد نجا بجلده فور توصله بالإشعار من جهات تدعمه.

ضحك محمد وقال :

- لو قصفت هذه الخيمة، فسيجد مولود أبناءنا الأبرياء يمسكون بتلابيبه يوم الحساب، ويسألونه حقوقهم التي حرمهم إياها بالمساهمة في إشعال الحرب الطاحنة بين المسلمين، لا يحل لمسلم أن يقتل أخاه المسلم...

صرخ مولود في الظلام مزمجرا :

- كفى من هذا الكلام الذي دوختم به الشعوب...كفى...كفى...لقد جرعتني من «الأفيون» ما يكفي يا محمد... أتمنى أن تعقل يوما.

صمت محمد وسكن الحوار ثانية في ذلك الظلام الدامس، لم يغمض لهم جفن وباتوا يفكرون في ما سيقبلون عليه صباحا.

قام محمد لأداء الصلاة خارج الخيمة قبل شروق الشمس، كان يتلو مطلع سورة الأحزاب في الركعة الأولى، وسورة الطارق في الركعة الثانية، وكان مولود يطل عليه من تحت الخيمة الواسعة دون أن يخفي تضايقه منه، وكان في نفس الوقت يتعجب من إتقانة للغة العربية وحفظه للقرآن، شعر أنه تغير كثيرا، وأنه يتمتع بشخصية قوية فرضت عليه احترامه وتقديره أثناء حوارهما الساخن، أدرك أن التقارير التي كان يتوصل بها عن تحركاته ونشاطاته في القبيلة كانت صادقة.

اقتربت أشعة الشمس ولامست أطراف الخيمة، وكشفت عن وجوههم في قدومها الجديد، وصار مولود ينظر إلى محمد وهو يرتب قبعته العسكرية فوق رأسه، ثم قام نحوه وحياه وقال :

- حدثتني يا محمد بالأمس عما تسميه مؤامرات التقسيم، فسألتك سؤالا ولم تجبني عنه...

نظر إليه محمد وقال :

- سألتني سؤالا ؟

- أجل... سألتك هل ستقيم في تلك القبيلة إلى الأبد ؟

قال محمد بصوت حان :

- أجل...تلك القبيلة هي أمي الحاضنة، ولا أحب أن أهجرها أو أبيعها أو أكون عاقا لأكسب رضا غيرها...

نظر إليه مولود متأففا، وعلم من خلال كلامه أنه يرفض الالتحاق بجماعة الانفصاليين، فصمت قليلا، إلا أن محمدا أردف :

- لو سمحت لي يا مولود، أنا الآن اسألك...هل سنقيم طويلا في هذه الخيمة؟

نظر إليه مولود بامتعاض فقال محمد :

- لم أكن أتخيل أنك ستضرب لي موعدا في خيمة ريكاردو... يا للخسارة... لوالتقينا في خيمة نصبناها بأيدينا... أ... لنجح حوارنا نجاحا باهرا.

قال مولود :

- ريكاردو... ريكاردو.... ريكاردو مجرد صديق متعاون، هذه الخيمة لنا نحن...نحن، وليست لأحد غيرنا.

- حسنا... ما دمت أنت من يملكها، فدعنا ننصرف الآن، فبناء الكثير من الخيام ما زال بانتظارنا.

قال مصطفى متلهفا :

- أجل...أجل... لابد أن ننصرف من هنا، ولكن...السيارة...ريكاردو... هل سيعود يا مولود ؟

قال مولود مظهرا ثباتا مصطنعا :

- بكل تأكيد سيعود ريكاردو ، الاحتياطات الأمنية دعت أن يتأخر.

قال محمد :

- ولكنه فر بجلده وتركك تحت رحمة الحوامة.

تجاهل مولود ما ظل يقوله محمد بإصرار، وبداخله نقمة كبيرة على ريكاردو الذي أدار مقود السيارة العسكرية دون أن يحمله معه في أحرج اللحظات.

ساد صمت كبير المكان، وظل مولود ينظر إلى ساعته وهو يدخن بشراهة سيجارته الكوبية، يقوم من حين لآخر، ويصوب المنظار باتجاه طريق غير معبدة نحو الحدود مع الجزائر الشقيقة، ثم يعود تارة أخرى ويجلس في الطرف الذي يقابل المكيف، كان هدير جهاز ثلاجة صغيرة تعمل بالبطارية يحدث صوتا خفيفا من حين لآخر، فيفزع مصطفى ويتذكر أزيز الرصاص المتقطع الذي اخترق سمعه في الليل، فيزداد فزعه ويتسمر في مكانه نادما على قبول دعوة مولود تحت تلك الخيمة الغامضة.

كان محمد قد أخرج سبحة خشبية من جيبه، وصار يداعبها بأنامله ذاكرا، يتنهد كل حين حسرة على مولود الذي خسر الوطن، وخسر مستقبله، فظل طريدا ما بين تلك الخيام التي تحمل لون الرمال، وما بين دور الغربة التي تغدق عليه الأموال، أراد ان يكسر الصمت والانتظار فقال :

- مولود يا عزيزي، هل تذكر عندما ناولتنا السيدة روزا فطيرة الصباح، ثم حرمتك في اليوم التالي لأنك لم تتلفظ بالشكر للرب قبل التهامها ؟

نظر إليه مولود بامتعاض دون ان يجيبه، فقال :

- اذكر أنني قاسمتك فطيرتي خلسة، وشكرتني ولم تشكر الرب.

قال مولود :

- تلك المرأة كانت تخدرنا بذلك الدين المقرف، أظن أنه لا داعي لذكر هذا الآن.

قال محمد مبتسما :

- ظللنا نتناول فطائر الصباح إلى اليوم الذي تركت فيه قضيتها، وراحت تتقفى خطى الكولونيل الجديد، فاختفى رمز وجودها وانمحت جثتها إلى الأبد... أذكر أنها كانت تلتفت إلى الوراء كثيرا، وتحب أن تتلقى مزيدا من الدعم بعد كل خطوة تخطوها في مسارها... كانت تتعجب من كون الصحراء الشاسعة العريضة ليس بها كيان نصراني واحد، وأرادت أن تحمل شرف ذلك.

قال مصطفى :

- تلتفت لتقيم مسارها، وأظن أن هذا هو ما نحتاجه نحن الآن .

قال مولود وهو يختبر جهازه اللاسلكي :

- الذي لا يلتفت إلى ما حوله، لا يستحق البقاء، النضال هو ان تلتفت دائما وتشذب الذين يمنعونك من ذلك.

- مولود يا عزيزي، هل تعرف لماذا الغزال أسرع من الأسد ومع ذلك يمسك بها ؟ لأنها تلتفت من غير حاجة، في الوقت الذي يمضي هو مباشرة نحو هدفه.

قال مصطفى بنبرة ساخرة :

- ما زلت أعجب من هذا الحوار، أشك أننا في خيمة تحيط بها الأخطار، تتحادثان كما لو كنا في مكان آمن.

ضحك مولود وقال :

- لا تخف يا مصطفى، أنت في ضيافتنا.

- أرى أنني غزال، وريكاردو هو الأسد، ما الذي أتى بي إلى هنا ؟

قال محمد :

- نحن في بلادنا يا مصطفى، ما الذي أتى به هو ؟

قال مولود :

- وما الذي أتى به في نظرك ؟

نظر إليه محمد وقال :

- كأني أسمع صوت محرك السيارة.

قام مولود مسرعا من مكانه وقال ::

- لعله ريكاردو... أنا أيضا أسمع صوتا يشبه صوت محرك السيارة.

قال مصطفى :

- أخشى أن تعتقلنا الجيوش المغربية ونحن في هذه الخيمة الغامضة، سيظنون أننا مع الانفصاليين... يا إلهي...هذه الشتيمة هي آخر ما كنت أتخيله.

عم المكان سكون تام، وظل صوت السيارة يقترب إلى أن تبين أنها السيارة العسكرية التي اخترق بها ريكاردو الصحراء ليلا.

قال مولود وهو يتأهب لاستقبال الرفاق الهاربين :

- محمد، سأخبرهم أنني معجب جدا بفصاحتك وقدرتك على التأثير، ولكن... انتظر قليلا... لقد توقف ريكاردو هناك، يبدو أن لديه مكالمة باللاسلكي مع أحد الأطراف العسكرية، حسنا، سننتظر قدومه.

قال مصطفى جزعا :

- يا إلهي... ما زلنا سننتظر ؟

قال مولود مظهرا رباطة جأش كبيرة :

- لم تخبرني كيف صرت خطيبا، وتعاملت مع المعطيات التاريخية وأنت الذي لم تذهب إلى الجامعة قط... اعذرني...لا بد أن أضيف هذه المعلومة إلى تقريري.

قال محمد واثقا :

- مولود يا عزيزي...شيوخنا لا يملكون الشركات المترامية هنا وهناك...إنهم يملكون المكتبات والكتب...هذه هي ثروتهم.

قال مصطفى مرتبكا :

- مولود... أ... أ... يا أخي العزيز، لا بد أن نرحل من هنا فورا، لا أحب البقاء في هذا المكان الخطير، حاول أن تقنع ريكاردو برحيلنا الآن، وأعدك أنني سآتي متى طلبت مني ذلك.

ضحك مولود وقال :

- ما رأيك في محمد يا مصطفى، لقد غدا عالما وخطيبا مفوها، نحتاج أن نجلس معه مطولا :

- أجل... أجل... بإمكانه البقاء معك إذا شاء، فهو لديه الكثير مما يمكن أن يفيدكم به، أما أنا... أما أنا... أحب أن أغادر فورا.

- كأنه تخرج من جامعة عريقة يا مصطفى.

قال مصطفى وهو يرجف :

- أ...أ... أجل... في الصحراء...الزاوية هي الجامع والجامعة...لقد وجدته نائما ذات يوم على الرمل وهو يعانق مخطوطا قديما بين يديه اللتين اصطبغتا بمداده كأنه حناء عروس...

قال محمد ضاحكا :

- إنه مخطوط نفيس لشيخي و أستاذي رحمه الله، أحب ان أطالعه وأنطقه وسط صمت الصحراء... يوثق فيه الكثير من الحقائق الدامغة، ويثبت فيه أن هذه الصحراء تحمل في طياتها منابع التاريخ لهذا البلد، فقد كان الموحدون ينحدرون منها من قبائل صنهاجة تحديدا، وكذلك السعديون من أصول صحراوية، وهم الذين حكموا البلاد في القرن السادس عشر ووسعوا حكمهم إلى حدود نهر السنغال، وكذلك العلويون الذين يحكمون الآن، وينحدرون من الصحراء، وتحديدا من تافلالت... أنت يا مولود لست ضد ما جاء به ديننا الحنيف من الحث على الوحدة والقوة والتلاحم، بل ضد التاريخ أيضا.

قال مولود غاضبا :

- لقد تعودت يا محمد على حشر البسطاء تحت منبرك، وتخديرهم بأفكارك، فصرت تتخيل أنك ما زلت منتصبا فوقه وصرت تخاطبني بهذه الطريقة، شيخك هذا لا يعدو ان يكون واحدا من أولئك السذج الذين يدعون الحكمة والتبصر.

- كلا يا محمد... لقد عوضني حنان الأب و لا أحب أن تذكره بشر، فقد كان يوصيني دائما بقوله : كن كالنخلة، لا تمت إلا واقفا... النخلة هي الشجرة التي لا تسقط أوراقها أبدا... النخلة هي الشجرة التي تستفيد من المتناقضات بحكمة، فتغطس جذوعها في الجنة ورأسها في الجحيم...أ... كنية على حب سيقانها لمياه الواحات وثمارها لقيظ الشمس...لقد غير حياتي تماما بحكمته وأخلاقه... رحمه الله، أما هؤلاء البسطاء الذين تتحدث عنهم، فقد رأيت بينهم من يخفي عرجته ليلحق بالمجاهدين ضد المستعمر، متحديا إعاقته وطالبا تقديم ما في وسعه، أتحداك أن تدلني...

- اخرس... اخرس يا محمد... هذا يكفي الآن.

كان الثلاثة منهمكون في حوار خاطف، إلى أن عاد الكمندوز في السيارة العسكرية الهاربة، وقدم الاعتذار لمولود الذي هش فرحا بقدومه، كان محمد ينظر إليه وهو يشعر بالاشمئزاز.



كان سالم قد زحف نحو قبيلته التي تعرفت عليه، بعد يومين على سفر ابنه محمد، وجد أن الكثيرين من أقربائه ومعارفه قد توفوا، أقام حفلا كبيرا بمناسبة قدومه،وتمنى لو أنه رأى زينب زوجته التي ساوره شك أنها على قيد الحياة، كانت رقية الأمازيغية قد لقيت حفاوة كبيرة من لدن الصحراويين الكرماء، ولم تشعر بالغربة كما كانت تتوقع، تعرفت على زوجة أحد الصحراويين التي تنتمي إلى عائلة مقاوم كبير قضى في حروب أيت باعمران الطاحنة، وانخرطت في تقاليد الصحراء بيسر وسلاسة كبيرين.

كان سالم يتمنى أن يذهب إلى إقامة الاسبان حيث كان الكولونيل مانويل يستعبده، فلم تسعفه ظروفه الصحية إلى أن اجتمع يوما بأحد معارفه القدامى، فتشجع و طلب من ابن صديقه أن يصحبهما، وما إن وصل ورأى العلم المغربي يرفرف على تلك البنايات التي مازالت تحمل الكثير من الملامح القديمة، حتى هطل دمع غزير من عينيه وقال لرفيقه :

- انظر هناك...على تلك الشرفة كان الكولونيل مانويل يدخن غليونه، كان يتيه فرحا عندما يحين الغروب، فيمكث أمامه طويلا، ثم ينزل لينظف سلاحه،ويخرج لمطاردة المقاومين كأنه خرج إلى عملية صيد.

هطلت دمعات أخرى ساخنة على خديه وبللت لحيته البيضاء وقال :

- الحمد لله الذي أحياني فرأيت وطني ينعم بالحرية والكرامة.

التفت فإذا بعض الأطفال يلعبون فناداهم قائلا :

- مرحبا يا أبنائي...أنتم تسكنون في هذه الدور ؟

قال طفل صغير يحمل بندقية بلاستيكية :

- نحن هنا نحتفل بانتصارنا.

قال له سالم :

- وما الذي تفعلونه بهذه الأسلحة البلاستيكية.

ضحكوا جميعا وقالوا :

- نحارب أعداء وحدتنا الترابية...

تشجع واحد منهم لما رأى إعجاب سالم بهم وقال :

- والدي كولونيل يحارب هناك عند الحدود...وأنا هنا أحارب الانفصاليين.

- الانفصاليين ؟ هل هم هنا يا بني ؟

ردوا جميعا :

- كلا...كلا...لو كانوا هنا لحاربناهم فورا بهذا الرشاش... نحن نمثل فقط فصول حربهم.

نظر إليهم سالم وقال :

- أنتم لا تدرون الكثير مما عشناه نحن في تلك الدور، لقد نعمتم الآن بالأمن والاستقرار، وأتمنى أن تكفوا عن هذه الألعاب الحربية العابثة، وتحملوا الأقلام، وتكتبون للتاريخ أن الحرية هي قدركم.

- ماذا تعني يا عمي ؟ ألا نحاربهم ؟ نريد أن نخبرهم أننا من وراء آبائنا.

- لا شئ...لا شئ يا أبنائي...أنتم سواعد الغد...ليتني أستطيع إخباركم بتفاصيل ما كان يدور في تلك الاقامات الجائرة... أحييكم على هذه الروح، وأتمنى أن تظل مشتعلة في قلوبكم.

استدار سالم نحو إقامة الخدم المهجورة، والمنغرسة تحت أشجار شوكية كبيرة، فوجد أطفالا أخر يلهون باللعب والحلوى، فحدثهم مداعبا، وعلم أن منهم أبناء كلميم وطرفاية وطنجة والقنيطرة وفاس ووجدة...فطابت نفسه وسر لرؤية الحبل يمتد شمالا وجنوبا دون أن تفلح يد آثمة في بتره، اقترب منهم وقال بعد أن حياهم :

- أتدرون لماذا خربت تلك الدور المهجورة ؟

رد واحد منهم :

- لأنها كانت دور الخدم والحرس للمستعمر.

قال سالم باسما :

- لأن جدرانها تم بناؤها بماء البحر المالح، فاندثر الحديد بفعل ملوحة مياه البحر.

قالوا جميعا :

- نعيد بناءها إذن بمياه الآبار العذبة.

ضحك سالم وقال :

- سواعدكم الصغيرة تطيق ذلك... هيا...متى ستبدأون في إعادة البناء.

هتفوا جميعا :

- الآن يا عمي... الآن... نحن جاهزون لذلك.

ودعهم سالم وهو يضحك، فتذكر أبناءه الذين لم ينعم بمداعبتهم كما يفعل كل الآباء.

كان عدم رؤية أبنائه الثلاثة يفتت ضلوعه، خصوصا محمد الذي علم أنه صار من العلماء، إذ تبناه شيخ القبيلة قبل وفاته وعهد إليه بمكتبته ومسجده، وقيل له أنه سافر قبل قدومه بيومين من أجل ملاقاة أخويه مصطفى ومولود اللذان لم يرهما منذ زمن طويل.



حضر ريكاردو ومعه مجموعة أخرى من مرافقيه، وعقدوا اجتماعا عاجلا في الخيمة، ثم أمرهم بعد فضه بتفكيك الخيمة وتحويلها إلى بقعة أخرى، فهي مقر متحرك يتخفى بين التلال الرملية على مقربة من الحدود، تصلح للاجتماعات، ولإدارة العمليات السرية، ولتعقب الأسرى أيضا، لم يكن محمد يعلم شيئا عن فحوى الاجتماع الذي دار في الخيمة، إذ أبعد مسافة عشرة أمتار تقريبا، ووضع حاسر الرأس تحت لهيب الشمس الساخنة، بينما تم إرسال مصطفى إلى ما وراء الحدود، ليعود مع بعض الصحراويين الرحل الذين مروا قرب نقطة حدودية تخضع للمراقبة.

خرج الاجتماع العاجل بقرار اختطاف محمد، واحتجازه في مدينة تندوف إلى أن يعود إلى رشده، فهو يمثل رقما صعبا لا يمكن السماح له بالعودة، ووراءه أتباع كثيرون من الذين يؤمنون ببقاء الوطن موحدا، وتلك جريمة تستوجب العقاب.

كان مولود يشعر بالفرح يغمره، لأن الاجتماع لم يخرج بقتل أخيه الذي خونه وخون جماعته الانفصالية، والتي قال عنها علنا أنها مجرد أداة للنيابة عن المستعمر في تمزيق وحدة الوطن بطراز مبتكرو جديد، أخذه الشوق والحنين إلى معانقته شفقة عليه وتقديرا له، إلا أن مكانته لا تسمح له بذلك، وتحتم عليه إظهار نكران الذات والذوبان وسط الأفكارالتي يعتنقها.

حضر عسكري نحيل من عساكر الخدمة لدى الجماعة الانفصالية، ووضع كيسا أسود على وجه محمد، بينما كان عسكري آخريحكم تكبيل يديه، ويتحامل على إصعاده إلى مؤخرة سيارة جيب صغيرة.

كان محمد ينادي على أخيه مولود وهو يقول : مولود يا عزيزي...ما الذي تفعله بي جماعتك ؟ هل أنت بخير ؟...لماذا لا ترد...مصطفى...هل تسمعني؟...أطلقوا سراحي فورا أيها العملاء...أيها العملاء...ما الذي يحدث هنا ؟...مولود...مولود...

كانت صرخات محمد تذوب وسط الفضاء الساكن المتكوم فوق الرمال من السماء إلى الأرض، يشعر أن كل من كان حوله ينخرط في تلك العملية القذرة، وأن

يد مولود التي كان يظن أنها امتدت لصلة الرحم قطعته إرضاء لريكاردو ومن معه، أحس أن هناك من يجلس إلى جواره دون أن يستطيع التعرف عليه، تسلح بالصبر وأخذ يتلو القرآن ويدعو الله أن ينجيه من بطش الأعداء، تذكر أهله وبيته وقبيلته التي بدأت تنعم بالأمان بعد جلاء المستعمر، وتيقن أنه تعرض لعملية اختطاف خطيرة، ورابه أمر مولود الذي استدعاه إلى ذلك المكان مدعيا أنه سيصل معه الرحم والود فغدر به، شعر تجاهه بخيبة كبيرة، وأيقن أنه أسلمه للأعداء حين سمع صوته وهو يؤدي التحية العسكرية مودعا.

كان حديد السيارة الذي يلي جسد محمد غير مريح، وتمنى لو أن أحدا دفع رجليه نحو اليمين قليلا، إذ كانتا هما أيضا مكبلتين، كانت مقاومته تذوب وسط تلك الضربات التي يتلقاها كلما حاول أن يغير من وضعه، فتسمر في مكانه وظل يتوقع المكان الذي ستكون اللكزة واللكمة من نصيبه، ولما أعياه القيد، استسلم للتأمل الداخلي وهو يركز على مناجاة الله ليشعر بالسكينة.

مر وقت طويل و محمد يكاد يختنق في الكيس الذي يلف رأسه، كانت السيارة تخترق المسافات إلى أن بدأت تتأرجح كأن محركها قد توقف، فسمع أصوات رجال يتحدثون عن المسافة المتبقية للوصول إلى تندوف، كان يسترق السمع بصعوبة بسبب هدير المحرك الذي علا صوته، ففهم أنهم على مقربة من هذه المدينة بما قدره أربع كلمترات تقريبا، وأن تصليح السيارة سيحتاج إلى وقت طويل، فقرر رئيسهم أن يرسل محمدا سيرا على الأقدام رفقة ثلاثة من الجنود الذين لم يترددوا في فك قيد رجليه المتعبتين، وإنزاله وسوقه كما تساق البهائم إلى حضائرها.

كان يسمع رئيسهم وهو يوصيهم ان يناولوه ماء للشرب حسب التعليمات، إلا أن جشعهم جعلهم يصبون الماء على رؤوسهم بمجرد مغادرة المكان، فقد كانت الشمس لافحة جدا، وكان جلد وجه محمد يكاد ينسلخ بسبب العرق الكثيف تحت الغطاء السميك الذي يغلفه، شعر عدة مرات بالاختناق، فطلب منهم إزالته لوقت وجيز، إلا أنهم رفضوا متعللين بأنه ليست لديهم تعليمات بذلك.

كاد صبر محمد أن ينفد، وأصابه تعب شديد، ورمى بحذائه الخفيف الذي لم يقو على مقاومة تلك الرمال الساخنة، والتي اندفنت بها أعشاب شوكية أدمت قدميه، بينما كان معتقلوه يضعون أحذيتهم العسكرية السميكة التي تقيهم تلك العثرات، كان يطلب من حين لآخر وقتا للراحة، ولكنهم كانوا يتجاهلون طلبه، وكان واحد منهم يردد من حين لآخر بعض الأناشيد الثورية التي تمجد الحرية وتدين الظلم بكل أشكاله.

سمعوا فجأة صوت السيارة يقترب منهم، فتوقفوا قليلا، ثم أدوا التحية العسكرية واستمروا في المسير، فهم محمد من كلامهم أنهم استطاعوا تصليح السيارة، فتمنى لو أصعدوه إليها ثانية، إلا أن واحدا منهم اعترض وقال :

- لم يبق أمامنا الكثير... لا بأس... أمتار قليلة، سنقطعها مشيا على الأقدام .

تدخل محمد مترجيا وقال :

- قدماي لا تقويان على المسير أكثر مما فعلت، أرجوكم... افعلوا شيئا لأجلي... ما الذي جنيته لأستحق هذا العذاب ؟

كان مرافقوه مشغولين بالحديث عن الميكانيكي الغبي الذي يتولى إصلاح تلك السيارات العسكرية، ويدعون كلهم أنه لا يفقه في الميكانيكا شيئا، وإنما تم توظيفه لأنه قريب رئيس المخيم، كان محمد ينصت إلى تعليقاتهم فقال متلطفا :

- أنا أخوكم... صحراوي مثلكم... أ... أ... أدين بدينكم، بالله عليكم ارحموني واحملوني على شئ ما، لقد خارت قواي.

ضحك واحد منهم وقال :

- نحملك على أكتافنا يا بني العزيز...ههه... أيرضيك ذلك ؟

رد آخر :

- التعليمات التي لدينا هي أن يصل هذا الرجل في وعي كامل، أرى أن نحمله في السيارة ونخفف القيود عنه، انظروا... لقد اقتربنا.

سر محمد سرورا كبيرا حين ثقبوا ثقبتين في الكيس باتجاه عينيه، وثالثة باتجاه أنفه، كان القليل جدا من الأكسجين ينعشه وينقذه من الاختناق، مد بصره من خلال تلك الثقوب، فإذا أبنية قصيرة حمراء تلوح في الأفق، وحولها خيام مبعثرة، وأكواخ حقيرة وضعت فوق الأرض الرملية دون أن يحفر أساسها، كأنها مراتع الإبل التي تشيد لأجل إيوائها ليلا، وعلم أن ذلك المأوى قد يكون نزله، ازداد حزنه وقال:

- أشكركم، أنتم صحراويون، أنا أخوكم... أدين بدينكم، مصيري هو مصيركم... ما الذي يحدث ؟... ما الذي يحدث هنا ؟

شعروا بالاشفاق على محمد الذي لم تمنعه طيبوبته من شكرهم بالرغم من أنهم أساءوا معاملته، وحرموه الماء ولكزوه مرارا فقال واحد منهم :

- والله يا أخي كلامك صحيح، نحن إخوانك من الجزائر، ولا حاجة لنا بك، ولكن لدينا تعليمات بحملك على عجل إلى هنا، أنت الآن في تندوف.

قال آخر :

- اعذرنا إذا أسأنا معاملتك، لا تحقد علينا، الشعب المغربي والجزائري يشكلان وحدة أخوية عبر التاريخ... نحن مأمورون من طرف الكبار... نرجو أن لا تخبرهم أننا أسأنا معاملتك ... بعض الكبار هناك... هم الذين يديرون هذه اللعبة الغامضة.

قال محمد :

- بل أنا من يشكركم... أ... لا يعني ذلك أنني أوافقكم على خنق الأبرياء المسجونين، أعلم أنكم جزء من شعب الجزائر الشقيق الذي لا يد له فيما يحدث هنا، وأن هذه لعبة الأيدي الخفية، سيأتي اليوم الذي ستبتر فيه يد الشر التي تمزق الشعوب إلى الأبد.

قال واحد منهم :

- لا تردد كلاما كهذا هنا، الكبار يسجلون كل حركاتك، ستتعرف على آخرين تم تنقيلهم في شاحنات عسكرية جزائرية إلى بلدة أمكالا بسمارة...

قال مرافقه مقاطعا :

- لقد تم ترحيلهم من أمكالا مرة أخرى إلى بلدة تفاريتي، ومنها إلى حمادة تندوف.

قال السائق :

- وهل قبلوا الرحيل طواعية ؟

- كلا... كلا... تم إقناعهم بأن الجيش المغربي سيبيدهم... وأنهم سيمكثون في المخيم لفترة وجيزة حتى يزول الخطر.

شعر محمد بالقلق الشديد يساوره، وامتزج شعور بالمهانة لديه بشعور شديد بالعطش فقال :

- حسنا... هل يمكنني الحصول على كوب ماء ؟

قال السائق متلطفا :

- اعذرنا، لقد استهلكنا الماء الذي كان بحوزتنا، اصبر قليلا وستروي ظمأك.

قال آخر :

- أوه... لقد وصلنا... أوه...الطريق متعب وشاق.

كان محمد يرسل بصره من خلال الثقب الذي أحدثوه في ذلك الكيس السميك، فرأى من قريب الكثير من الجنود على مدخل تلك البنايات الوضيعة، تخيل أنها أبنية تعود إلى العصور الوسطى، إذ لا يظهر إلا صناديق بالطوب والكثير من الناس مكدسون حولها، يشتركون في سحنة حزينة كأنها البؤس يمشي على قدمين،

وكان علم غريب يرفرف على مدخل البناية المأساة، فكان محمد يحاول رفع رأسه عاليا ليتحقق منه، فعلم يقينا أن أخاه مولود غدر به، واصطاده بمكر، وقدمه لقمة سائغة لشتات الانفصاليين.

كان محمد ينظر يمينا وشمالا لتلتقط عينه أكبر عدد من الصور والمشاهد الحية، فقد سمع الكثير عن هذا المخيم الذي أنشئ بعشوائية كبيرة.

رمى ببصره يمينا، فإذا بعض الأطفال يلعبون بعلبة حديدية صدئة تحمل علامة المساعدات الدولية، ولا يأبهون لمرور السيارة العسكرية قرب أرجلهم الحافية، كانوا يطوفون بثياب ممزقة إلى حد ظهور بطونهم وأكتافهم من خلالها، استدار يمينا فلاحت له كوكبة من النساء ينقلن الماء على ممر ترابي دقت رماله حتى تحولت إلى ما يشبه الاسمنت الناعم، كان بعض الشيوخ على حافة خيط ترابي تبين أنه طريق المدخل الرئيسي يرقبون ما يجري من حولهم، كانوا كأنهم مرضى ينتظرون دخول المشفى، يخيم البؤس على محياهم و يثيرون الشفقة، تتدلى أناملهم النحيفة وهي تحمل سبحات بلاستيكية صغيرة، علم أنه صار جزءا من هذا المخيم المعتقل الذي طالما سمع به، لم يتمالك نفسه وأجهش بالبكاء وقال في نفسه : أيعقل أن يحدث هذا هنا ؟ أيعقل أن يحتجز هذا العدد من الأبرياء في هذه الظروف السيئة ؟... أين هي محافل العالم الباحثة عن الحرية ؟ ....

مضت السيارة ببطء غير مكترثة، فاقترب منها رجل نحيل وقال بصوت عال :

- مرحبا أيها الضيف الجديد، أهلي وعشيرتي في البويرات... ضواحي أسا الزاك...هل أنت من هناك ؟ هل معك أخبار عنهم ؟ مختار ومصطفى و فاطمة...

دفعه احد الحراس برفق وقال مازحا :

- ما زال هذا الأحمق يذكر أهله كلما حل ضيف جديد... لا يكف عن اعتراضنا.

ضحك زميله وقال :

- لقد جن في عقله، يظن أنه في إجازة، لم يدرك الحقيقة طوال هذه المدة.

- لكم أشفق عليه... لكم أشفق عليه...

توقفت السيارة فجأة وقال السائق :

- لا تنس يا محمد الطيب، لقد كنا لطفاء معك...ونحن إخوة في كل الأحوال... أليس كذلك ؟ تذكرني...أنا مسعود الجزائري..

- و أنا حميدة الصحراوي...

- أنزلوه من السيارة بخفة، وأودعوه في مكان مظلم، فكوا وثاق رجليه، ثم تراجعوا نحو الخلف فسمع قرع أحذيتهم العسكرية باتجاه اليسار، فجلس على أرض طينية محاولا تحسس ما حوله بيديه المكبلتين.

وبعد لحظة قام من مكانه باتجاه الباب الذي يظهر عليه ثقب صغير ينقل بعض الضوء الخافت، فصار يحاول أن يستكشف من خلاله ما يدور بالخارج.

كان الظلام الكثيف يلف ما حوله، فقد كانت الغرفة شاسعة جدا، ونصبت في فضاء فسيح، كان في كل مرة يسترق السمع بصعوبة، ففهم أنهم يتحدثون عن المكان الذي سيودعونه فيه، تشاوروا فيما بينهم، ثم قرروا أن يخرجوا به إلى غرفة أصغر وبها نور خافت، وعندما جاءوا لاصطحابه، طلب منهم مجددا ان يزيحوا الكيس عن وجهه لكي يستطيع استعادة انفاسه، إلا أنه لم يتلق أي إجابة منهم، واستمروا في المسير في طريق ضيق كأنه ممر طويل، وبعد لحظات يسيرة، سمع واحدا منهم يقول :

- من منكم سيخلع حذاءه...و... ويلبسه إياه ؟ لقد خرج الدم من رجليه وخدش أعلاهما بشكل لافت، أنسيتم أننا تلقينا التعليمات أن نوصله سالما معافى ؟

قال رفيقه ساخرا :

- سالما معافى ؟ وماذا عن سلامتنا نحن ؟ ماذا عن معافاتنا ؟ لقد مللت هذا المخيم البئيس... و... هؤلاء البؤساء الذين يعمرونه أيضا.

نظر إليه رفيقه مستنكرا، ثم انحنى ليتعرف على مقاس رجلي محمد، فطلب من السائق ان يخلع حذاءه وألبسه إياه.

كان محمد يتألم كثيرا بسبب تلك الجروح والخدوش التي انتفخت بفعل المسير العشوائي والغير متأني فوق تلك الرمال الخشنة والأعشاب الشائكة، فقرر أن يحتج ويصرخ متوسلا منهم أن يرفعوا عن وجهه الكيس الذي كتم أنفاسه، ثم يلبسوه الحذاء.

تجمهر كثيرون قرب بوابة السجن الخلفية للبحث عن أخبار ذويهم، فخاف مرافقي محمد أن تتأجج مشاعرهم وهم يرون نزيلا جديدا يحل بالمكان وقد ربطت يداه وغطي وجهه، كما أنه قد يتعرف عليه بعضهم من خلال كلماته المستنكرة التي علت المكان، فتزداد وتيرة الاحتجاجات وتعلو، فاستداروا نحو نفق صغير سلكوا منه بعجالة.

لم يكن النفق الذي مروا منه إلا مخرجا من المخارج السرية والملتوية نحو جناح التحقيق والتعذيب، ولم تكن الغرفة المجاورة إلا عنبرا من عنابر الموت الرهيب.

أدخل محمد على عجل إلى مكان صاخب، ثم أجلس على كرسي خشبي واسع، فشعر براحة كبيرة لم يشعر بها من قبل، إذ أحس كما لو أن عظامه كانت مفككة ثم عادت إلى أصولها، لم ييأس، فطلب ان يزاح الكيس عن وجهه وهو يردد : ما هذا الظلم الذي أراه ؟ لماذا تعذبون الأبرياء ؟

لم يتلق أي إجابة،فصمت قليلا ليتحسس جيدا ما يحدث من حوله، فسمع صوت امرأة تتوسل وتقول : أنا من منطقة تويزكي... تويزكي ضاحية أسا، أريد أن أعود إلى زوجي وأبنائي، لا أريد البقاء هنا...ها... ها...

ظلت تتوسل دون أن يسعفها أحد، سمع محمد صراخها فأصابه ذعر كبير وتملكته حيرة شديدة، وازداد فزعه حين سمع صراخها يزداد كلما تعرض ابنها للضرب، إذ ظلت تستغيث وتكرر أنه لا ينتمي إلى أي طرف في الحرب، و أنه مجرد شاب يشتغل في تعبيد الطرق، ولا شأن له بما يحدث من حوله، لم يتمالك محمد نفسه، فقام يصرخ دون خوف وهو يردد : توقفوا... توقفوا... أيها القتلة، تعذبون النساء ؟

- كانت المرأة تزداد صراخا وهي تسمع دفاعه عنها وتقول :

القوات المسلحة الملكية تدافع عن أرضها، لا أعلم عنهم غير ذلك، أنا مجرد امرأة لا حول لي ولا قوة، كنت أراقب عنزاتي لا غير... أقسم لكم بالله ليس لدي سر، إلا أنكم اختطفتموني وحشرتموني أنا وابني في هذا المكان ظلما وعدوانا.

كان محمد قد توقف عن الاحتجاج فجأة، إذ نزع العسكري الذي يتولى حراسته الكيس عن وجهه، ودسه في فمه وظل يمسك به رجاء أن يخفت صراخه، وعندما رفع محمد عينيه أصابه ذهول كبير، إذ رأى أمامه العديد من الرجال وبعض النساء كأنهم بعثوا من القبور، يعلو الغبار وجوههم وثيابهم كما لو كانوا يؤدون دورا في فيلم تاريخي عن القرون الخالية.

كان عسكري شرس يسجل أسماء المحتجزين الذين سينقلون كالبهائم إلى مكان آخر، أدرك محمد أنه بجلوسه على ذلك الكرسي الخشبي من المحظوظين المحتفى بهم، رأى المرأة أمامه وهي تجدد استنكارها وعلى وجهها العديد من اللكمات وقد سقط ثوبها عن رأسها، كان بعض الرجال يقسمون أنهم مجرد عمال طرق وصيانة، ولا علاقة لهم بالسلاح والمؤامرات، كان محمد يتفرس في وجوههم البريئة تفرسا جعله يدرك أنهم أبناء الصحراء الذين يرحلون قسرا إلى ذلك المخيم الرهيب، ليستعملوا كبش فداء وورقة ضغط يلعبها الكبار.

كان حظ محمد أن يكون ورقة من هذه الورقات، فقرر أن يهدأ ويرتخي ويتأمل الصور البشعة التي تمر أمامه، فأخرج العسكري قطعة الكيس من فمه ومسح بها وجهه المعرق ورمى بها، لم يصل دوره في التحقيق بعد.

طلب من أحد الحراس كوب ماء فأحضره له، وقبل أن يضعه في فمه صرخ الجميع : نريد ماء... نريد ماء... هجمت على محمد حينها كل الأنانية المطبوعة بداخل أي إنسان، فقام يحاربها بما يملك من القوة، وآلمه أن يرتوي وهم ينظرون إليه، فوضع كوب الماء على الأرض، فصار جميع من في المكان من المسجونين ينظرون إلى الكوب كأنه لؤلؤة تبهر العيون.

كانت معاملة محمد تختلف عن معاملة باقي المختطفين، خصوصا بعدما أرسل إليه المحقق نظرة تميزت عن نظراته الازدرائية التي تسقط على الآخرين كالجمر.

مر وقت يسير، ثم حضر محقق آخر صغيرالسن، أنيق الثياب، يتحدث بلهجة جزائرية، فألقى الجنود عليه التحية، ثم تقدم نحو باب مغلف بصفحة جلدية تحجز الصوت، ضغط على زركهربائي هز المكان، ثم أمر بإحضار محمد على عجل.

أدخل محمد إلى مكتب واسع، ووجد أمامه المحقق على كرسي دوار مقابل مكتب زجاجي أنيق، تنعكس عليه صورة علم الانفصاليين التي تزين ركن الغرفة وقال :

- مرحبا بمحمد ولد سالم رائد الصحراويين.

نظر إليه محمد نظرة احتقار وقال :

- ترحيبك يعني أنني أتيت طواعية لزيارتك.

- ههه... زيارتك تفرحنا على كل حال..

ضغط على زر، فأحضر الحارس كوب شاي وإلى جانبه كوب ماء زجاجي كبير، حمله محمد فورا وأفرغه في جوفه وقال :

- أريد أن أعود إلى أهلي... ما الذي تريده مني ؟

- أنا ؟...آه... تقديرا لك أحببت أن أحقق معك في مكتبي... فأنا أعرف من أنت وما الذي تمثله..

- ولكنني لا أعرف من أنت تحديدا.

- أنا مكلف بمتابعة العملاء الذين يمكنون لأعدائنا في الجمهورية الصحراوية.

- الأعداء ؟ العملاء ؟

- اسمع جيدا يا ولد سالم، الكثير من المفقودين مروا من هنا، ستلحق بهم إذا لم تتعاون معنا.

- من أنتم الذين سأتعاون معكم ؟

- نحن مجموعات من نسيج صحراوي قبلي متعدد، تجمعنا هنا، لأجل أن ننجح، و... و...وإذا فشلنا في تحقيق أهدافنا، فستطالب كل قبيلة بأبنائها ويتهدم كياننا...أنا... أنا فقط أشرح لك حتى تفهم دورك، وإلا فإن هناك من يدعمنا ماديا ومعنويا.

- يدعمونكم لأجل ضربنا... و... تأخير دورتنا الحضارية.

- ههه..يبدو أن بعض الإذاعات غسلت مخك، لا بأس...هنا ليس لديك إعلام إلا ما يخرج من مكاتبنا نحن، ستراه وتسمعه وتستهلكه حتى تكون صالحا لمهمتك وتكرر : ليس لدينا اختطاف ولا تعذيب ولا اغتصاب.

نظر إليه محمد باحتقار وقال :

- أيها العملاء... ألا تكفون عن هذه الألاعيب القذرة ؟ ألا تتقون الله في أمتكم التي تمزقت أوصالها منذ مجئ المستعمر، وبعد رحيله أكملتم اللعبة ؟ ألا تعلم أن مصيرنا المشترك يحتم علينا أن نطرد العملاء والمرتزقة ونضع يدا في يد لبناء الوطن.

قام المحقق من مكتبه، ووقف أمام محمد الذي كان ينتظر ركلة أو ضربة قاضية منه وقال وهو يصفق :

- رائع...رائع... يا محمد...هكذا إذن... أحسنت...أخبرت عنك أنك لا تخاف أحدا، خطيب مفوه يمتلئ حيوية وحبا للوطن الجريح.

اقترب المحقق منه وجذب لحيته بقوة وقال :

- ولكن دعك مستقبلا من تكرار ألفاظك النابية.

انشغل محمد بتصفيف لحيته، بينما أشعل المحقق سيجارته وجلس على الأريكة الجلدية مقابلا له وقال :

- ذكرت العملاء...لقد اكتشفنا مؤخرا شبكة تتعامل مع المخابرات المغربية والفرنسية والاسبانية تريد تفجير الجبهة من الداخل، وسمعنا أنك تحرض الصحراويين بالعود إلى وطنهم كما تقول...وبالنظر إلى جرمك العظيم، فأنت محظوظ لأنك هنا... أ...هناك من سيرسلك إلى الآخرة... لولا أنني حرصت على حياتك، تعاونك معنا خير من فقدانك... فأنت لا تعلم كم أقدرك.

قال محمد رافضا :

- لا أريد البقاء في هذا المخيم، ما تفعلونه يسجله التاريخ، وستتعرف الأجيال على جرمكم، ومهما أخفيتم الحقيقة، فسيأتي اليوم الذي يعلو فيه الحق على الباطل.

- قال المحقق :

- المخيم مأوى للعديدين من الضحايا الذين هربوا من المغرب.

- يجدر بك أن تقول الحقيقة، و أن يعلم العالم بأسره أنكم اختطفتم الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ من بين أهليهم، وأنا واحد منهم، أنتم تتحملون أمام الله، ثم أمام التاريخ الفظائع التي ترتكب في هذا المخيم القذر.

جذب المحقق لحية محمد ثانية بعنف أقوى من السابق وقال :

- يا لك من صحراوي عنيد، ستجد هنا صحراويين آخرين مثلك يؤنسونك، وستجد جزائريين من أصول صحراوية... هه... هم جزائريون في النهار... وصحراويون في المساء... يطالبون باستقلال الصحراء... بالرغم أنهم...لا.. لا علاقة لهم بالصحراء لأنهم خارج الاحصاء الاسباني.. وقد ينتمون إلى بشار أو برج المختار.، ستربط العلاقة معهم وتغير قناعاتك... أنت بحاجة إلى الكثير من العلاقات الراشدة يا محمد... هذه مهمتك، وستسأل عنها.

قال محمد غاضبا :

- يا لها من ألاعيب قذرة...خونة... عملاء...

حمل المحقق يده وصفع محمدا صفعة قوية، ثم أخرج غاضبا مسدسه ووضعه على المنضدة حتى كاد زجاجها أن ينكسر وقال :

- هيومن رايتس ووتش ومنظمة العفو الدولية لديها العديد من ملفات المفقودين، يبدو أن عليها أن تضيف واحدا عنيدا مثلك.

صمت محمد، وصار ينظر إلى زخارف السجاد دون أن يستطيع تمييز ألوانه، فقد شعر بألم قوي على وجنته، وبانهيار عصبي يشمله، مد يده نحو كأس الشاي فرشف رشفة واحدة ثم وضعه، فقد كان العطش الشديد يفتك به، ولم يكن ذلك الكوب كافيا لإنعاشه، نظر إليه المحقق هادئا ثم قال :

- اسمع يا محمد، ستعرض علي مطالبك كلها، أنا هنا لأجل إكرامك.

قال محمد بصوت حاني :

- أريد أن يطلق هؤلاء الأبرياء المحتجزون فورا، أريد أن يعاد رفات من مات منهم إلى أهله، أريد أن أعود إلى أهلي، أطالب أن يقدم الذين اختطفوني واختطفوا إخواني إلى العدالة .

قال المحقق بسخرية كبيرة :

- رائع، وماذا تريد أيضا ؟

سكت محمد وصار يرقب نظراته الساخرة فلم ينبس ببنت شفة، ضغط المحقق على الزر بقدمه تحت المكتب وقال للحارس الذي دخل مسرعا :

- رافق هذا العنيد ليتجول في إقامته الجديدة، لا تنس أن تقدم له ما يحتاجه من الطعام والشراب.

نظر محمد مستغربا إلى المحقق الشاب وهو يضحك قائلا :

- أتمنى أن تكون لطيفا ومتعاونا.

أدى العسكري التحية، وأمسك بيد محمد بقوة، وخرج به من المكتب ليرى أولئك المعذبين تحت رحمة المحققين، مازالت أعينهم ممدودة نحو السماء تنتظر الفرج، ونحو كوب الماء الذي ما زال في مكانه ينتظر من يسمح له بأن يروي عطشه.

قضى محمد ذلك اليوم في دروب المخيم الفقير، سمح له العسكري بالكلام والتفسح وفق التعليمات، فآلمه منظر الأطفال الذين يلعبون بالحجارة ومخلفات الزبالة، اقترب منهم، فكتب لهم بحروف أبجدية على الأرض الترابية كلمة « الحرية « ليقرأوها، فاندهش عندما أخبره بعضهم أنهم لم يلتحقوا بالمدرسة قط، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة، كان الحارس يتردد في السماح له بالحديث إلى الناس في حدود ضيقة، دلف معه إلى السوق فإذا السلع مفقودة وكأنه صورة لتلك الأفلام التاريخية التي تعرض أسواق بلاد الرومان أو الإغريق بعد سقوط حضارتيهما، كانت الكلاب الضالة تختلط بالبشر في وضع مهين، لم تكن هناك طرقات ولا بنايات ولا مؤسسات، أكوام من البشر حشرت في تلك الصناديق الطينية و الخيام المهترئة شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا... كان محمد يتفطر ألما وهو يقارن بين مكتب السجان الفاخر،وإقامة السجناء الوضيعة، ويتساءل في نفسه مستنكرا : ما الذي فعله هؤلاء المحتجزون حتى يستحقوا هذه العقوبة الكبيرة ؟ أي جرم ارتكبوه لينالوا هذا العقاب ؟ هل يعلم العالم بهذا الجرم الذي يحدث هنا منذ مدة ؟

تراكمت الأسئلة في ذهن محمد، ولم يكن يعلم أنه كان محظوظا جدا، لأن مكانته الدينية والاجتماعية والسياسية سمحت له بالكثير من الامتيازات والرخص في ظل الاحتجاز، كان وقت الصلاة قد حان، فوقف في مكان مرتفع قليلا يتفقد القبلة، فإذا بشيخ يقترب منه ويهمس له باتجاهها، استأذن الحارس في أن يسمح له بأداء الصلاة فأذن له، وعندما التفت وجد ثلاثة شيوخ وراءه يؤدون صلاتهم، انحنى وسلم عليهم، و أخبرهم أنه مختطف للتو من بين أهله وذويه، فقال واحد منهم : نحن أيضا محتجزون هنا ، نتمنى أن يأتي اليوم الذي يطلق فيه سراحنا.

اقترب العسكري فورا، فأوقف محمدا وقال :

- هيا، حان الوقت لتعود إلى مكتب المحقق.

جاء أحد الشباب مسرعا وقال وهو يسلم على محمد :

- سيدي محمد ولد سالم...سيدي محمد ولد سالم... أتذكرني ؟ أنا الناجم ولد حميدة، الذي كان يحضر دروسك في المسجد والزاوية ؟

نظر إليه محمد مليا ثم عانقه وقال :

- ما الذي أتى بك إلى هنا ؟

- الذي أتى بك أنت أيضا يا سيدي... الظلم والتعسف.

جذب العسكري محمدا من يده حتى كادت أن تنخلع، فنزعها منه وقال للناجم هامسا :

- أتمنى أن أراك ثانية.

- لا أظن أنهم سيسمحون لي بذلك، لقد ذقت في سجونهم أصناف التعذيب، وثبتت على موقفي، وما زال العلم المغربي يوشح صدري، إنني لوحت به حين جاء وفد دولي لزيارتنا، فاخترقت رصاصة ذراعي مرتين...انظر...انظر إلى ذراعي... لقد وقعت التزاما عند المحقق أن لا أكون مشاغبا...

انطلق العسكري رفقة محمد الذي بدا مرتبكا، خصوصا حين سمع كلاما ولغطا كبيرا كأنه في سوق عامر، التحق به عسكري آخر أرسله المحقق حتى لا يتمكن محمد من الإفلات أو التمرد وسط الزحام ، صار ينظر إلى طوابير المحتجين، ففهم أنهم يتظاهرون ضد ضيق سبل المعيشة، سيما حين قال العسكري لرفيقه أنه يود أن ينخرط في تلك الاحتجاجات لينفس عما بداخله من الغيظ لولا رتبته العسكرية، بعدما ضاق ذرعا بتلك الأجرة الهزيلة التي يتقاضاها.

سمع محمد أيضا أصوات النساء والأطفال غير بعيد من المكان، حاول استجداء حراسه من جديد كي يسمحوا له بشئ من الحرية بالرغم من تعبه الشديد الذي كسره فضوله الجامح في التعرف على مخيم طالما سمع عنه غرائب الأخبار، إلا أن صوتا مدويا من مكبرات الصوت كان يحذر المحتجين، ويتوعدهم بالويل والثبور إن هم خرجوا من تلك الخيام والأكواخ ثانية، انطلق صوت الرصاص في كل اتجاه، ثم سكت فجأة.

وما هي إلا لحظات حتى هدأ المكان تماما، سمع محمد أحد حارسيه يقول:

- جاءتنا أوامر بالدخول إلى المخيم من الخلف، هناك وفد إنساني سيأتي ليتفقد السكان وينجز تقريرا عن معاناتهم.

قال محمد وهو يتألم :

- المنظمات الانسانية ؟ هل ستتفرج على هذه المأساة ؟

- يبدو أنك لست متعبا كما تدعي.

- هل ستظل هذه الورقة حبيسة مصالح الكبار في الوقت الذي يدفع فيه الصغار الثمن باهضا ؟ يا للدناءة ! لقد حرم الله الظلم تحريما عظيما، ولست أدري كيف سيواجهون الحساب بعد موتهم، يقيمون ألف حساب لرقابة المنظمات الإنسانية، ولا يقيمون وزنا لوعيد الرقيب الذي خلقهم.

التفت الحارس وقال ساخرا :

- أي ورقة هذه التي تتحدث عنها يا ضيفنا الجديد ؟

- ورقة تندوف... أظن أنها ستظل حبيسة المصالح... لابد لهؤلاء الأبرياء المظلومين أن يعودوا إلى وطنهم، ومن حقهم أن ينعموا بالسلام والأمن كغيرهم من المواطنين.

ضربه واحد منهما على فمه حتى كاد أن يخلع أسنانه مظهرا أنه يمازحه وقال:

- لا تدخلنا في شراكك، ولا تورطنا يا محمد.

قال محمد وهو يستجمع قوته :

- ربما لا ألتقي بكما مجددا، دعاني أخبركما أن هذا الذي يحدث هنا ظلم ومنكر لا يرضاه أحد منكم لنفسه، وأود أن لا تشتركا فيه أبدا.

- حبذا لو صمتت الآن، فنحن نتفهم معاناتك...

- أجل... ولكنها التعليمات والأوامر.

- أي تعليمات ؟ أنا تعرضت لعملية اختطاف خسيسة... أ.... أ... أريد ان أقابل هذا الوفد الانساني.

اقترب منه العسكري وصار يحدق في عينيه غاضبا فقال له محمد :

- ما اسمك يا أخي ؟

رد العسكري مشفقا :

- مسعود...مسعود... من الجزائر.

- مسعود من الجزائر الشقيقة ؟

- أجل... محمد يا عزيزي، هذه الوفود تأتي دائما، لا تعول عليها كثيرا... هذه هي الحقيقة... بعض الكلمات... وجولات بالكاميرا، وانتهى كل شئ.

شعر محمد ببعض الخيبة وقال :

- لماذا يحبسنا هؤلاء ؟ ثم يأتي آخرون بكاميراتهم ليشهدوا على حبسنا ؟ لماذا ؟ ألا تأتي إلى هنا منظمات منصفة تكشف الحقيقة ؟

همس رابح لرفيقه مسعود قائلا :

- مسعود أيها التعيس... لا تحاوره، سيلحق بنا مكروه.

قال مسعود غاضبا :

- رابح أيها التعيس...اخرس، ابني يصارع الموت في سريره منذ أيام،... يحتاج إلى دواء أسعفه به، من أين لي بذلك يا رابح ؟ أقسم بالله لو حدث لابني مكروه ل...

وضع رفيقه يده على فمه وقال :

- قلت لك اخرس...فقد اقتربنا.

- اقتربنا من ماذا ؟

- أرى أنك جننت.

- صدقني...إذا وجدت أن ابني مات، فسأرتكب جريمة خطيرة، يرسلونني في مهمة إحضار هذا البئيس من عمق الصحراء، ولا يتركونني أسعف ابني الذي أخبرتهم بحاله، لطالما استجديتهم.

كان محمد ينصت إلى وعيد الجندي وهو يخشى أن يكون هو مسرح الانتقام، إلى أن سمع صوت المفاتيح يجلجل من وراء باب حديدي صدئ، فجدد فورا طلبه الملح بالحصول على ما يسد به رمقه ويذهب به نصبه .

مر أسبوع، وجاء وفد دولي آخر لزيارة المخيم، والاطلاع على أحواله، كان من ضمنه بعض الأجانب الذين يناصرون الانفصاليين ويبقون على نفوذهم الإعلامي والسياسي في المنطقة، كانوا قد علموا أن شخصية مهمة محتجزة يمكن أن يغير رأيها

الكثير، فطلبوا مقابلة محمد ولد سالم لتهدئة السكان الذين يتحرقون لملاقاة ذويهم والتعرف على أخبارهم، حمل محمد على عجل إلى حمام متواضع، وألبس ثيابا نظيفة، ثم أدخل إلى مكتب المحقق الذي رحب به وقال :

- سيدي محمد... يا شيخنا الجليل، أنت لست شيخ قبيلتك فقط، بل شيخ كل الصحراويين.

كان محمد ينظر إليه بامتعاض وينظر إلى الأريكة الجلدية الفاخرة أمامه، وعلبة الشوكولاته الانجليزية المرتبة إلى جوار باقة زهور اصطناعية فوق زجاج المائدة البراق دون أن يتلفظ بكلمة واحدة، إلا أن المحقق قال ثانية :

- اسمع يا محمد، ستدلي بتصريح مقتضب لبعض وسائل الإعلام الدولية حول قناعتك الجديدة.

نظر إليه محمد باستغراب وقال :

- أي قناعة هذه التي تتحدث عنها ؟

- لا تتجاهل الأمر، لدينا تسجيل بالصوت والصورة تصرح فيه أنك تدعم جمهوريتنا المستقلة، ولا تعترف بما يردده الأعداء المغاربة من أننا دولة واحدة منذ عهود قديمة.

- هذا بهتان عظيم، أنا لم أتلفظ بهذه الفظاعة يوما، وكل حياتي كرستها لأجل توحيد صف المسلمين في بلدي، كل خطبي وكتبي تدل على ذلك، بل إنني أتمنى أن أرى اليوم الذي تزال فيه الحواجز والحدود بين أقطار الاسلام كلها وننعم بالأمن والاستقرار.

نظر إليه المحقق وقال غاضبا :

- ولكنك غيرت قناعتك مؤخرا، وقررت أن تتعقل وتدعم جمهوريتنا المجيدة.

- هذا افتراء يجعلني أحتقرك وأزدريك أيها المحقق التافه.

نظر إليه المحقق وهو يلمس مسدسه بيده اليمنى وقال :

- قلت... لقد قررت أن تتعقل وتدعم الانفصال.

- وأنا كررت أن هذا ليس صحيحا، وإنما هو افتراء لا علاقة لي به.

ضغط المحقق على زر تلفزيون صغير أمامه، فإذا صراخ وعويل لمعتقلين يعذبون بالسياط حتى الموت، وصور لجنود مغاربة وقد مثل بجثتهم، وإذا شاب تملأ صورته الشاشة يعترف أن الشيخ محمد ولد سالم هو الذي أقنعه بالالتحاق بالانفصاليين... فغر محمد فاه وهو ينظر إلى تلك الغرائب والصور المتنافرة ثم صرخ:

- الاختطاف... تزوير الحقائق...تمزيق الشمل...تعذيب الأبرياء...كلها جرائم سيسألكم الله عنها يوم لقائه... ثم التاريخ، يكفي أيها القاتل، أنا برئ مما نسب إلي، هذا الشاب من فلول العملاء الذين يشهدون زورا ويغيرون الحقائق، لعلكم دفعتم له مالا، أو سمحتم له بالحصول على جواز ليعبر إلى كوبا..أيها الأغبياء.

قام المحقق وفتح الباب بعنف، ونادى على أحد العساكر، وأمره بحمل محمد وإنزال أشد التعذيب و العقوبات ببدنه، دخل فورا كأنه من حراس الجحيم وجذب محمدا من ذراعه جذبا وهو يخرجه من المكتب، اقترب منه المحقق وقال :

- يبدو أنك تحتاج إلى ضيافة متميزة...كن مستعدا لذلك...

حمل يده بسخرية مودعا وقال :

- أتمنى لك ضيافة طيبة.



قضى محمد مدة طويلة في العذاب والوحشية حتى ذاب عظمه، ورثت ثيابه، وفقد نظراته المشعة وحركاته الخفيفة، كان المحقق قد تغير والتحق بالمنصب أحد الصحراويين المغرر بهم، فقرر أن يترك لمحمد بعض أوقات الراحة ليخرج إلى دائرة السجن ويلتقي ببعض النزلاء، سيما وأن حاله قد تبدلت وبطأت حركته، ولم يعد يقدر على إثارة الحديث مع الناس كما كان من قبل، يكتفي بالتذكير بعقود الوطن وعهوده همسا، ويتحدث عن بعض المعاني الشرعية التي تشرح للناس كنه وجودهم في هذه الحياة، أهداه أحدهم يوما قطعة ثوب قطني فرح به كثيرا واستعاد عمامته الصحراوية التي يفخر بها، وخلع القبعة التي كتب عليها رقم زنزانته منذ التحاقه بمخيم الاحتجاز، كان يخرج بعد العصر و يلاعب بعض الصبية في محيط المخيم،وينقش لهم الحروف بالأبجدية واللاتينية على صفحة التراب الجاف، وكان يقبلهم ويرى في عيونهم البريئة حب التعلم، حتى إنهم أصبحوا يكتبون أسماءهم وعبارات الود لعمهم محمد ولد سالم، كان لا يتخلف عن موعده معهم ولو كان متعبا، فكان يكبر في عيونهم وهم يتحلقون من حوله ساعة كل مساء، كان عددهم يكبر يوما عن يوم، ولم يكن الحراس يغفلون عن مراقبته وهو يستعين أحيانا بالعصا ليستطيع الخروج من زنزانته إلى حاشية المخيم، وبعد صلاة المغرب، يجلس ساعة يحدث فيها الناس عن بعض معاني الآيات، فالتف حوله كثيرون، فما لبثت إدارة السجن أن ألغت خروجه ثانية، وألزمته إقامة جبرية إلى أجل غير مسمى.

- مرت سنوات طويلة، وكان آخر ما قام به المحقق هو محاولة استمالة محمد مجددا ليوجه للصحراويين نداء للانضمام إلى الانفصاليين فقال :

- سيدي محمد، لقد ساءت حالتك الصحية كثيرا، وسأرسلك إلى المستشفى العسكري الخاص لتقوم ببعض الفحوصات.

- أشكرك جزيل الشكر، أنا بحاجة لأعرض نفسي على الطبيب منذ سنوات طويلة.

- ها قد حان وقت ذلك يا سيدي، أعدك... بعد خمس دقائق ستكون سيارة الاسعاف أمام هذا المكتب.

- أشكرك يا سيدي... لقد انتظرت ذلك طويلا... والأوجاع تفتك بي ليلا ونهارا.

قال المحقق متسرعا :

- ولكن هناك شرط ليحصل ذلك.

- وما هو أيها المحقق الطيب ؟

- نريد منك أن تشارك في بيان يخاطب بعض شبابنا هناك، ويحرضهم على التمرد على الأوضاع، وإحداث الشغب والحرق والتدمير وإرباك قوات الأمن وإحداث قلاقل... أ.... أ... إنها قلاقل مشروعة لأجل الحرية... سيتم قمع الشباب...و...وسيصور صحافيون معينون مظاهر القمع، ويركزون على أبشعها طبعا... و...و تتناقلها وسائل الإعلام العالمية... و....و... ما رأيك ؟

رفع محمد رأسه، وفغر فاه، وصار ينظر إلى المحقق باستغراب كبير وقال مستفهما :

- ما هذا الذي تقوله ؟ ماذا بعد أن تتناقل وسائل الإعلام صور أحداث داخلية مفتعلة ؟

طمع المحقق في إقناع محمد و قال مستعجلا :

- سنطالب نحن مثلا... أ... بحماية دولية من القمع والبطش، و...تدخل أطراف أخرى سيمكنك من العودة إلى هناك و... و... قل لي... هل لديك مذياع أو تلفاز في زنزانتك ؟

- منذ سنوات وأنت على هذا الكرسي، ولم يخطر ببالك يوما أن تتفقد المحتجزين السجناء وتعلم ما إذا كان لديهم مذياع ؟...

- لا.. لا... أقصد فقط أن اخبارا تروج عن أهل جنوب السودان...

- رن هاتف المحقق وفتحه مستعجلا وقال : أنا أجالسه الآن، إنه في صحة رديئة، ولكن... سيدي... امنحني بعض الوقت...مع السلامة.

فهم محمد أن المكالمة كانت بشأنه فقال :

- أرجوك أيها المحقق، أحب أن أعود إلى الزنزانة الآن، لا أطيق البقاء هنا.

قال المحقق مستدركا :

- دعنا أولا نتحاور ونتفاهم يا شيخ محمد.. هل أمر القرآن بالحوار ؟

- آيات كثيرة هي حوار بين الله وعباده، بين الأنبياء وأقوامهم، بين الانسان ونفسه، بين المسلمين وأهل الكتاب، بل إن الله حاورالشيطان رأس الشر... ليعلمنا أن الحوار مطلوب.

صفق المحقق تصفيقا عاليا وقال على عجل :

- تحية لك يا شيخ محمد...تحية... تحية... واو... كل الشباب هناك معجب بك و بنضالك الفريد... نريد منك أن تتبع منهج القرآن هذا و... و... و تؤسس حوارا معهم عبر وسائط إلكترونية سنكون نحن من يديرها...ههه... رائع... أليس كذلك ؟ الظروف الدولية مواتية جدا...و... أ... ما رأيك ؟

- هذه مساومة خسيسة وليست حوارا، كل الدماء التي نزفت ظلما في تلك الصحراء لم تؤثر فيك ؟ يا إلهي ؟ تريد المزيد ؟ المزيد ؟ وهذه المرة أيضا باسم النضال والحرية والحقوق ؟ قل لي بالله عليك...

- ماذا يا شيخ محمد، يبدو أنه حدث لك لبس ما.

- هل أنت مسلم تؤمن بأن من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا؟ هل تؤمن أن العمر سنوات عمل، وأن ما بعده حساب ؟ وكل قطرة دم بريئة ستعلق بك؟

- حسنا يا محمد، حاول أن تفتح عقلك وتفهم ما أقوله جيدا : المطلوب منك أن تعد سلسلة توجيهات تحث على طلب الحرية و.... وإعلان الجهاد في سبيلها.

- توجيهات تحدث الفوضى والإرباك... هذه المرة باسم الجهاد المقدس... باسم الدين... يا إلهي !

قال المحقق وهو يظهر ضجره :

- لا... لا... الأمر بسيط جدا.... أنا أعتبرك مرجعا دينيا قويا، وهم يعتبرونك كذلك... ستفهمهم يا محمد أن الظلم لا يقبل، وأن ما سيقومون به هو الجهاد الذي أمر الاسلام به...

نظر إليه مليا وقال :

- ستصدر بيانك الأول، وسنتكلف نحن بإذاعته فورا، وستحاور صحافيين وممثلي بعض وكالات الأنباء المرموقة، ويكون كل شئ جاهزا، ستشعر أنك تعلم الناس معنى الحرية، وسنقطف جميعا ثمارها يا شيخنا العزيز.

قاطعه سالم فورا :

- سأصدر بيانا يندد بما عشته ورأيته منذ أن وطئت قدماي هذا الجحيم دون جرم ارتكبته، وأقول للشباب كلمة واحدة، تشبثوا بدينكم وقيمكم ومبادئكم، فهناك من يدبر لكم المؤامرات ويطيل أمد المستعمر الجديد في قلوبكم وعلى أرضكم.

قال المحقق وهو يفك ربطة عنقه ويمسح العرق عن جبينه :

- أنت تتفوه بكلام يعرضك للتصفية الفورية... لو لم أكن أنا هو المحقق.

قال محمد بصوت حاني :

- أنا أمامك الآن، افعل ما بدا لك.

تنهد المحقق وقال :

- هل هذا هو رأيك النهائي ؟ أ... أ... أقصد قرارك الأخير ؟

- أجل... هو ما سمعت تحديدا.

قال المحقق بصوت متقطع :

- أمامي تقارير المحققين الذين حاوروك من قبلي، ما زلت يا محمد تكرر نفس الكلام... يا للهول... ما زلت تكرر نفس الكلام... ألم تقتنع بعد أن خلاصك من زنزانتك بيدك ؟

- لقد قضيت طفولتي بين أحضان المستعمر الاسباني، وتعلمت كيف أكشف الغطاء عن المؤامرات التي رأيت فصولها تمر أمام ناظري، واكتسبت مناعة أعتز بها.

- علمت أنك تربيت في بيت الكولونيل مانويل... عفوا... أ... أ... أنا محقق و لست طبيبا نفسانيا، ولكنني أظن أن ذلك أثر عليك كثيرا.

- كان الكولونيل مانويل ومن معه يأكلون التمر الجيد ويرمون بالنوى للصحراويين صاحبي الحق،يحملون البندقية بيد، ويدخلون اليد الأخرى في قاع الرمل للتنقيب عن المعادن النفيسة، ويأكلون أسماكا لا يراها الصحراويون بعيونهم قط، تغتصب خلسة من بحرهم إلى موائد المستعمر العامرة... وأظن أن تلك الموائد ما زالت منصوبة...

- هذا فظيع يا محمد... فظيع حقا... يتناولون خيرات الصحراويين ؟

- الأفظع منه هو ما يحصل هنا.

- ما الذي يحصل يا محمد ؟ لا بد أن تتعقل وتعترف أن الصحراء تعيش صراعا حقيقيا.

- هذا كذب، قبل أن أتعرض للاختطاف، تركت الصحراء تتحول بسرعة فائقة إلى جنة من الخيرات... يتوفر فيها كل شئ... وأهلها في تعايش تام، أذكر أن شيخي درسني الحروف العربية فوق رمال الأرض، كنت أكره الريح التي تعبث بالجمل التي أركبها، أما الآن فقد علمت أنه أنشئت المدارس والمستشفيات والطرق...

- لا..لا.. لا يامحمد، أرجوك لا تكرر هذه المغالطات، الصحراويون بأنفسهم يشهدون بغير ذلك... أنت تسمع أكثر مما ترى بعينيك.

قال محمد والحيرة تتملكه :

- أريد أن أسألك سؤالا واحدا، وأتمنى أن تجيبني بصدق وصراحة.

- حسنا يا محمد، أصبحت أنت المحقق وأنا.... هيا... ألق سؤالك... تفضل، سأكون ودودا معك وأجيب على سؤالك.

- لمصلحة من تريدون تمزيق الوطن ؟ من الذي وضع هذه الخطة بليل وحرضكم على تنفيذها ؟

ضحك المحقق حتى سمعت قهقهاته عالية وقال :

- يا لك من مغفل يؤمن بنظرية المؤامرة.

- نظرية المؤامرة هذه إذا تحولت إلى مشجب تعلق عليه عدم إجاباتك، فهي بحد ذاتها مؤامرة.

- حسنا يا محمد، يبدو أنك تفضل عدم التوقيع على البيان...هذا هو ما فهمته الآن.

- أجل...أرفض... وسأظل رافضا.

- ستبقى في الزنزانة إذن ولن تحصل على الفحوصات التي طلبت.

- أحنى محمد رأسه نحو الأرض، فيما نادى المحقق على العسكري الذي حمله إلى الزنزانة رقم 19 من جديد.

مضت السنوات في دورة الزمن المتسارعة، وكانت الأمراض قد شددت هجومها على محمد، كما أنه اشتاق إلى أهله اشتياقا كبيرا، فقرر أن يبحث عن وسيلة للهروب من المخيم كما فعل كثيرون عندما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.

السفر



كان الانفصالي مولود قد قرر الدخول إلى الصحراء بجواز اسباني في مهمة إعلامية، وغير من شكل لحيته وملامح وجهه، وعندما دخل الحدود كانت المخابرات تراقبه خطوة خطوة، إذ كانت على علم بقدومه منذ الانطلاقة الأولى.

كان مطار مدينة العيون غاصا بالمسافرين، وكانت الطائرة قد حطت ليلا، فنزل في فندق من فئة خمسة نجوم يتوسط المدينة، قام وأطل من الشرفة، فبهره التشييد والعمران الذي أصبحت عليه مدينة العيون، لم يصدق ما رأى، وكان يظن أن الصور التي تلتقط في الإعلام لا تعبر عن الحقيقة التي كان يناضل من أجلها لسنوات عديدة، كان يسائل نفسه في كل لحظة : هل هذه هي مدينة العيون التي تركها الاستعمار الاسباني عبارة عن مجمع من الثكنات العسكرية، وليس بها إلا فندقا واحدا هو فندق برادور الذي كان يستقبل الضباط الاسبان ؟ وبعض دور الصفيح القليلة تحيط بها الأسلاك الشائكة وأبراج مسلحة تطوقها ؟ العيون هي المدينة التي اشتق اسمها من كثرة العيون التي تجري بها وتغذي ينابيع وادي الساقية الحمراء وقد جفت مياهه، فكيف عادت الخضرة من حوله ؟

كان مولود يرى ظلال الأشجار والنخيل خلف البنايات تحركها ريح خفيفة تحمل دخان سيجارته نحو الأفق،ويرفع رأسه المثقلة بالأفكار نحو القمر الذي كاد أن يتدلى ليحادثه، فتمدد على أريكة خشبية قرب النافذة الواسعة وصار ينفث سجائره الواحدة تلو الأخرى.

نزل مولود في صبيحة ذالك اليوم إلى الأسواق، فرأى المواطنين منسجمين متعايشين من شتى بقاع الوطن، ولا يأبهون للأطروحات الوهمية، كانت الأكلات في المطاعم الشعبية تتنوع بين الكسكس الدكالي، والطنجية المراكشية، والبكبوكة

الوجدية، والطاجين السوسي، والقطيفة الفاسية والحرشة الشمالية إلى جانب الأكلات الصحراوية المختلفة... أشكال الناس تعبر عن لوحة منسجمة بديعة تجمعهم جميعا على دين واحد، ولغة واحدة، ووطن واحد، ومصير واحد... أطفال المدارس، وشباب الثانويات، يتوجهون زرافات إلى مؤسساتهم التعليمية، كان يطوف بينهم وهو يتعجب كثيرا من التواصل التلقائي والعفوي الذي يطبع تعاملات الجميع تحت لواء الوطن الواحد... كان يتنقل بقبعته الفرنسية ومعطفه القطني الراقي وهو يقلب النظر في الأحياء الراقية والبسيطة، وينجز تقارير وصفية شكلت له صدمة كبيرة.

قررمولود بعد أيام من الإقامة في العيون أن يسافر لتفقد أحوال قبيلته،وهو ما لم يكن عازما على فعله، فاستقل حافلة جيدة اخترقت طريقا طويلا ومعبدا صفت على حافته العلامات والترقيمات، كان يرى رجال الدرك على كل النقاط، لقد تم تعبيد الطريق وشيد على أطراف القبيلة باب عظيم رفع فوقه العلم المغربي، فتحولت الخيام إلى مبان عديدة، وأدخلت أسلاك الكهرباء إلى المساكن التي فتحت إلى جوارها الدكاكين والأسواق العامرة، كان يفتح عينيه وهو يكاد لا يصدق ما يرى أمامه من العمران والتشييد، نزل من الحافلة وصار يجوب أرض مسقط رأسه، الأزقة المجهزة بكل مستلزمات الحياة، كان يرى في حي الموظفين مغاربة الشمال والجنوب، والشرق والغرب، انتقل إلى حي الاسبان فوجده يعج بالحركة، وتمكن بصعوبة تذكر ملامحه، يتوسطه مسجد عامر كان يخطب فيه أخوه محمد خطبة الجمعة قبل اختطافه، وقد تم إصلاحه وفرشه بالسجاد الجيد، وقد ظل الخطيب الجديد المبتعث من مدينة الداخلة يذكر محمدا، ويدعو له بالفرج والانعتاق من سجون الانفصاليين، لأنه تتلمذ على يديه وتعلم منه الكثير، اقترب مولود من بعض الشيوخ الذين يجلسون على جنبات المسجد وهم ينتظرون دخول وقت الصلاة، فسألهم عن أهله آل سالم، فوجد منهم استقبالا وترحيبا لا يوصف، وقاموا يقبلونه ويشمون رأسه حين علموا أنه أخ محمد خطيب مسجدهم الذي افتقدوه من سنين عديدة، كان يشعر بالخجل والخيبة، ويظهر لهم أسفه لما حصل لمحمد من السجن والاختطاف، لم يكن أحد منهم يعلم أنه ينتمي إلى تلك الفئة التي تتوق إلى تمزيق وحدتهم وإعادتهم إلى فترة الاستعمار البغيضة، فاختطفت محمدا لتنفيذ ما عزموا عليه وبيتوه بليل.

تقدم نحو الحي الذي يقطنه أهله، فإذا هو بيت كبير من ثلاثة طوابق، تخترقها نوافذ واسعة، وعلى الطرف المجاور أرض شاسعة نصبت عليها خيمة كبيرة تسع أفراد العائلة الكبيرة كلما هموا بالسمر تحت ضوء القمر، إنها العادة الملحة التي لا تفارق الصحراويين وهم يتحلقون حول كؤوس الشاي الساخن، كان بعض الشيوخ يركضون وراءه وهم مسرورين بعودته.

طرق أحد الشيوخ الباب طرقا قويا، ففتح شاب وسيم في مقتبل العمر، وصار ينظر إلى مولود الذي نزع نظارته الشمسية وهم بالدخول، فقال واحد من الذين رافقوه :

- سعيد يا بني، هذا عمك مولود الذي اختفى من سنين عديدة.

نظر إليه الشاب مطولا وقال وهو يحضنه :

- عمي...عمي... هل أنت حقا عمي مولود...تفضل... مرحبا بك...تفضل... لطالما سمعت بك.

دخل الشاب مسرعا وهو يصرخ :

- أمي...أحمد... فاطمة... عبد الرحمن..انزلوا فورا..أنا هنا... في غرفة الضيوف...عمي مولود رجع...عمي مولود رجع إلينا...

جلس مولود في غرفة الضيوف التي رتبت بعناية فائقة، وعلى أحد جانبيها مائدة دائرية كبيرة صفت عليها بعض التحف والورود التي زادت المكان رونقا وجمالا، كان ينظر إلى لوحة معلقة على الجدار تمثل منظرا خلابا لمدينة يفرن، وتحتها على المنضدة علم مغربي صغير، إلى جانبه ورقة ذابلة مثبتة تحت زجاج المنضدة وقد كتب عليها أبوسالم وصيته لأبنائه وأحفاده بحروف عربية وإسبانية وفيها: «إلى أبنائي

و أحفادي، احفظوا عهدي ودافعوا عن وطنكم، فالذي لا يحب وطنه لا يستحق أن يدفن على أرضه...أبوسالم»

اهتز كيان مولود اهتزازا، وتململت أطرافه، وهطلت دموعه كالغيث،و لم يشعر إلا وهو محاط بأهله وأبنائهم الشباب الذين لم ير أي واحد منهم من قبل، كانوا يحملون في وجوههم البشر والفرح، وتكتم عيونهم الكثير من الأسئلة والمفاجآت.

علم أن سعيد الذي فتح له الباب هو الابن الوحيد لأخيه محمد الذي مازال قابعا في سجن تندوف، فشعر بقلبه يتمزق تمزقا عظيما، كان يخصه بنظراته المشفقة أكثر من غيره، انهمك الجميع في التعرف على مولود وتحيته والسلام عليه، وعندما حان دور سعيد ابن محمد، خصه مولود باحتضان مطول، وأحس بالدمع يهطل من عينيه، فتمالك نفسه، ووقف منتصبا يسأله عن دراسته، فعلم أنه يدرس بكلية العلوم في مدينة أكادير، وأنه من الأشبال الذين يحظون بعناية خاصة، كان على دراية كبيرة بما يعانيه والده محمد الذي يتمنى أن يأتي اليوم الذي يراه فيه شابا يافعا، بعد أن تركه صغيرا لا يدرك الحقيقة.

قدم العديد من أبناء العمومة والمعارف للاحتفاء بمولود، وكان الجميع يسألون عن محمد الذي اختفت أخباره، كانت زوجته التي ذابت كمدا وداست تجاعيد الحزن وجنتيها تراقب شفتي مولود كلما هم بالحديث، كانت تتمنى أن يبوح بخبر عن زوجها المختطف، كان يتألم وهو يراها تبكي وتتأوه، وشعر فجأة أنه هدم صرحا عظيما وسط عائلته، وأنه ظلم أخاه ظلما كبيرا.

نام جميع من في الدار في تلك الليلة متأخرا، وسكنت الحركة بعد احتفال ساهر، إلا مولود الذي ظل ينصت إلى سكون الليل وضميره الذي لا يسكن ولا يهدأ، سيما وأن أهله بالغوا في الاحتفال به، وعمروا الموائد بما لذ وطاب من الحلوى والمشروبات، والتفوا حول بعضهم شيبا وشبابا في تلك الخيمة العامرة ليشعروه بما يجول في خواطرهم، كان يلبس القميص الصحراوي الذي أهداه إياه أحد أعمامه، كان قد توسط المجلس بعد أن سبقه عطره الفواح إليه، لم يستطع أن يشعل سيجارة واحدة احتراما وتقديرا لذلك الصفاء المادي والمعنوي الذي تنعم به المجالس العائلية في الصحراء، حيث ملأت رائحة بخور العود الأصيل أرجاء الغرفة ابتهاجا بقدوم الضيف الجديد.

وقف أمام النافذة في ظلمة الليل وهو ينفث سيجارته نحو الفضاء وكأنه ينفث آماله، كان الطبيب قد حذره مرارا من سرطان السيجارة الزاحف نحو رئتيه، ولكنه يشعر أن دخانها يهزمه، وأنه في هذه الرحلة صار أضعف مما كان يتصور، ولم يدر بخلده أن الذي تهزمه سيجارته وحلمه الصغير بالمتعة التافهة لا يمكن أن يهزم وطنا بأسره.

استطاب مولود المقام بين أهله استطابة، وعشق تلك الصحراء عشقا، خصوصا وأنهم عقروا ناقة لأجله، واحتفلوا ثلاثة أيام بقدومه، وعانقه الكبار والصغار من الأهل والمعارف والجيران، فانتعشت نبتة الرحم في قلبه واخضرت أوراقها، فقرر أن يمدد إقامته ويمكث بين أهله وقتا إضافيا ينعم بالدفئ العاطفي الذي حوله فقدانه إلى آلة تدمير حقيقية، كانت بنية صغيرة من بنات عمومته لا تفارقه، وتحب أن تلهو بهاتفه وتمسح على وجهه الذي أرسل لحيته، فقد كسر روتين الانحناءة على المغسل كل صباح لإزالة تلك الشعيرات التي تجرؤ على الظهور في وجهه بكل عناد وبشكل معتاد كل يوم، وصار ينام احيانا حتى تتوسط الشمس السماء، ويسهر حتى يغيب القمر، يستمتع بدورانهما بعيدا عن صخب مدريد وقصص المبادرات والاجتماعات واللقاءات والصفقات والبيانات التي ابتلعته سنين عديدة، لم يتزوج ولم ينجب أبناء، ولم تكن له الفرصة في التفكير في أي استقرار عائلي، فكانت تلك البنية الصغيرة كالعصفورة أمامه، يمسك بيدها وهو يتجول مستمتعا بخطواته على الأرض التي نبت عظمه ولحمه عليها، وقد تجرأت عليه مرة وأدخلت يدها في أمتعته الخاصة، فأخرجت مفاتيحه المربوطة بدمية صغيرة على شكل راقصة «فلامنكو» تحمل على صدرها علم الانفصاليين، حملتها وارتمت على مولود وهو بين أهله وصارت تصرخ :

عمي..عمي... أرجوك... أريد هذه الدمية... أريد أن ألهو بها... إنها جميلة.

سقطت المفاتيح فجأة، فرآها مصطفى وهو أحد الشبان الذين أعجبوا بالقادم الجديد مولود، فأصابته دهشة كبيرة، واكتشف أن عمه ينتمي إلى أولئك النفر الذين يريدون تمزيق الشمل والعودة إلى فترة الاستعمار في ثوب جديد، انتزع مولود منها المفاتيح بخفة وهدأها، ولم يعلم أن مصطفى قد شك في أمره.

قام الشاب مصطفى مسرعا، واتجه نحو والده الذي كان يهم بمغادرة المجلس العائلي وقال هامسا :

- أريد أن أخبرك بأمر مهم وعاجل يا أبي.

قام والده مودعا، ثم أمسك بيده وغادرا معا المكان، اختارا أن يجلسا في دكان التجارة الذي يديرانه وسط السوق، فقال مصطفى دون ان يفتتح كلامه بمقدمات :

- أبي... هذا الرجل الذي نحضنه ونحتفل به منذ أيام رجل غادر، إنه من تلك الطائفة الانفصالية التي تزعم أنها...

قاطعه والده مسرعا :

- لا تتعجل يا بني وتصدر مثل هذا الاتهام، رأيت عليه فرحا وإعجابا كبيرين بوطنه و أهله.

- لا أظن ان ذلك صحيحا يا أبي، علم جمهورية الوهم معلق على حاملة مفاتيحه، رأيته بعيني... أجل لقد رأيته.

صمت والد مصطفى قليلا ثم قال :

- سأفاتحه في الموضوع مباشرة وأتأكد بنفسي من ذلك... لا أظنه مجنونا إلى الحد الذي يدفعه إلى التمكين للأعداء وتمزيق شملنا من جديد.

- أعلم أنه ينفخ في رماد صار هباء منثورا بعزمنا على الوحدة والتلاحم ولكن... أن نوفر له المأوى والترحيب ؟ هذا غير مقبول البتة.

- قلت لك يا مصطفى سأصارحه، وأخبره أن جماعته هذه ليس لها موطئ قدم بيننا، وأنما هي مجرد دعاية إعلامية انمحت ميدانيا وانطفأت أنوارها.

- أبي... أ... أنا لي رأي آخر، أرى أن نفتش أولا أمتعته، ربما يحمل أسلحة أو منشورات أو ما يحاول به التغرير بالأبرياء وسط أهلنا... هذا سيكون أمرا غاية في الاستبلاه والسخافة.

- اطمئن يا مصطفى، ليس بيننا مغفل ساذج يسمح لأفكاره أن تخترق ضميره، لقد جربنا الوحدة والأمن والأخوة والاستقرار، هذه الجماعة لم يبق لديها إلا بضعة مغرر بهم، الوحدة أمر حاصل... وأظن أن الكثيرين منهم سيستفيقون على الحقيقة التي لا مفر منها، وربما كان هو منهم...دعه يرى ما ننعم به من الاستقرار والتلاحم، وسينقل ذلك إلى دواخل ضميره قبل أن ينتقل إلى إخوانه الذين وفر لهم أعداء وحدتنا المال والمأوى واستعبدوهم بهما.

سكت مصطفى برهة وقال :

- إذا تأكدنا من خيانته، فسأذهب بنفسي و أخبر الشرطة...أظن أن هذا هو واجبي.

نظر إليه والده وقال مبتسما :

- لا بد أن تكتم هذا الأمر الآن، وسنفتش أمتعته أولا.



لاح ليل هادئ، وخرج مولود إلى خارج المدينة في تلك الصحراء الفسيحة لوحده، كان يخترق الأزقة والشوارع دون ان يعترضه أحد، يتأمل تلك الدور الهادئة التي أطفئت أنوارها، وسكنت حركاتها، ضميره وحده الذي لم يعرف إلى السكون سبيلا، فقد كان يراجع نفسه ويرحل بذكرياته بعيدا نحو الماضي، ويستعرض سنوات عمره التي قضاها في قضية خاسرة يلعبها مختفون وراء الستار بدقة متناهية، تراءت له صورهم وهم يرتبون تلك الاجتماعات و المنتديات المتناسلة، ويخرجون بالبيانات والحوارات الساخنة المصنوعة على عجل، كانت تحركاتهم لأجل إقناع العالم أن الصحراويين يعيشون تحت نير العذاب، وأنهم يتوقون إلى معانقة الحرية من جديد تثير حنقه، أدرك إلى أي مدى ينعم الناس بالهدوء والطمأنينة وينطلقون نحو البناء، وأدرك أيضا إلى أي حد يقابلون بسخرية تلك الدعوات الجوفاء، والتي لا توجد إلا في مخيال الذين يديرون المعركة على الساحات الوهمية، لقد رأى ذلك جليا لدى أسرته الصغيرة والكبيرة.

ظل مولود يمشي على غير هدى وهو يداعب الأرض برجليه الحافيتين، تحمل يداه حذاءه الصحراوي الأصيل الذي اقتناه من مدينة العيون، إذ يحلو له أن يملأ رئتيه المنهكتين بما يكفي من عبق الوطن، يختلس نسيم الريح الخفيفة التي تحمل إلى شهيقه و زفيره دفقات الطفولة وذكرياتها، وعندما قفل راجعا، كان مؤذن الفجر يصدح في ذلك الصمت الهادئ مؤذنا بقدوم يوم جديد.

كان يحلو لمولود إذا لم يغالبه النوم أن يجالس أبناء عمومته على موائد الشاي في صالات تلك البيوت المتراصة ، يتأمل بإعجاب أسنانهم البيضاء وشفاههم النظيفة، يتحدثون عن أنفسهم وعن آمالهم وطموحاتهم بعفوية كبيرة، وقد ينفقون وقتا طويلا للبحث عن حل لمشكلة فرد من العائلة أياما، ويسهرون جماعة على إيجاد الحلول المناسبة لها، حدثوه عن والده سالم الذي ظهر بعد غيابه مدة طويلة، ومات بين أهله دون أن يتمكن من رؤية أبنائه، ولكنهم حدثوه مرارا عن أخيه محمد الذي كان شيخهم وملهمهم، ولم يتركوا مناسبة إلا وأبلغوه رغبتهم في قيامه شخصيا بالبحث عنه ليعود إلى وطنه، كان يحرك رأسه موافقا والألم يعتصر قلبه، خصوصا حينما يرى ابنه سعيد الذي شب دون أن ينعم بصحبته، فلطالما رافقه ليتفقد مكتبة والده التي علاها غبار كثيف فتتقطع أوتار قلبه.

في إحدى الليالي الهادئة، دلف مصطفى ووالده خلسة إلى غرفة الضيف مولود، والذي كان يسامر أهله كعادته كل ليلة، فقصدا حقيبته الشخصية، وفتحاها بخفة كبيرة، فلم يجدا غير بعض المعاطف وربطات العنق التي كانت تفوح عطرا، فتحا حقيبة يده فعثرا على بطاقة الائتمان وجواز سفره الاسباني، وكتابا عن قضية الشعب الفلسطيني، عاودا البحث مرارا فلم يعثرا على تلك المفاتيح أو ما يدل على أي أثر لما يتوجسان منه، أسرعا، فأغلقا الحقيبة بهدوء، وأعادا كل شئ إلى مكانه وفي قرارة نفسيهما أن يعاودا البحث مجددا.

كان أحد أبناء عمومة مولود يقطن بمدينة الداخلة، وأرسل الدعوات إلى جميع أفراد عائلته لحضور حفل اقترانه بفتاة من مدينة الرباط تعمل مدرسة في تلك المدينة العامرة، فكان مولود سعيدا بهذه الدعوة، واستقل مع أفراد عائلته الحافلة، وصار يمتع ناظريه بالتملي بالأرض التي ولد فيها، كان العمران الذي شيد على مدى سنوات يبهره، ويشعره أنه في أرض تمتلئ حياة وتنبض حركة.

ومنذ انطلاق أجواء الاحتفال، وهو يشعر أنه بحاجة إلى توقيف دورة الزمن لتتاح له الفرصة للمزيد من المتعة، فقد أخذ جو العرس بلبه، وتعجب من انسجام العائلتين وفرحهما ببعضهما، كان الشاي ذو الحلاوة المركزة هو وحده الذي نغص عليه سروره، إذ ارتفعت نسبة السكر في دمه وسار يطلب شايا بدون سكر ومعه كوب ماء، ما حرمه من عادة «الجر» التي تطيب للصحراويين عادة حين شرب الشاي.

سحرته مدينة الداخلة التي كانت بالأمس مجرد مبان مترامية عبارة عن حاميات عسكرية اسبانية وبعض مراكز الصيادين، تساءل في قرارة نفسه كيف تحولت إلى مركز حضاري في سنوات معدودة، كان يمد بصره باتجاه البحر الذي يتيح بخليجه الداخل في اليابسة أن تتراقص الأسماك فوقه كأنها ستنط نحو البر، ما وفر

للصيد ثروة سمكية كبيرة، فانتشرت مصانع التعليب والتجميد، وانخرطت المدينة في دورة تنموية متسارعة.

كان مولود على موعد مع حفل العرس الذي يحضره لأول مرة في حياته، فقد قضى جل طفولته بين أحضان روزا التي لم تكن تسمح لأمه باصطحاب أبنائها إلى المناسبات العائلية إلا نادرا، إلى أن أمرتها بالمكوث في الاقامة بشكل نهائي، فصار يتجول بين الخيام الكبيرة الملونة التي نصبت خارج المساكن لإحياء العرس، والتي غصت بعد مدة وجيزة بالنساء في أحد أطرافها وهن يرتدين الملاحف الأنيقة ويقدمن التبريكات، بينما جلس الرجال بلباسهم الصحراوي المشع وهم يحيون بعضهم، كان المدعوون من مدن أخرى كالقنيطرة ومراكش و اكادير، كما حضر بعض أعيان السلطة الذين دعوا إلى الحفل وخصص لهم مكان متميز، ثم انطلقت الأهازيج وأشعار المدح، وامتد الحفل لساعات عديدة.

كان مولود قد تجاوب مع الرقص والأهازيج وصفق مطولا، ونسم نفسه بعبق البخور التي تنبعث من أرجاء الخيمة، وكان يكثر من التمايل والتنقل من مكان إلى آخر، كأنه طفل تعلم المشي حديثا، تعرف على كثيرين من أبناء عائلته المنحدرة من الجد الأكبر، كان أهل العروس الرباطيين قد توسطوا الحاضرين بجلابيبهم البيضاء وعلى رؤوسهم الطرابيش الحمراء في تناغم رائع، كانوا يحاولون تعلم بعض ألفاظ الترحيب والتبريك باللهجة الحسانية، اقترب والد العروس من مولود وقال له :

- نبئت أنك مقيم في مدريد من سنين، وأنك إعلامي مشهور هناك.

رد مولود بفخر :

- أجل، هذا صحيح.

- سأعرفك على ابني جواد، وهو أيضا إعلامي مقيم في مدريد، ويرأس هناك جمعية للتضامن مع محتجزي تندوف، وله نشاطات كثيرة في هذا المجال... سيحضر الآن لينضم إلى الحفل.

قال مولود مرتبكا :

- يتضامن مع محتجزي تندوف ؟... أ... أ... في مدريد ؟... هذا رائع... أ... أ.... أنت تفتخر به إذن...

- أجل... أجل... لقد حضرللتو، انظر هناك، إنه يجلس في الطرف المقابل لبوفيه الفواكه، لابد أن تتعرف عليه.

رفع مولود بصره نحو جواد، فإذا هو خصمه اللدود الذي لا يترك ندوة أو محاضرة للانفصاليين إلا وحضرها ليفند أقوالهم، ولطالما واجه مولود في العديد من المحافل الدولية والاسبانية، فهو متخصص في العلوم السياسية وله إلمام واسع بتاريخ الصراع المفتعل، رفع والد العروس يده ليشير إلى ابنه جواد، ويقدم له مولود الذي عرف بنفسه أنه رجل أعمال وصاحب شركة إعلامية في اسبانيا، فسارع مولود إلى جذبها بقوة حتى كادت أن تنخلع وقال :

- المعذرة...مهلا... مهلا... أ... أ... سأقوم بنفسي للسلام عليه، ولكن... ولكن... حسنا.... لحظة... يبدو أن لدي مكالمة هاتفية عاجلة.

خرج مولود مسرعا وهو يدير وجهه نحو الاتجاه الآخر، أسرع الخطى حتى كاد أن يسقط على وجهه، ولم يتوقف إلا خارج خيام العرس بمسافة بعيدة.

لم يصدق مولود أنه نجا من المأزق الذي وجد نفسه فيه، فاستقل سيارة أجرة والارتباك الشديد يسيطر عليه، كان السائق يشغل المذياع وهو ينظر في المرآة إلى وجه مولود الذي لم يخف توتره وقال :

- أسرع من فضلك، لدي موعد هام لا بد من...

قال السائق بصوت هادئ :

- السرعة المسموح بها لا أتجاوزها يا سيدي، لهجتك تميل إلى الجزائرية... هل أنت مغربي ؟

- لم يسبق لأحد ان طرح مثل هذا السؤال على مولود، فوجد نفسه في مأزق آخر، فقال وهو يتصنع الضحك والمرح :

- مغربي ؟ ههه... أجل... أنا مغربي، وشعاري هو : الله، الوطن، الملك... أ... هل يبدو علي غير ذلك ؟

- كلا... كلا... ظننت أنك من الجزائر بسبب لهجتك.

- اجل... لدي شركة بها عمال جزائريون، وربما أثرت في لهجتهم.

- الجزائريون أشقاؤنا، وهم أناس جادون وطيبون... أحب أن يشتغل ابني في شركتك، فهو جدي وحازم...ليتك تقبل...

وجد مولود نفسه مرة اخرى في مأزق وقال :

- اترك لي رقمك الهاتفي... أ... أ... هل وصلنا إلى المحطة ؟

- أجل... فهي أمامنا في نهاية الشارع.

نزل مولود من السيارة وفي جيبه رقم هاتف سائقها، ووجد لسانه يردد شعار الوطن، لم يصدق أنه تلفظ به بعد كل هذه السنين من الجفاء طوعا وبكل حرية ومسؤولية، فصار يردد هذه الكلمات في ذهنه : نعم أنا مغربي... أجل... أنا مغربي... مغربي... مغربي من الصحراء...ظل يكررها بداخله إلى أن انطلقت القافلة بخفة تقطع المسافات.

- هاتف مولود أهله معتذرا عن الاحتفال، ثم عاد إلى البيت وركن في مكان مظلم من غرفته والحسرة على فراق تلك الجلسة الحميمية تؤرقه.

كانت الخادمة التي فتحت له الباب تستغرب من جزعه وارتباكه وعودته قبل نهاية الحفل فقالت :

- سيدي مولود، هل أنت بحاجة إلى أن أعد لك طعاما ؟

- لا بأس...لا بأس... لست بحاجة إلى الأكل الآن.

انصرفت الخادمة بسرعة وأخبرت زوجها بحالة مولود وارتباكه الشديد الذي دفعه إلى تدخين عدد كبير من السجائر حتى خرج دخانها من أنفه، بينما انهمك مولود في لملمة حزن كبير بداخله، فتح الرسائل والمكالمات التي وردت على هاتفه، ثم ما لبث أن أغلقها متجاهلا، كان يعيد مشهد العرس الذي أدخل الكثير من السرور على قلبه، وأعاد مشاعره إلى جذورها المنبثة في أعماق ذاكرته وكيانه، مر على صور المواطنين المسالمين الذين صحبوه في الحافلة وهي تخترق الطرق المعبدة اختراقا، قام نحو بهو البيت وفتح جهاز التلفاز، ثم صار يتنقل بين القنوات الاسبانية التي دأب على مشاهدتها، قرأ عناوين الأخبار، فرأى خبرا عن عائلات ضحايا الصيادين الاسبان في جزر الكناري، والذين هاجم البوليساريو بواخر صيدهم بكل وحشية، كان أهاليهم يطالبون حكومتهم بمتابعة المسؤولين عن تلك العمليات، ثم تنقل نحو القنوات الاسبانية الاجتماعية، فما لبث أن شعر بغربة دفينة تكتم أنفاسه، أقفل الجهاز فورا، ثم توجه نحو المطبخ وأعد كأس قهوة مركزة، وأخذ يرشفها أمام النافذة المطلة على الخارج، كان الحارس ينظر إليه وهو يترقب حركاته من خلال النور الذي يشعله في كل غرفة من بيت آل سالم، وكان مولود أيضا ينظر إليه وهو يقبع في جانب من الزقاق مستندا إلى عمود النور، وحدها بعض القطط تتراقص أمامهما باحثة عن فأر شارد.

لم يلبث مولود أن عاد إلى غرفته التي ضاقت عليه، ووقف أمام المرآة ينظر إلى نفسه وهو يضع لباسه الصحراوي الأبيض المشع، كان يمرر يديه على صدره ويشم في ثوبه رائحة بخور العرس، تمنى لو لم يحضر جواد خصيمه ويفسد عليه مقامه الطيب بين أهله وأحبابه، انكفأ على نفسه، ثم أغمض جفنيه بحثا عن نوم يخلصه مما يكابده.

جفاه النوم وظل يتفكر في القدر الذي قاد خصمه اللدود جواد إلى أن يصبح من أصهاره المقربين، وتجمعه به خيمة واحدة في الصحراء التي ظلت محط نزاعهما

ونقاشاتهما، بعد أن جمعت صورهما صحف اليمين واليسار الاسبانية في تبادل وتباين شديدين في الرأي والتدبير، كانت الأسئلة تتردد في ذهنه لدرجة الجنون : كيف تصغر مساحات الأرض إلى هذا الحد ليحصل ما حصل وأقف أمام جواد صاحب الحجة والبيان ؟ ماذا لو قام وشهر بي وسط الحاضرين وأخبرهم أنني من المناوئين لوحدتهم ؟ وأن أول من سيتشتت هو ذلك العرس الذي جمع أسرتين من الوطن الواحد ؟



عاد أفراد عائلة مولود، ومضى أسبوعان كاملان استطاب فيهما مولود مقامه، فبدأوا ينتظرون الإعلان عن ظهور هلال رمضان استعدادا لصيامه، ويقلبون في جهاز التلفاز عن خبره، تجمعوا كلهم حوله مترقبين، فإذا بالمذيع يعلن عن خبر أول مفاده أن مجموعة من المغرر بهم في جماعة الإنفصاليين قد التحقت بأرض الوطن، ونقلت صورهم المباشرة وتصريحاتهم الواضحة التي تفيد بأنهم تأسفوا على ما ضاع من سني عمرهم في قضية خاسرة، وقالوا أن معنويات تلك القيادات الواهمة في تدهور مستمر، خصوصا بعد أن تخلت عنهم كثير من الأطراف الغربية والأحزاب السياسية والجمعيات التي كانت تدعمهم معنويا وماديا، وقالوا أن أطرافا عديدة تحترم قرار المغرب وسيادته على أرضه ، ما أقنعهم أن العودة إلى الوطن ضرورة حتمية، ولا يشبهها إلا عودة الطفل إلى أمه... وذكر المذيع بعدد كثير من الدول التي تخلت عن اعترافها بجمهورية الوهم، بما فيها تلك التي كانت بالأمس من أشد المساندين والمؤسسين، وأن حق المغاربة في أن يتوحد وطنهم لا يعلو عليه شئ.

كان مولود يتابع الحوار بشغف كبير، فقد تعرف من خلال الصور المذاعة على ثلاثة من العائدين الذين فروا من جمهورية الوهم، وهم من أعز أصدقائه الذين كانوا بالأمس يدافعون عن الأطروحة الانفصالية في كل النوادي، فاندهش لاستقالاتهم الجماعية بتلك السرعة، وأيقن أن كل الحسابات المحلية والدولية في غير صالح الشرذمة الآبقة، وأن نداء الوطن يقرع قلوبهم وآذانهم كل هذه السنين، وأن تجاهل النداء الدفين والارتماء في أحضان الأجنبي مؤامرة على ضمائرهم الحية قبل أن تكون مؤامرة على وطنهم الوفي، وقد فهم ذلك العقلاء ووعوه سريعا وشكلوا نزيفا لا يتوقف عن التدفق نحو حدود الوطن الحاضن.

كان مصطفى ووالده يتابعان اهتمام مولود بخبر العائدين، ويترقبان تعليقه في أي لحظة، ليتيقنا أنه فرد من الانفصاليين، إلا أن مولودا أحنى رأسه بعد الخبر مباشرة، وشرد خياله بعيدا، وسيطر عليه صمت كبير لم يقطعه إلا إعلان ظهور هلال رمضان في ربوع الصحراء المغربية.

انشغل أفراد العائلة بالحديث عن المناوبة التي دأبت العائلات الصحراوية على اتباعها في شهر رمضان، حيث يتناولون طعام الإفطار لدى العائلة والأصدقاء، يجتمعون شيبا وشبابا على أطباق الرز واللحم المشوي والفاكهة، تتميز هذه السنة بقدوم رمضان في جو رطب يسمح لهم بالاستمتاع بالسمر حول موائدهم ومساجدهم لأداء صلاة التراويح التي تعم سائر مساجد المملكة.

كان مولود يتأمل الحركة الكبيرة التي انطلقت في الدار بين أفراد عائلته، صغارهم وكبارهم، وعندما خرج ليلا كعادته، وجد الحي يهتز بكامله فرحا بقدوم رمضان، كان يمشي لوحده متأملا، واشترى في السوق المجاور بعض المأكولات الخفيفة التي نالت إعجابه، فقد قرر أن يصبح صائما على غير ما اعتاده منذ أن تربى في أحضان روزا، كان يحتك بالناس ويضاحك الصبيان من حين لآخر، لأن ذلك يزيد من شعوره بالانتماء والرسوخ في وطن يفرح بقدومه، تلح عليه هويته في أخذ نصيب من المساحة المشتركة بين ذويه الحقيقيين، قصد أحد الصاغة الذي ينحت حلي نساء الصحراء بدقة بارعة، واشترى دمالج فضية لزوجة أخيه محمد، وعندما عاد إلى البيت، لاحت صورة العائدين إلى الوطن في ذهنه، تصحبها قطرات المطر التي لا تسقط في الصحراء إلا لماما، فهش الناس لرمضان وهو يستهل قدومه بالمطر الذي يغذي بعض الواحات، ويرسل رحمة الله إلى تلك الرمال المتراكمة.

مر يومان بعد رمضان، فقرر مولود الرحيل إلى مدينة العيون، كان وداع العائلة صعبا، فقد تجمعوا كلهم حوله وهم يعبرون له عن تقديرهم وشوقهم الكبير إلى عودته ثانية، استقل سيارة أجرة نحو المحطة، ومد يده من النافذة مودعا، بينما انسابت دموعه كأنه طفل فطم قبل الأوان، كان ضميره يلح عليه قائلا : عد إلى أهلك وذويك... عد إلى مسقط رأسك ولا تجاف وطنك في مقابل المال والوهم، إن الذين يحرضونك ينعمون بالعيش في أوطانهم ولا يقبلون عنها بديلا... كما أنهم لا يقبلون أن يقتطع شبر واحد منها لصالح أي كان... متى تعقل يا مولود ؟... متى ؟... متى ؟...متى ؟...، أخرج بطاقته الشخصية الاسبانية، وصار ينظر إليها مليا وهو يتذكر كم لزمه ليحصل على الجنسية الاسبانية، ويغير كل شئ في تفاصيل حياته إلا مكامن قلبه ولون جلده الذي ظل يرفع راية الغربة فوق أسواره... ردد في نفسه متشائما: وهل بقيت لديك أسوار يا مولود ؟ الأسوار ؟ هل هناك من يستطيع أن يمنعك من شئ قررت أن تقبل عليه ؟ هل هناك من يستطيع أن يمنعك من قول : أنا مغربي... أومن بوحدة بلادي من شمالها إلى جنوبها.... هي كذلك تاريخا وواقعا... فلم تعاند يا مولود ؟... لم ؟... لم ؟...هل جنيت شيئا وراء هذه السنين التي مضت من عمرك وصيرتك طفلا يستعيد حضانته ويطلب إيواءه من أم طالما نادته أن عد...عد... عد يا مولود.... أنا بانتظارك... أنا بانتظارك....

شعر مولود بألم شديد في رأسه، فأخرج قنينة عطر وسكب منها على يده، ومررها على جبينه، ثم مضى مستقلا الحافلة المتجهة نحو العيون.

كانت ماريا رفيقة دربه بانتظاره، تعبر عن شوقها إلى الجلوس معه مجددا على شرفة الفندق فقالت :

- لقد تأخرت كثيرا يا عزيزي... ماذا حدث لك ؟ لم أستطع صرف الشيكات التي سلمتني إياها، لا أحب هذه المدينة، وأتمنى أن لا يطول مقامنا هنا يا مورو.

نظر إليها باشمئزاز وهو يستحضر صورة زوجة أخيه محمد التي كان يرى الأمل في عينيها وهي تستقبله، كانت تتمنى أن تجد لديه خبرا عن محمد، لم تكن تعلم أنه هو من أسلمه إلى تندوف بتلك الطريقة الغادرة.

اقتربت ماريا وقالت :

- مورو يا عزيزي...ما الذي حدث ؟... لقد تغيرت مشاعرك كثيرا...

صمتت قليلا و أردفت :

- مورو...هل أخذك الحنين إلى وطنك ؟... أنت تعلم... أ...أ... أحاول دائما أن أشاطرك شعورك عندما أكون في وطني وبين أهلي.

نظر إليها وقد زاد شعوره بالاشمئزاز والضيق وقال :

- لا شئ...لاشئ...دعيني الآن، أحب أن أبقى في الغرفة لوحدي...متى سنذهب ؟

- برنامج الرحلة هو كالتالي...

قاطعها مولود قائلا :

- أظن أنني سأغير موعد الرحلة، أشعر بتعب شديد.

- كثير من المواعيد تتوقف على حضورك يا مورو العزيز... وقد تأخرت كثيرا واضطررت لإحداث بعض التغييرات.

- لا بأس...لا بأس يا ماريا، هذا هو ما قررته الآن... لا بد أن أغادر.

جمع مولود في اليوم التالي حقيبته، وعاد إلى اسبانيا، قصد مكتبه وأغلق عليه الباب، وارتمى على أريكته، وصار يبكي كما لو كان طفلا صغيرا، شعر بالغربة الشديدة تنهشه، توجه نحو بار صغير يتوسط مكتبه، وصار يرمي بتلك القناني في كل مكان، تمدد باكيا وهو يرى أمام عينيه جلسات الشاي الساخن مع أهله البسطاء، فهو مازال يجد لذته في حلقه، قام مسرعا نحو علم جمهورية الوهم الذي طالما لثمه بالقبل أمام ضيوفه، فرماه تحت قدمه، شعر باختناق شديد فجذب ربطة عنقه ورمى بها بعيدا، كان يشعر بتشنج كبير ممزوج بالندم والحيرة.

طرقت السكرتيرة الباب لتدخل، فأسرع نحو الباب وأدار القفل بإحكام متجاهلا نداءاتها المتكررة، كانت رنات الهاتف لا تتوقف، فتجاهلها هي أيضا، وارتمى مجددا على أريكته الوثيرة ونبضات قلبه تتسارع، فسبقته دموعه إلى الأرض وقد أصابه دوار شديد، قام وأخذ حبة دواء مسكن مع كوب كبير من الماء أفرغ نصفه على صدره، ثم خلد إلى نوم عميق.

العودة



كان محمد قد سمع في تندوف بالكثير من العائدين إلى أرض الوطن، و الذين أعياهم التنقل بين المحافل الدولية، واكتشفوا أن الأيادي الخفية التي تحركهم، هي نفسها التي تشدد على الوحدة في بلدانها حين تمس مصالحها ويتعلق الأمر بانفصال جزء منها، معهم مجموعة من الجنرالات والسياسيين الذين كدسوا الثروات في البنوك، وحلا لهم سجن الأبرياء والمتاجرة بهم في أي مكان وزمان، وبعض الأحزاب المغرضة التي لها أجندات خفية لا ترى تحقيقها إلا في وطن ضعيف وممزق وتعمه الفوضى والاضطراب، إنها اللعبة التي وعاها للوهلة الأولى، بينما احتاج أخوه مولود لإنفاق أزهار عمره اليانعة من أجلها، وحالفه الحظ مؤخرا بعد زيارة وطنه وأهله، ومؤازرتهم له ليكشفها ويقف على أهدافها، فقد أصبح يتساءل في نفسه مرارا : هل ما زال الوقت سانحا يا مولود لاستعادة الأخوة ونبذ الفرقة ؟ كيف كنت تطيق فراق أهلك وأحبابك طيلة هذه السنين ؟ هل ما زالت هناك فرصة لإعادة الغرس وانتظار ثمار الحب الحلوة التي لم تتذوقها لدى المغرضين سنينا ؟ كان يفتح راحة يده ويغلقها كأنه يسلم على أهله من جديد، ويعاهدهم أن لا يعود إلى العقوق الذي مزق قلبه إربا إربا.

كان محمد يشترك مع أخيه مولود في الرغبة الجامحة في لم الشمل بأسرع ما يمكن، وسمع عن الكثيرين الذين فروا من جحيم تندوف، وتاقت نفسه إلى الوصال وإنهاء تلك التراجيديا الأليمة التي طالما شخصت فصولها على المسارح العالمية دون أن تجد من يغلق الستار ويعلن نهايتها إلى الأبد.

كانت تنقلات محمد خارج الزنزانة التي حشر فيها قبل سنوات قد خفت، وبما أنه لم يكن يرى صومعة لمسجد في ذلك المخيم البئيس، فقد كان يحرص على أن

يصلي مرارا أمام الناس، ليذكرهم بشعيرة الصلاة التي لا تجعل الانسان عبدا لأحد غير خالقه، يرسل رسائله الصامتة إلى الأطفال الذين بدأوا يشبون في تلك الأوضاع المزرية، يحشرون أحيانا في غرف ضيقة تسمى مدارس، ثم يعودون إلى واقعهم الذي لا يعلمون من صنعه، يتأمل عيونهم البريئة وقد سدها أفق مزق أوصالهم وشرد آمالهم، يرى أولئك الفتيات الصغيرات حافيات الأقدام وهن يحملن أواني الماء الآسن وقد تدفق نصفها على صدورهن العارية، ماذا لو علمن أن الحرية قريبة المنال ؟ ماذا لو علمن أن ثورة الحرية أو الحرية الثائرة يمكن أن تغير الكثير ؟ لو قمن بثورة على الظلم كقطرات الماء المتناثرة التي تأخذ مكانها قبل أن تأتي الشمس على تجفيفها ؟

كانت الزنزانة رقم 19 هي مأوى محمد الدائم، عاد إليها ذات مساء وهو يجر رجليه المنهكتين، تناول قطعة خبز جاف، وبلل ماتبقى منه بقليل من اللبن ليجعلها سحوره، ثم صلى العشاء، وانكمش على نفسه تحت غطائه الردىء الذي دأب على الالتحاف به منذ مجيئه القسري إلى المخيم، ليس لديه كهرباء و لا ما يستنير به، فتعود أن يتحول إلى سجين ضرير يختار مصيره كل ليلة، انطبعت في ذاكرته نقوش الجدار وأخاديد الأرض وثقوب الباب وعددها لكثرة ما نظر إليها نهارا، لم يكن يجد من السجناء من يشاركه أسراره، فقد تعلم مما فعله به أخوه مولود أن يتوجس من كل من يقترب منه، يختار أحيانا بنفسه من يحاوره، ثم سرعان ما يغلق عليه زنزانته المظلمة.

كان نوم عميق قد استبد به واستغرقه، إذ استيقظ فجأة حين سمع طقطقات خفيفة على الباب، لم يكن يحتاج إلى أن يقوم ليفتحه، لأنه لا يملك قفلا منذ أن انكسر في أحد الأيام الذي كان يصادف إحدى المناسبات الوطنية المغربية، حيث سمع أحد الحراس يقول أن هذا اليوم هو يوم احتفال العدو بالحادي عشر من يناير، وهو ذكرى وثيقة الاستقلال، فقام يصرخ دون أن يشعر وهو يردد : إنني أعلن احتفالي بهذه الوثيقة التي أجلت المستعمر الغاشم عن وطننا العزيز، يجب أن نحتفل بها جميعا ونجدد مطالبنا الوحدوية التي أمرنا بها الله، وأعزنا بها الاسلام، قال تعالى : واعتصموا بالله جميعا ولا تفرقوا... اعتصموا جميعا... جميعا... لا تفرقوا... لا تفرقوا...لا تفرقوا... لا.. لا.. لا تفعلوا...توحدوا...صار يرسل نداءاته المتكررة كما لو كان يخطب في مسجد أو في ثكنة للمقاومة، فقد أنهكته صورالظلم و التخلف والتبعية لحد لم يعد يطيقه، فرفع يديه المشققتين يدعو الله أن يكشف مؤامرات الأعداء ويوحد الأوطان، ظل يهتف متحديا إلى أن رأى فجأة حارسين اشتهرا في المخيم بالشراسة وعدم الرحمة يقصدانه، يطلق عليهما المسجونون في تندوف منكر ونكير، فهرع فورا نحو زنزانته وأحكم إغلاق قفلها وجلس يترقب، ضربوا الباب ضربة واحدة انكسر القفل على إثرها كما انكسرت عظامه بعده، قضى أياما عصيبة وهو يجمع حبات الخبز وبقايا الأكل الشحيح من ظهور النملات الزاحفة نحو جحورها في زنزانته لعلها تسد رمقه ، كانت الوجبة اليومية قد شحت واشتد عليه الوعيد، إلا أنه حمل قطعة القفل الحديدية المكسورة وأخذ يحاول تصليحها وهو يدعو : اللهم اكسر كل الأقفال...اللهم اكسر كل الأقفال...

كان إيمانه الكبير يسمح لروحه بالسباحة دوما خارج زنزانته الضيقة، خصوصا عندما يناجي ربه فتحلو له المناجاة ويفقد أي صلة بتلك الصور البشعة من حوله، فيجد رضى وسرورا عارمين بداخله، ويقوم نشيطا كأنه ينتظر الفرج القريب، كان أحد الصحفيين الفرنسيين قد سأله مرة عن سبب تشبته بحلمه وسباحته عكس التيار وقال له :

- أنت مثقف ولديك الكثير مما يمكنك استثماره لتحسين وضعيتك المادية... نفوذك قد يقلب أفهام كثيرين من حولك ويحولك إلى بطل، أخبرني...ما الذي تفعله هنا ؟

ابتسم محمد وقال :

- هذا السجن لا يرهبني... سأظل صامدا حتى آخر نفس... كل هؤلاء المظلومين في تندوف سيعودون إلى ذويهم يوما، لأن الليل المظلم يلاحقه الفجرالوضاح، و أحب أن أكون من الذين يحملون الشمع وهو يحرق أصابعهم ليستنير الآخرون...حب العطاء يغريني أكثر من حب الأخذ.

- ولكن هذا السجن مؤلم، وسنوات عمرك تضيع وراء أسواره.

- لا تخف، لقد آوى السجن رسالة نبي الله يوسف، وحضنها حتى خرجت في موعدها.

- يا لك من عنيد يتحدى مشوارا طويلا ... قد لا تعيش إلى نهايته.

قال له محمد واثقا :

- هؤلاء الأبرياء كلهم أمل في صمودنا نحن... إما أن نجدد صبرهم وثباتهم، وإما أن نبيعهم ونحن في مكاتبنا المكيفة نداعب هواتفنا النقالة بيد، وربطات العنق الباريسية باليد الأخرى...هذه مبادئي...

- يا لك من عنيد... سأظل أكررها... لو كنت مكانك لجعلت آخر أنفاسي الآن...أجل...سيكون أول ما أفعله هو الانتحار.

نظر إليه محمد وهو يمد قدميه الحافيتين اللتين تركتا خطان مستقيمان فوق التراب الجاف الذي يغمر الزنزانة وقال :

- الذي يعلم أن الأعمار بيد خالقه، لا يعجل بحتفها بتلك الطريقة ، سأظل هنا كالنملة التي قيل لها بسخرية : ستسافرين إلى الحج آلاف الكلمترات ؟ متى تصلين ؟ قالت : لا يهم متى أصل...حسبي أني على الطريق.

كان الصحفي الفرنسي قد ازاد إكبارا لمحمد، ونزع قبعته احتراما، ثم وقف وهو يؤدي له تحية التقدير، و يتساءل مستغربا عن سر الصمود بداخله دون أن يدرك الجواب.



كان محمد يستعرض الماضي كلما خلا بنفسه، وكثيرة هي المرات التي يخلو فيها بنفسه فيرحل إلى أزمنة اعز الله فيها دينه، وتوحدت الأمم والأعراق والشعوب في كل البلاد، وظل المستعمر الدخيل مطرودا مدحورا، كان يعلم يقينا أن أهل تندوف سيثورون لا محالة، وسيعودون إلى أهلهم ويخترقون الأسوار والحدود يوما، إلا أن الذي لم يخطر بباله هو أن يستطيع أحد من أهله أن يصل إلى زنزانته، فقد كان طارق الباب المتسلل الذي أيقظه في تلك الساعة المتأخرة من الليل هو أخوه مولود، والذي عجل وعرفه بنفسه قبل أن يحدث ضجة في المكان، فصار يلمس قدميه الباردتين وهو ينادي عليه :

محمد...محمد... لا تخف..أنا مولود...أنا أخوك مولود.

كان عطر مولود النفاذ قد اختلط برائحة رطوبة الغرفة التي تزكم الأنوف، فمد محمد يده ووضعها على قميص أخيه الحريري الناعم، ثم مررها على وجهه محاولا التعرف لمسا على قسمات وجهه، إلا أن مولود عانقه بحرارة وصار يبكي حتى بلل ذراعه الباردة بدمعه الساخن، كان يتمزق من الألم وهو يستجديه قائلا بصوت خافت :

- محمد يا حبيبي...سامحني واغفر زلتي...ها قد أتيتك معتذرا و مخلصا.

لم ينبس محمد ببنت شفة وشعر بفرح كبير يغمره وقال :

- أشم فيك رائحة الوطن... كيف أتيت إلى هنا يا أخي العزيز ؟

- نعم...نعم يا محمد...لقد صدقت فراستك... أنا قادم من ربوع وطننا الحبيب... لن أطيل... استعد يا حبيبي... سترحل من هذا العذاب هذه الليلة...قبل الفجر...

قال محمد مرتجفا وهو يظن انه في حلم :

- قبل الفجر ؟... أ.... قبل الفجر ؟... الليلة ؟

- أجل... أ... أ... أجل...قبل الفجر بساعات.

- إلى أين ؟... إل... إلى أين يا أخي العزيز.

- إلى أين ؟.... سنعود... سنعود سويا إلى أهلنا... سنعود سويا إلى الوطن...

تهلل وجه محمد بشرا وهو لا يصدق أن مولودا العاق لوطنه هو الذي يحدثه فقال :

- لست أدري بأيهما أفرح... بعودتنا إلى الوطن...أم بعودة الوطن إلينا.

- نفرح بهما معا يا محمد... سنرحل... سنرحل من هنا قبل الفجر، لقد رتبت الرحلة ترتيبا... وكل شئ على ما يرام..لسنا وحدنا..معنا آخرون... المعذبون يفرون تباعا... يفرون تباعا....

جددا عناقهما وسط الظلام، ورفع مولود يديه يمررهما على وجه أخيه، فراعته التجاعيد والأخاديد التي زادته ألما وحسرة، كانت عظام الفك بارزة كأنها عيدان تنبت في وجنتيه الغائرتين، انحنى مولود ليقبل قدميه فأمسك به وقال :

- مولود يا حبيبي...لاتثريب عليك...أحمد الله أن قصم الشيطان الذي نزغ بيني وبين أخي..ما أخبار مصطفى ؟

- سأخبرك فيما بعد.

- الحرس ينتظرني في الخارج، سأشعل الولاعة لأرى وجهك..أحب أن أقبل بين عينيك.

حمل مولود ولاعة سيجارته الذهبية، وضغط على زرها، فنظر إلى أخيه قبل أن يودعه، فإذا به قد نحل كأنه هيكل عظمي، وعظم شعر وجهه كما لو كان ينتمي إلى العصر الحجري، أصابه هلع كبير فأطفأها سريعا، وخلع وشاحه الذي يطوق به عنقه بسبب البرد والدموع تغطى وجنتيه، ولفه حول عنق أخيه، ثم نزع معطفه الفاخردون أن يشعر، ووضعه على كتفيه، ثم نزع جواربه القطنية التي تحمل توقيع أرقى شركات النسيج الاسبانية، فحاول وضعهما على قدمي محمد الذي تسلمهما شاكرا وقال :

- أشكرك... أ... أشكرك... سأنتظرك في الموعد.

- أ... هيا انتبه لنفسك.

خرج مولود متسللا نحو الحارس الرئيسي الذي دس في جيبه ألف أورو مقابل تيسير الهروب المؤكد، فرافقه نحو مخرج المخيم السري، وتواعدا على أن يصحبه قبل الفجر بساعتين نحو الطريق الموعودة.

لم ينم محمد تلك الساعات، وجمع أجزاء الجرائد وقطع الأوراق التي كان يجمعها من حافة الطريق، ويخط عليها أفكار روايته الجديدة،فقد كان قراره أن يترك قصته للأجيال ليعلموا أن ثمن الوطن عالي القيمة، وأن المستعمر قد يغير أوصافه وأساليبه ليظل ممسكا بالمفتاح.

توضأ ثم توجه نحو القبلة يناجي ربه حامدا شاكرا، وعلم أن الجب الذي رماه فيه أخوه مولود كان فاتحة خير عليه، إذ فتح قلبه على آفاق أخرى، وعلمه أن السعادة فيض من الداخل، وأن ما حوله لن يصنعها ولو أنفقه كله.

كان في كل لحظة يتحسس معطف أخيه ويشم فيه رائحته، أدخل يديه تحت صدره وشعر لأول مرة بالدفء يشمله، تمدد وراح يستعرض ما حدث وهو يلهج بذكر الله حامدا شاكرا.

وقبل الفجر بساعتين، رن الهاتف النقال في زنزانة محمد، ففزع فزعا كبيرا، وظل يمسك به وهو لا يدري ما يفعل في ذلك الظلام الدامس، فسكت الرنين... ثم عاد ثانية وثالثة...صار يضغط على أزراره ليسكته فإذا به يسمع صوتا يقول مكررا : أنا هنا بالانتظار يا مولود ... لقد حان الوقت... تقدم فأنا أمام الجدار الأحمر..ثلاث خطوات على يمين الباب... ثلاث... فقط...

دخل الحراس فجأة، وفي يدهم مصباح كهربائي كبير، كأنه شمس وهاجة نزلت إلى الأرض، فضبطوا محمدا وهو يمسك بالهاتف ويتأبط المعطف الفاخر، فأشعلوا الأضواء فورا في الإقامة، وأعلموا الضابط المكلف بحراسة الحزام الأمني في ذلك الطرف من المخيم، وأمرهم بإحضار محمد للتحقيق معه.

كان مولود قد أدرك أنه نسي إزالة هاتفه الذي اقتناه خصيصا لإنجاح العملية من جيب معطفه، وهو الذي لم يسلم رقمه إلى أحد غير منظمي عملية الهروب، فأصابه هلع كبير واستقل سيارة أجرة، اقترب من المخيم وتحسس الأخبار، ثم خرج فورا من الفندق باتجاه الجزائر العاصمة، كان قلبه يتمزق كمدا، استقل غرفة في أحد الفنادق، واستلقى على سريره الذي يطل على البحر وهو يتوجع ويضرب يديه بصدره المهتز لوعة، علم يقينا أن رنين هاتفه الشخصي الذي نسيه في جيب معطفه قد أفشل العملية برمتها، فقد أنساه لقاءه الحميمي بأخيه السجين الانتباه لهذا الخطأ القاتل، صار يرتعش ويعصر كفيه عصرا.

رن هاتف الغرفة، فإذا موظف الاستقبال يخبره أن إدارة الفندق تعرض عليه لائحة الهدايا المجانية التي تقدمها بمناسبة وصول الشركة السياحية المشرفة على الفندق إلى رقم تعاملات كبير جدا، فضرب بالهاتف عرض الحائط، وحمل شراشف الغرفة وصار يعبث بها وهو يولول ألما وكمدا، فقد كان متيقنا أن الحراس سيضبطون أخاه متلبسا بمحاولة الهرب والهاتف بين يديه، وأنهم سيفتكون به فتكا ذريعا، وهو الذي تحول إلى هيكل عظمي مخيف ولا يحتمل العذاب.



وقف محمد في غرفة التحقيق ورجلاه النحيلتان ترتعشان من شدة البرد وقال :

- الإعلاميون الأجانب يزوروننا دائما، هذا معطف واحد منهم، لعله نسيه قبل مغادرته... اظن أنه سيعود صباحا لتفقده.

- ما اسمه ؟ وما هو بلده ؟

- لديكم الحراس، وبإمكانكم توجيه هذا السؤال إليهم، فأنا لا أظن ان نملة تدخل هذا السجن دون أن تعلموا بقدومها، وعادة أنا لا أسأل عن بلدان هؤلاء الزوار، فهم يأتون...ثم يغادرون...ليأتي الآخرون من بعدهم...ونحن هنا... لم يتغير شئ...أنا لا أرجو منهم شيئا... و... و... بإمكانكم منعهم من اللقاء بنا في هذا المخيم...

قال الضابط والشرر يتطاير من عينيه :

- أنت تعلم أن مكانتك بين الصحراويين هي التي منعتنا من قتلك منذ زمن.. لأنك...ا...أ... بصراحة... لأنك صرت عبئا علينا...

- أتمنى أن يمنعك من القتل خشية الله، وليس مكانتي أو أي شئ آخر، فهوالذي سيسألك يوم القيامة عن كل نفس قتلت بغير حق...كل نفس هي نبات الله في الأرض، ولا يحق لأحد أن يقتلعها، أو يحصدها ليضعها في دراس المقابر.

التفت ضابط كان في المكتب نحو رفيقه وقال ضاحكا :

- كأنني أتفرج على فيلم لغاندي...يا إلهي...كأنه لا يعلم شيئا... كل هذه السنين وما زال يصر على اعتناق أفكاره القديمة... حسنا... أصلح من شأنه وأعده إلى زنزانته، وأحكم الحراسة عليه.

- سيدي... وهذا المعطف والهاتف ؟

- سلمهما إلى السيد منصور ليفتح تحقيقا.

خرج الضابط و نادى على أحد الحراس قائلا :

- هذا الرجل يكذب، أحكم عليه الحراسة، ماذا تفعل لديه تلك الجوارب أيضا ؟ هل أصبح الصحافيون يخلعون جواربهم وهم يدخلون إلى المخيم ؟... يا لها من نكتة سخيفة ! راقبوه من بعيد، أشعر أن هناك خيوطا كثيرة تحت اللحاف.

- حاضر سيدي... سنجعل ما في وسعنا.

أخرج الحراس محمدا وهو يمشي ببطء ويداه مكبلتان وهو يردد :حسبنا الله ونعم الوكيل...حسبنا الله ونعم الوكيل...



عزم مولود على أن يخرج أخاه من ذلك الجحيم قبل أن يتوفى تحت التعذيب بأي ثمن، فاتصل مجددا بأحد الحراس الذين يشرفون على المخيم، وعرض عليه مبلغا كبيرا من أجل إنجاح عملية الالتحاق بالأهل، ولما مرت ثلاثة أسابيع، تلقى مولود مكالمة هاتفية تحثه على أن يحضر إلى تندوف مجددا، ويتصل بالمدعو ابراهيم على رقمه المدون في رسائل الهاتف.

مرت أيام، فتأكد مولود أن كل شئ على ما يرام، فحمل حقيبته نحو الصحراء، بعد أن دس بداخلها لباسا صحراويا يشع بياضا، وحذاء جلديا ناعما، وبعض العطور والمشروبات، وبعد الاطلاع على تفاصيل العملية والترتيبات، وفي الساعة الموعودة، حضر في سيارة رباعية الدفع مع اثنين من الحراس كانوا بانتظاره أمام الفندق، وعندما انتصف الليل،توجه مولود نحو المكان المعلوم، وفجأة، حضر ابراهيم ومعه امرأة تتخطى الطريق بصعوبة، لم تكن تلك المرأة سوى محمد الذي تم لفه بملحفة بين الأخضر والأصفر، يمشي في الظلام الخافت كأنه شجرة مخروطية هجم عليها الخريف مبكرا، فقد أفلح مولود هذه المرة في تهريبه وتخليصه من جحيم المخيم ، كان الحراس يمسكون به حتى لا يسقط، لأن الثوب المنسدل من خلفه يتعثر بين قدميه المتعبتين، لقد ذاب عظمه ووهنت صحته، ولم يكن يظن أن أخاه مولود بانتظاره داخل السيارة التي أطفئت أنوارها، كما لم يدر بخلد مولود أن المرأة القادمة هي أخوه محمد، ولكم كانت المفاجأة كبيرة حين جلسا جنبا إلى جنبا وهما يرسلان التحية مجددا إلى بعضهما البعض، يتخيل من رآهما أنهما زوجان قدما من سفر بعيد.

تعرفا على بعضهما، فأمسك مولود بيد أخيه النحيلة ليقبلها وهو يرتعش، وغمره فرح كبير بالنصر، فوضع يده على كتفه الضامر، ومدده على صدره كأنه طفل صغير، كان يقبل رأسه ويحك شفتيه بصلعته الباردة، كان يشعر أنه يلمس الجمجمة مباشرة فيحضنها كأنها وسام على صدره.

كانت التعليمات أن يلزم الجميع الصمت التام، فقد دفع الحراس تلك الليلة كثيرا لتأمين الطريق، ووعدهم مولود بالمزيد من الأموال والعطايا، بل إنه نزع ساعته الثمينة وأعطاها لأحدهم وهو يتهلل فرحا بنجاح العملية، وعندما قطعت السيارة مسافة طويلة وتوغلت داخل الصحراء المغربية، علت أصواتهم بالتكبير، كان برفقتهم بعض الصحراويين الآخرين المحتجزين في المخيم تمكنوا من الهروب أيضا، والذين صاروا يرددون النشيد الوطني المغربي مبتهجين، وفي مؤخرة القافلة كانت سيارة أخرى لأحد السياسيين البارزين في تلك الجماعة الآبقة.

كانت التعليمات قد تقلصت، وعلم مولود ومحمد أنهما اقتربا من حمى ذكرياتهما، كانت فرحتهما لا توصف، فأخرج مولود منديلا ورقيا من جيبه وصار يمسح جبينه الذي كساه عرق كثيف، وصار يسأل الحراس ومحمد في آن واحد عن تفاصيل العملية، كانوا جميعا يضحكون حتى سمعت قهقهاتهم.

كان عبد الرحمن الحارس الجزائري الذي دبر الخطة رجلا ودودا، لم ترضه يوما تلك الصور الرهيبة التي يعاين باستمرار في ذلك المخيم المرعب، ولم يرضه أيضا ما يفعله المختفون وراء الستار في بلده من متاجرة بالقضية، كان قد أخفى خضارا طازجة تحت معطفه يوما، وانسل إلى الزنزانة رقم تسعة عشر حيث يقبع محمد فقال له :

- أشقاؤنا المغاربة جزء منا يا محمد، لست أفهم ما الذي يحصل الآن.

تناول محمد جزرة طازجة وصار يكسرها بحجر يستعمله للتيمم للصلاة، ويحاول إدخالها إلى فمه الذي فقد معظم أضراسه وقال :

- الدين والتاريخ يشهدان أننا إخوة منذ قرون، هناك من يلعب بمصيرنا ويمزق وحدتنا...

قال عبد الرحمن :

- لقد زرت خالتي في وجدة قبل سنوات عديدة، وما زلت معجبا بإخواني المغاربة هناك... ما زلت أتذكر ترحيبهم وولائمهم التي كانت تقام في العائلة الواحدة... الآن... الحدود مغلقة... من المستفيد ؟... السياج يحجزنا عن بعضنا... لماذا ؟... لماذا ؟...

أمسك محمد بيد عبد الرحمن وقال :

- أعتز كثيرا بأخوتك وعطفك، هذه اللعبة الماكرة التي تحاول التفرقة بين شعبينا... لعبة خاسرة... يلعبها المختفون بطريقة قذرة... أعتز كثيرا بأخوتك يا عبد الرحمن... قريبا جدا... ستزول الحدود... تذكر ما قلته لك جيدا... سترى جحافل الشعبين يقطعان الحدود بكل حرية وطمأنينة... للتجارة والسياحة وصلة الرحم...

- ادع الله أن يحيني حتى أكون معهم... لأزور خالتي متى شئت.

رفع محمد يديه باسما وقال :

- اللهم وحد أمتنا، واجمع شملنا، وأعنا على البناء والتنمية والريادة بين الأمم، وأعن عبد الرحمن على صلة رحمه.

قبل عبد الرحمن رأسه وقال :

- أنا سعيد أن أزور في هذه الزنزانة واحد ا مثلك.

قام عبد الرحمن يلملم بقايا الخضار الطازجة حتى لا يعثر عليها أحدهم وهو يردد بصوت خافت : تحيا الأخوة المغربية الجزائرية.. تحيا الأخوة المغربية الجزائرية...

رد عليه محمد والبشر يغمره :

- تحيا الأخوة العربية... تحيا الأخوة الاسلامية...

وضع عبد الرحمن يده على فم محمد ليسكته وقال:

- أتمنى أن ينطلق القطار... ترى...من سيطلق الزر ؟

رد محمد بصوت حاني :

- لم أر في الحراس مثلك يا عبد الرحمن، حارس يهتم كثيرا بالسياسة.
- الحراسة... السياسة... وظيفتان لهما نفس المدلول.

تذكر محمد عبد الرحمن الطيب، وآلمه أنه لم يودعه قبل هروبه من الاحتجاز،وهو الذي يأتيه بقطع طماطم أو بطاطس من حين لآخر، فتذكره رؤية الخضار أن الأرض ما تزال معطاءة، وأن هناك زرعا وقطفا في مكان ما.

كان مولود يبالغ في إحاطة محمد بالعناية والرعاية التامتين، ويوصي السائق أن يحد من السرعة كلما عرضت له طريق منعرجة، حماية لأخيه الذي استبد به المرض والإعياء.

ساد الصمت لحظة، ولم يعد الجميع يسمع غير هدير محرك السيارة المتينة، ثم قال مولود فجأة :

- لم تخبرني يا محمد عن تفاصيل الرحلة، هؤلاء الحراس يستحقون كل الشكر.

قال محمد بصوت خافت :

- أجل يا مولود، كنت نائما فجاء من أيقظني وألبسني زي النساء، ووضع حناء باردا على يدي، وحذاء نسائيا في رجلي، كنت منهكا جدا... سألت و سألت،فاستسلمت عندما لم أجد جوابا لأسئلتي، وفي لحظة ظننت أن الأشباح أو مخلوقات غريبة هي التي تجهزني لأمر ما، كانوا لا يتكلمون إلا بالإشارة، ولم أتبين صورهم جيدا، حملوني على سرير صحي كطفل صغير، سمعت واحدا منهم يردد عند كل نقطة : المرأة تحتضر... المرأة تحتضر... ثم فقدت وعيي برهة، ربما استنشقت منوما معينا... لا أدري... وعندما أفقت وجدتني مضطرا للمشي نحو سيارة رباعية الدفع والدوار يسيطر على رأسي، ثم تبينت أنني فررت من الجحيم... وأحتاج لشكر كل من عمل على إخراجي من أتون تندوف.

عانقه مولود وعيناه تذرفان دمعا ساخنا، كانت السيارة تتقدم كما يتقدم النوم نحو جفني محمد، والذي مازال الدوار يلعب برأسه، استغرقه النوم حتى علا شخيره، كان سعاله الشديد يخنقه من حين لآخر، فيرفع مولود رأسه قليلا كأم تداعب طفلها المريض، وبعد ساعات بدت أنوار بعيدة في الأفق ، أيقظ مولود محمدا وهو يحاول إجلاسه مستقيما ليرى بلدته، كان يصرخ فرحا : يا الهي...نجحنا...نجحنا... هاهاها...نجحنا...هاهاها...منبت الأحرار... مشرق الأنوار...

كان يقهقه كالمجنون حتى احمر وجهه وكادت عيناه تخرجان من مكانهما، أمر السائق بأن يتوقف فورا إلى جانب الطريق، وحمل أخاه على كتفيه وهو يقبله، ثم فرش معطفه ووضعه عليه، وأخرج الألبسة الأنيقة من حقيبته، وأصر على أن يلبسه إياها بنفسه،وأن يعلق على صدره الوسام الذي وشح به والده سالم قبل وفاته، أشعل السائق أنوار السيارة باتجاههما، فإذا بمولود يكتشف أن أخاه صار هيكلاعظميا حقيقيا، وأن أضلاعه غاصت بداخل جلده الرقيق، أمسك بوجهه الذي حلقه الحراس تماما حتى يبدو كالنساء وقال :

- محمد...محمد...يا حبيبي...هل تغفر لي ؟ هل ترحمني ؟
- الله غفور رحيم يا مولود، كيف لا أكون أنا كذلك ؟
- والوطن ؟...أ...الوطن الذي جعلته يفقد في قضية وهمية خاسرة العديد من أبنائه...العديد من أمواله في السلاح والعتاد... العديد من الخطوات نحو التنمية والتقدم ؟
- الوطن غفور رحيم أيضا يا مولود.

حمل مولود ذرات الرمال وصار يذروها يمنة ويسرة وهو يقول :

- ليتني أعلم شيئا أكفر به عن خطيئتي... لو استقبلت من أمري ما استدبرت لكان لي شأن غير هذا الذي أفنيت فيه أزهى مراحل عمري.

وقف محمد إلى جانبه وهو يتناول تمرات بيده المرتعشة وقال :

- لنتقدم يا أخي العزيز... لعل الوقت ليس للعتاب واللوم، لست أدري لماذا توقفت بنا هنا...تلك الأضواء تخبرنا أننا مقبلون على مدينة تشع نورا كما هي قلوبنا

ونحن نعود إلى أرض الوطن...ولكن... أ... أهذه حقا إقامتنا التي تحولت إلى مدينة تشع أنوارا و بهاء ؟

أمسك مولود بيد أخيه محمد الذي وقف بملابسه الناصعة وسط الظلام الخافت كأنه شامة بيضاء، كانت الريح تداعب قميصه الصحراوي الواسع، فينتفخ كما لو أن له جناحان محلقان، فقال وهو يحرك رأسه :

- أجل... تلك مدينتنا التي كانت بالأمس خياما يقتلعها المستعمر متى شاء، لقد غدت اليوم مأهولة وعامرة، وبها بنية تحتية ومرافق ومساجد...

كان محمد يحاول أن يصوب نظره باتجاه الأنوار المشعة وقال :

- الحمد لله الذي أخرجني من السجن و جمع بيني وبين إخوتي.

كان السائق الجزائري قد ودعهماعلى الحدود، وسلم المقود لسائق صحراوي وقال :

- عذرا...أ...أ...لو تكرمتما...لم يبق أمامكم الكثير...سأعود قبل أن يكشفني ضياء النهار... الحمد لله على السلامة.

قال مولود :

- كل حراس الحدود المغاربة يحتفون بالعائدين... نشكرك.

قال محمد :

- سيأتي اليوم الذي يعود فيه من تركتهم في سجون الانفصاليين جميعا إلى أهليهم، تذكر يا أخي ما قلته لك، لن يدوم ذلك الظلم طويلا.

قال مولود وهو يصافح أحمد:

- اعذرني يا صديقي...لقد أكرمتك أيما إكرام..لأنك ساعدتني في التكفير عن جزء يسير من ذنبي العظيم.

ضحك واحد من معاوني السائق وقال :

- لم نتلق مثل هذا المبلغ من قبل، وقد اقتسمته مع عديدين سيوهمون حراس المخيم أن محمدا رمى بنفسه في البئر، وإذا لم يفتح تحقيق في قضيته، فستمر الأمور بسلام.

قال رفيق الحارس :

- رمى بنفسه في بئر ؟ هل تظن أنهم سذج إلى هذا الحد ؟

نظر إليه محمد وهو يضحك وقال :

- هل صديقك الذي كان معك هو أيضا من الجزائر الشقيقة ؟

- أجل...أجل...هو من تلمسان، وساقته الظروف إلى ذلك المعتقل البئيس.

قال محمد :

- ليته لم يربط رزقه ومصيره بقضية أولئك المعذبين.

- اعذرني... رجاء... إنما هو فرد من ذلك الشعب الذي يحب إخوانه في المغرب كل الحب، نحن جميعا نتوق إلى اليوم الذي تفتح فيه الحدود بيننا، ونتبادل تجارتنا ومنافعنا كلها...تماما كما كنا دائما...آه... ولكنه لعب الكبار كما ذكرت.

قال محمد بصوت خافت :

- الأيدي الخفية من وراء الستار تلعب اللعبة...ونحن من يدفع الثمن... جمل قلتها للمحققين مرارا، وسأظل أكررها ما حييت.

قال مولود متحسرا :

- وجدت قضيتي التي أكفر بها عن ذنبي تكفيرا يريحني.

- لقد حان أوان إعلان قضيتنا.

- أجل، سأرفع دعوى قضائية ضد الذين أخروا التنمية في الاتحاد المغاربي، وتسببوا في خسارة شعوب المنطقة على جميع المستويات.

ابتسم محمد قليلا وقال :

- أتمنى أن نتقدم قليلا نحو السيارة، لقد تغير السائق، وأنا بحاجة إلى الراحة.

قال مولود :

- المكان والزمان لا يسمحان بمثل هذا الحوار، هذا صحيح، لقد تزاحمت الأفكار في ذهني.

نظر إليه محمد ثم أغمض عينيه وهو يمرر يديه على مكان لحيته المحلوقة.

انحنى مولود معتذرا، وأمسك بيد أخيه مرة أخرى وهو يتلمس طريقه.

انطلقت السيارة أمتارا ثم عادت أدراجها، كان مولود قد شكر السائق الوفي اعترافا بفضله وصبره.

سارا قليلا على الأقدام، فإذا بمدخل المدينة الصغيرة يعلوه العلم المغربي تحت ضوء كاشف، صار مولود يشير إليه وهو يرفع يد محمد بيده، وشارة النصر باليد الأخرى وهو يردد الشعار المغربي، كان محمد يبتسم ويشعر أن تعبه قد خف، وأن حالته النفسية قد تحسنت كثيرا، خصوصا عندما كان مولود يردد بصوت عالي:... إخوتي هيا...للعلا سعيا...نشهد الدنيا...أنا هنا نحيا...أنا هنا نحيا...أنا هنا نحيا... ويشير بيده إلى الأرض مرارا.

كان مولود لا يتوقف عن التعبير عن فرحه بعودة أخيه، فإذا بأهازيج قوية تسمع في المكان قطعت عليه تغنيه المغرد، إنها قبيلة محمد التي تحولت في زمن قياسي إلى قرية ثم إلى مدينة صغيرة، الأضواء في كل مكان ورائحة الشواء تنبعث من تلك الدور المتراصة على الرصيف، السيارات جيئة وذهابا، كان محمد يبتسم دون توقف، ظن أنه احتفال بعرس أو عقيقة، رفع رأسه وهو يحاول التعرف على منطقته، فإذا لافتة معلقة وقد كتب عليها : مرحبا بالشيخ محمد ولد سالم العائد إلى وطنه، مرحبا بالعائد الصابر...

لم يفهم محمد شيئا مما يحدث، فالتفت نحو مولود الذي تهلل وجهه بشرا وقال :

- لقد غامرت... أ... أ...أجل... غامرت و أعلمت السلطات والأهل أنك عائد إلى أرض الوطن، وأقاموا احتفالا كبيرا احتفاء بقدومك، غامرت وقلت في نفسي : أقيم احتفالا كبيرا،وإذا نجحت خطتي فذاك، و إلا فإنني سأكون قد أثرت قضيتك وذكرت أن المحتجزين بانتظارنا... أ... يالها من مغامرة !

لم يصدق محمد ما سمع وهو يرى رموز السلطة يرحبون به في خيمة كبيرة مزخرفة، يعلوها علم البلاد الأحمر تتوسطه النجمة الخضراء، كان يحاول في كل مرة أن يفتح عينيه ليتأكد أنه مستيقظ وليس في حلم جميل في الزنزانة رقم تسعة عشر، استقبلته زوجته على كرسي متحرك وهي تحمل باقة من الزهور، وقف ينظر إليها طويلا وقد هطل الدمع من مقلتيه، انحنى وقبلها على رأسها وهو يمسك بالكرسي الحديدي محاولا دفعه دون أن يقدر على ذلك، فقد كان هو أيضا بحاجة إلى الجلوس على واحد مثله، سيما وأن قدميه خارتا وصار يرتعش، اكتشف أنه لا يقدر، فجلس إلى جانبها وهو يتفرس في ملامح أهله الواحد تلو الآخر، كان ينظر إلى ابنه سعيد وهو يردد : أبي... أبي... الحمد لله على سلامتك... الحمد لله على سلامتك...

كان الجميع يتقدم للسلام عليه وتهنئته، منهم جمع من الأطفال من حفدة آل سالم الذين شبوا وهم يسمعون بشيخهم الفقيد دون أن يتمكنوا من رؤيته أبدا... ومنهم من شب ومازال يحمل صورة ضبابية عن شخصه... منهم ابنه سعيد الذي ظل واقفا إلى جواره.

كان مولود قد أعد مفاجأة حفل خلاص محمد من جحيم تندوف، وتعمد أن يكون الاحتفال مفاجئا أيضا بتلك الطريقة، فجلس إلى جانب أخيه الذي توسط الجمع كأنه عريس في ليلته.

لم يتوقف محمد عن الابتسامات و رد التحية، كان الفرح الكبير يغمره من الداخل، خصوصا حين تقدم أحد أعمامه الذي امتد به العمر وأعياه الهرم وقال :

- محمد يا بني...لقد تم دفن والدك سالم قرب قبر جدنا الأكبر، لأنه عاد إلينا وفي يده النصر على الاستعمار في صورته القديمة، وها قد عدت إلينا وفي يدك بشائر النصر على الاستعمار في صورته الجديدة...إنني أحييك.

قال عمه الأصغر :

- الصحراء أرض صابرة يا بني، لقد مكث فيها الاستعمار 91 سنة متصلة، من 1884 إلى 1975م.. وقد توزع صبرها على كثير من أبنائها، وأنت واحد منهم.

جاء المكلفون بتنظيم الاحتفال بعشاء فاخر على شرف النزيل الجديد، وحضر بعض الشباب بلباس وطني موحد بالأحمر والأخضر، ورصوا الأكل بعناية فوق موائد بيضاء كبيرة، نظر إليه وهو يتعجب من تلك النعم التي أفاض الله على تلك الصحراء الصابرة، كانت أطباق توت أصيلا وتمور الرشيدية وكلميم وليمون بركان وخوخ مكناس وعنب دكالة وتفاح مراكش وموز سوس وغيرها من الأصناف تزين تلك الأطباق الكبيرة..كأنها فواكه نضجت وحنت إلى تلك الربوع من الوطن، تحملها تلك الشاحنات التي تخترق الطرق المعبدة الممتدة على طول الصحراء المسترجعة، كما كانت رائحة شواء الضأن وطبيخ الإبل تغمر المكان، فكان محمد يشكر الله الذي أخرجه من السجن وجمعه بأهله في ذلك الحفل البهيج وهو يردد من حين لآخر دعاء نبي الله يوسف عليه السلام في آخر عمره بعد أن نجاه الله من السجن وأسبغ عليه النعم : رب توفني مسلما وألحقني بالصالحين.

جاء وفد من الرباط العاصمة يرحب بالشيخ العائد، ومعه كفالة بعلاجه من ندوب الظلم والأسر والمعاناة، الجميع يعلم جزءا يسيرا من قصته، هو وحده يروي فصولها كاملة، لذلك فقد ظل يحتفظ بتلك الأوراق البالية التي كان يصادفها في معتقل تندوف كلما خرج وحملتها الرياح إلى تلك الباحة البئيسة، دون عليها

أبواب روايته التي عنونها ب : «عشاق الصحراء «، يقصد كل عاشق تاقت نفسه إلى الحرية والكرامة، بعيدا عن أغلال الاستعمار الذي نبت تحت عباءته، وأرضعه الذل منذ طفولته.

جلس بعد أيام قليلة مع مولود، وصار يحدثه عن قصة الزمان والمكان التي ينوي كتابتها فصلا فصلا، فكانت الحلقة الأصعب هي وصف حالة أخيه مولود عاشق الصحراء، وخطوة الانتقال من اللاوعي التام إلى الوعي العميق بعد اكتشاف لعبة الاستعمار البغيض، لحظة اكتشاف الذات القابلة والذات الرافضة، لحظة فتح الباب الذي يدخل منه إلى الحياة، أو ذاك الذي يخرجه منها ليتمنى إطالة غيبوبة الصحراويين، وإبقائهم في سرير الإنعاش مقابل أجر مادي يؤمن به مستقبله بكل أنانية، فقال لمولود الذي أصعد لباسه الصحراوي فوق كتفيه ووقف منتصبا رافعا رأسه نحو الأفق الممتد :

- سأستهل الفصل الأول من روايتي بأغنية روزا عن زيارة المسيح إلى الصحراء...

- آه... تلك الأغنية البلهاء...ههه... كنت أصدق أن المسيح يأتي فعلا... أجل... كنت أظن ذلك... أحيانا كنت أشفق عليه من حرارة تلك الصحراء الملتهبة.

ضحك مولود وقال :

- كنت دائما أتخيل أنه يأتي على جمل أبيض، وينيخه أمام الحديقة، ويبارك الجميع ثم ينصرف.

- نحن نتخيل أنه يأتي على جمل، وروزا تتخيل أنه يأتي على حصان،عقول الأطفال تخربها الخرافة والوهم، سمعت أن الكثير من الأطفال في تندوف رحلوا إلى كوبا، الله وحده يعلم ما تحشى به عقولهم البريئة، لهفي عليهم إذا كبروا.

- هذا صحيح، لست أدري كيف سيصبحون.

قال محمد :

- لا تنس يا مولود أنهم أبناؤنا، وحقهم علينا أن نستعيدهم ونحضنهم، ولكن هذا الظلم المرعب هناك ما زال متغطرسا، واظن أن نهايته قريبة، بل أنا متاكد من ذلك.

قال مولود نادما :

- أكبر جرم ارتكبته في حياتي، أنني دسستك غدرا بين تلك الزنازين الفظيعة، لن أنسى ذلك اليوم الذي أتيت فيه لزيارتك، كثيرون يقبعون وراء الأسلاك، لو أستطيع القيام بمسيرة لأجل الالتحام بهم وفك أسرهم فورا... آه... لو أستطيع فعل ذلك.

أراد محمد أن يثني أخاه مولود عن الشعور بالندم الذي يعتريه، فضحك عاليا وقال :

- ما زلت أتذكر يا مولود قصة الهاتف النقال في معطفك، عندما وضعوا علي ملحفة النساء، ووعيت قليلا،وتداعى إلى ذهني أنني أعيش فصول عملية هروب ناجحة، كنت خائفا أن يكون بها جيب يخفي هذا المخبر العميل... أ... خشيت أن يصيح مرة أخرى... ويفضحني..كما...أ... كما حدث في المرة السابقة...

ضحك مولود وقال :

- كان ذلك الجهاز سيعصف بنا عصفا... كان عليك أن تضغط على زره الأيسر فورا... وتتحدث معتذرا.

- الذي يعيش في كهوف تندوف يا مولود... من أين له أن يعلم عن التكنولوجيا شيئا ؟

صمتا برهة ثم قال مولود وهو يحذق في عيني محمد :

- متى تبدأ بكتابة روايتك «عشاق الصحراء» يا محمد الصابر ؟

- عندما أتم الفحوصات الطبية اللازمة وأخلد إلى الراحة...أنا بحاجة إلى فترة نقاهة تامة...

قال مولود مشفقا :

- صحتك ستكون بخير يا عزيزي.

- أتمنى أن أحيا إلى أن أرى نفسي قد قدمت شهادتي لله، ثم للتاريخ... يجب أن تعلم الأجيال بهذه الفظاعات التي حصلت و ما زالت تحصل، ليأخذوا العبرة والدروس ويعلموا أن قوتهم في وحدتهم وإصرارهم على بناء مستقبلهم بين الأمم.

- صدقت يا محمد، هذه القضية تستحق أن نفرد لها روايات كثيرة، وأفلام سينيمائية، ومسرحيات، وأغاني وأناشيد...ومسلسلات... كل ما يعرف بعدالة قضيتنا، و صواب رؤيتنا... فهو واجبنا...

قال محمد :

- ولذلك فسأحمل قلمي قياما بواجبي... لايمكن أن أحتفظ بتلك التجربة المريرة لنفسي... قضية الصحراء يا مولود واجب شرعي قبل أن يكون وطنيا...بل إنني أعتبر اقتطاع أي جزء من الوطن الواحد لصالح الإضعاف والتفرقة والتمزيق هو قضيتي الأولى...

قال مولود بإعجاب :

- أنت رجل فريد يا محمد... لو كان والدي سالم حيا لافتخر بك.

- كل ما نعيشه في هذه الحياة يا مولود، إنما هو صورة لطموحاتنا، وما تحقق من هذه الطموحات هو عنوان لوجودنا... وجزء من ماضينا.

قال مولود متأوها :

- وجودنا... ليتني بحثت عن سر وجودنا في هذه الحياة منذ زمن... تماما كما فعلت أنت... لم يبق أمامي الآن غير المستقبل.

- ما زال أمامنا ما يمكن إنجازه يا مولود... كان المستعمر الغاشم يعتقد أن الصحراء أرضا بلا مالك ، وهو يرى الآن أننا ملأناها عمرانا، وتعلم شبابها في الجامعات، واخضرت واحاتها، لأنها ببساطة جزء من وجودنا على أرضنا، هذا هو الوجود الذي يثبت عدالة قضيتنا... ما تحقق قليل، وما زال بانتظارنا الكثير.

رن هاتف مولود، فأخرجه من جيبه فورا، ثم أوقف رنينه الذي يقطع عليه الحديث مع أخيه محمد وقال :

- مصطفى اتصل بي هذا الصباح وطلب مني أن أسلم عليك.

- ألا يأتي لزيارتنا ؟

- كعادته...حب التجارة في قلبه يثنيه عن الالتفات إلى مراحل حياته التي مضت بسرعة، لقد صار من كبار التجار في المنطقة.

- المرء بحاجة دائما إلى أن يقف لحظات مع نفسه، يتأمل فيما حوله ليدرك أن صناعة الحياة أمر هين وشاق في آن واحد، وأن الانشغال ببعض العلاقات التافهة أحيانا، يفوت على المرء موعد الوصول.

كان محمد يتحدث، ومولود مشغول بتركيب رقم أخيه مصطفى الذي يتصل به باستمرار دون أن يتلقى أي إجابة، ترك له رسالة مفادها أنه يستدعيه لزيارته في إقامته ثم قال :

- أتمنى أن يحضر مصطفى، ويحضر معه صور طفولتنا.

قال محمد :

- أتمنى ان أستعيدها أنا أيضا، وأتذكر تلك الطفولة المغتصبة، أشعر بنعمة الله تشملني بعد ذلك الماضي الأليم.

- لقد عاينت لديه تلك الصورالقديمة، ورأيتك راكبا على العنزة في حفلة الميلاد، كنت تبدو شقيا، كان إلى جانبك التوأم رودريكو و ألبيرتو.

- آه... رودريكو و ألبيرتو التوأم... آه... يا للذكريات... تذكرتهما... أجل... تذكرتهما جيدا... كانا من أعز أصدقائي... ليتني أراهما الآن.

قال مولود :

- لقد التقيت بهما مرتين في أحد المعارض الالكترونية بمدريد، وصافحتهما، وجلسنا نرشف القهوة معا ونتحدث عن الصحراء، وعن حكومة المغرب، وعرجنا على ذكريات الطفولة، فسلماني عنوانهما، إنهما كعادتهما لا يفترقان إلا لماما.

- لكم أشتاق إلى لقائهما بعد الاستقلال، لا أنسى براءة طفولتهما و هما يختلسان الأكل من أطباق خالتهما روزا، ويقدمانه للأطفال الجوعى خارج الإقامة.

ضحك مولود وقال :

- إنهما لا يفعلان أكثر من أنهما يردان أكلا مغصوبا إلى أهله الأصليين : سمك... جبن...لبن... كل هذا مما جادت به أرضهم المغصوبة.

- أتمنى يا مولود أن يبقيا على طيبتهما، وينصرا قضية المظلومين المسجونين في تندوف كما فعلا وهما صغيرين مع الصحراويين المستعمرين.

ضحك مولود وقال :

- لقد غيرا مسارهما تماما يا محمد، رودريكو الآن عضو في حزب اسباني معروف بمواقفه لمناصرة الانفصاليين، وهو مقيم بسبتة، ولديه حانة كبيرة يرتادها كثير من أصدقائي القدامى..

قا طعه محمد قائلا :

- رودريكو الوديع ؟ صار يدعم الانفصاليين ؟ لا أظنه يفعل ذلك مقتنعا، فأنا أخبر قلبه الطيب وذكاءه الوقاد... وماذا عن ألبيرتو ؟

- ألبيرتو يا سيدي عانقني عناقا حارا، وحدثني عنك وعن حجزك في تندوف، فهو أيضا يسأل عنك...

- أنا أيضا أشتاق إلى ألبرتو السمين الذي لا يتوقف عن الأكل... كانت روزا تقول له دائما : توقف أيها الأكول، يا معدة الجمل... هه... بالرغم من أن الجمل ليس أكولا.

قال مولود :

- لقد تاثرت أمثالها ببيئة الصحراء...ربما لو كانت في اسبانيا لقالت : يا معدة الثور... روزا كانت تعشق الصحراء، وترى فيها رسالة المسيح ومنجم المال ومركز النفوذ.

- وهل يمكنني رؤية ألبيرتو ؟

- ألبيرتو مقيم في مليلية، ولديه شركة إعلامية خطيرة، ويشرف على مواقع الانفصاليين ويدعمها، ولديه طاقم هائل من الشباب يعملون معه كنا نسميهم الجيش الالكتروني، فهم يفتعلون معركة في المنتديات الالكترونية على الانترنت... ويطلقون تعليقات وفديوهات و خطابات وانتقادات... ثم يطلقون العنان للتعاليق المغرضة تحت أسماء مستعارة لتصيد بعض السذج والبسطاء.

قال محمد :

- لم أفهم شيئا يا مولود... هذا عمل خطير ومرعب... لست أفهم كيف يحدث ذلك.

- إنهم مغرضون ولديهم أجندة خاصة، ما يؤسفني هو أنني كنت واحدا منهم.

قال محمد :

- أدعو الله أن يحفظ بلادنا من المؤامرات، وأن يختفي المفسدون في كل مكان... ما يفعله ألبرتو غريب جدا ولا يصدقه عقل.

قال مولود :

- إنها عملية معقدة يا محمد، إنها حروب في العالم الافتراضي، تمهد لربيبتها في العالم المحسوس...

- ومن أين لألبرتو بالأموال ؟ لا شك أن هذا عمل جبار يحتاج إلى سند قوي.

قال مولود :

- لا أعلم تحديدا... ألبيرتو غامض وتصرفاته معقدة... لا أعلم... لاتشغل نفسك به كثيرا... لقد صار تافها وطالب مال.

- إنه من أعز أصدقاء الطفولة، ولا أظنه مقتنعا بما يفعل، ليتني أراه هو و رودريكو... ليتني أراهما معا.

قال مولود :

- تريد أن تراهما معا ؟ واحد منهما يقيم في سبتة ؟ والآخر في مليلية ؟

نظر مولود إلى محمد نظرة حادة وأردف :

- أنت بحاجة إلى جواز سفر، وإلى فيزا أيضا تسمح لجوازك بالمرور.

أحنى محمد رأسه وقال هامسا :... سبتة... مليلية...جواز سفر... فيزا...

قال مولود :

- التقيت بالكثيرين من الذين شاركونا عالم الطفولة في تلك الإقامات الاستعمارية، لقد كبروا وما زالوا يحملون ذكريات طفولتنا البريئة... لقد غدت الآن اسبانيا دولة قوية و ديموقراطية وصارت عضوا في الاتحاد الأوربي، وقد عمل المغرب على تحسين العلاقة و إبداء نوايا حسن الجوار و التعايش، فوجد منها تجاوبا واحتراما كبيرين، ولكن قلة من أبنائها ما زالوا يحملون بقايا أفكار الاستعمار بداخلهم، منهم بعض الأطفال الذين كنا نلعب معهم تحت النخيل.

قال محمد :

- الأطفال يولدون على الفطرة، لو بقوا عليها بعد الكبر، لعم السلام العالم، ولما اشتعلت الحروب وتقدمت آلات السلاح وتغذت شركاته.

قال مولود ضاحكا :

- يا لحروب الطفولة البريئة !... أتذكر يا محمد ؟ كانت روزا تشعل علينا حربا ضروسا حين نبعثر الأثاث ونتلفه... أ... هل تذكرين نصبت في بهو البيت شجرة الميلاد التي أتت بها من اسبانيا للاحتفال ؟ فأدخلنا تلك العنزة الجائعة لنلعب معها... ههه... فأتلفت فروعها ؟ لقد كانت غاضبة لحد الجنون، وزاد من غضبها تذمر أمي التي رفضت أن تصحبنا إلى الكنيسة يوم الجمعة الذي صادف يوم الاحتفال بميلاد المسيح.

رد محمد :

- أتذكر ذلك اليوم جيدا، كان يوم السبت والأحد هو يوم عطلتنا، وكنا ندرس يوم الجمعة حتى ساعة متأخرة من الظهر، كنت أرى أطفال الصحراويين بلباسهم الأبيض يعودون من صلاتهم الأسبوعية وهم مسرورين فأسأل نفسي دائما : هل صلاتهم كصلاتنا ؟ لماذا يعظمون يوم الجمعة ويتوجهون فيه إلى مساجدهم وليس يوم الأحد مثلنا ؟

قال مولود :

- لقد كانت روزا جادة في عملها، إلا أن ذلك الكولونيل دخل حياتها وخرب كل شئ.

قال محمد :

- ليتني أستطيع الحصول على صور طفولتنا.

قال مولود :

- لقد أخبرني مصطفى أنه اشترى بعض الصور والأغراض التابعة لروزا من أحد الإسبان الذين رحلوا من المكان... كالبيانو الإيطالي، وأريكة الغروب...

قال محمد مستغربا :

- البيانو الإيطالي... آه تذكرته... كنت أجلس عليه وأغني أغنية القراصنة حين يقتربون من الشاطئ، فيفر الأهالي، ويخفون صغارهم في الغابة، فيلتهمها الأسد ويتوسع نفوذه حتى يحاصرهم في الشاطئ تحت رحمة القراصنة.

قال مولود ضاحكا :

- يا للهول !... لقد كانت هذه الأغنية تفزعني، وعشت حياتي ورعبها يصحبني.

ضحكا معا، ثم رن هاتف مولود فجأة، فإذا مسئول كبير في المنطقة يخبره أن محمدا مرشح ليذهب في تلك السنة إلى الحج مع المنعم عليهم، و أن عليه أن يلحق وثائقه الشخصية في أقرب وقت بالمصلحة الإدارية المكلفة، ابتسم مولود وقال:

- سنجهز جواز سفرك في أقرب فرصة يا محمد.

نظر إليه محمد مستغربا وقال :

- للذهاب إلى سبتة ومليلية المحتلتين؟
- كلا... ههه....سبتة ومليلية ؟ كلا يا حاج محمد.
- حاج محمد ؟ ماالذي تقصده يا مولود ؟
- سنعجل بالفحوصات والوثائق في آن واحد.

كانت زوجة محمد على كرسيها المتحرك تتابع الحوار وهي تعجز عن التدخل، فقد فقدت القدرة على الكلام والسمع بسبب إصابة عرق في دماغها، فأومأت إلى مولود ليعينها على إدارة الكرسي نحو بهو البيت، انطلقت وقد وهنت قوتها وهي

تشير بيدها إلى ابنها سعيد، والذي ساعدها لتصعد إلى غرفتها وتتمدد على سريرها.

كانت حالتها الصحية تشغل محمدا أكثر مما شغلته حالته هو، إلا أنه لا يملك غير الصبر والدعاء لها في كل صلواته، أغمض عينيه ورجع برأسه قليلا إلى الوراء فإذا مولود يعود بسرعة ويقطع شروده ليدخل السرور على قلبه قائلا :

- لقد تمت استضافتك إلى بيت الله الحرام.
- بيت الله الحرام ؟... إلى مكة المكرمة ؟ كيف ؟

حرك مولود رأسه إيجابا وقال :

- في لحظة واحدة، وبمجرد الضغط على زر، يمكن أن يحدث الكثير.

فرح محمد أيما فرح، فقد كانت تلك هي أمنيته منذ سنوات طويلة، فقام مولود من مكانه وأمسك برأسه يقبله حتى كاد أن يسقط عمامته وقال :

- الحاج محمد ولد سالم ضيف على الله في بيته... أتمنى أن أكون الرفيق... الرفيق...

تذكر مولود كلمة الرفيق التي طالما استعملها، فصار يتعجب من الأقدار والأحوال.

رفع محمد رأسه وصار ينظر إلى أخيه دون أن يحرك شفتيه، فقال مولود :

- سأرافقك... هل تأذن ؟... مسيرتنا واحدة.

نزلت دموع الفرح ساخنة على وجنتي محمد المجعدتين، وعادت به ذكراه إلى شيخه وأستاذه الذي مات وهو يتمنى أمنتين اثنتين لم تتحققا في حياته : أن يتحرر الوطن من الاستعمار، وأن يتيسر له الحج إلى مكة، وها قد تحققتا لتلميذه معا، شعر بأنه بحاجة إلى شكر الله على نعمه عليه فقال بصوت خافت :

- الحمد لله الذي أخرجني من السجن، وآواني، وجمعني بأهلي وإخوتي، ووجه إلي الدعوة إلى بيته الحرام.

قال مولود متلهفا :

- سنحتاج إلى إعداد وثائق جواز السفر.

صمت محمد ومد بصره نحو طائر صغير يقترب من المسبح الفسيح محاولا الحصول على قطرات من الماء، كان ينظر إليه بإعجاب وهو يدنو من سطح الماء ثم يبتعد، ثم يدنو ثم يبتعد مرة أخرى، إلى أن قرر غمس منقاره كاملا في الماء ليطفئ عطشه، فغادر مستغنيا عنه فور تذوقه واكتشافه أنه غير صالح للشرب، لأنه كان مشبعا بالكلور والمنظفات الكيماوية، ابتسم محمد فقال لمولود :

- حتى الحيوانات لا تقبل على ما يخالف فطرتها ، إنها غريبة الأطوار.

قال مولود :

- الطيور التي لا تحلق أو تتذوق، لا تستحق أن تملك الأجنحة.
- أتوقع ان يخبر هذا الطائر إخوانه أنه تذوق ماء غريبا عن أنواع المياه التي عرفها في منطقته، فيسرع إلى تحذيرهم من أن يشربوا منه هم أيضا.

قال مولود :

- أ... إذا كانت الطيور الجارحة بينهم، فستشوش على خبره...هههه...

قال محمد مبتسما :

- لا تملك الطيور الجارحة إلا أن تهاجر أوتنقرض حين تكشف الطيور الآمنة حيلتها في التهامهم.
- حقا... الحيوانات ملهمة للانسان.

قال محمد :

- كنت مرة أنا وأستاذي على الشاطئ، فرأينا صيادا أخرج سمكة متوسطة الحجم، ولما لم تعجبه أزال الصنارة من فمها وأرسلها في الماء، فقال لي شيخي : لو أن

هذه السمكة ذهبت الآن إلى قومها وأخبرتهم أن يد الصياد أمسكت بها وأعادتها إلى الماء لما صدقوها، سيقول فريق أنها جنت ووجب إلحاقها بمستشفى المجانين، ويقول فريق آخر أنها مغرورة وتدعي الشجاعة والبسالة، ويقول آخر أنها كذابة أشرة تحب تلفيق الكلام وتنميقه، ويقول آخرون أيضا أنها ترمي إلى جذب الأنظار إليها، وأنها تافهة وحقيرة لا تحسن بناء شخصيتها بما هو معقول ومقبول...

ضحك مولود متعجبا فأردف محمد :

- أذكر أن شيخي سألني حينها قائلا :

- لو كنت أنت تلك السمكة يا محمد... ما الذي ستقوله حينئذ ؟

- سأقول يا سيدي أن كل شئ ممكن في هذه الحياة، وأن أحداثا كثيرة لا نتوقعها قد تكون حدثت بالفعل، ولا تكفي رؤيتنا لها بأم العين على وجودها من عدمه.

قال مولود بصوت حاني :

- رحم الله هذا الشيخ، لقد سقاك من علمه وحكمته الكثير.

- أجل، بودي أن أسكب علمه وحكمته في عقول الشباب الواعدين، فهم معرضون للمؤامرات أكثر من غيرهم، لأنهم سواعدنا التي نبني بها المستقبل.

قال مولود :

- حسب خبرتي في مسيرتي الطويلة، فإن تلك الأيدي التي تحمي الفساد والنهب ستظل ممدودة، وستحاول استدراج الشباب الذين لم تتحصن هويتهم، وتقنعهم بالفوضى وأفكار الاستعمار الجديدة، وستستعمل لأجل ذلك المال والنفوذ، لأن الفوضى ستجعلنا ضعفاء أمام قوتها، وستتأخر عملية التنمية، وسنغدو عبيدا في دورتنا التاريخية الجديدة.

قال محمد واثقا :

- ثق يا مولود أن تلك الأيدي ستظل قاصرة عن إحداث ما تصبو إليه، لأنها ظالمة، و سنة الله أن الظلم لن يدوم، مهمتنا أن ندعو إلى تنقية أوساطنا من المفسدين، وهي مهمة قائمة بإذن الله.

قال مولود في ثبات :

- الذي يلج تلك الحروب، يخبر الكثير من الأسلحة، ويصاب بالصدمة وهو يرى ذلك الإصرار المذهل على إدامة اشتعالها.

ابتسم محمد وروح النصر و الأمل تملئ قلبه وقال :

- كثير من الشباب لم أتمكن من مصافحتهم في الحفل بعد خلاصي من جحيم المخيم ... كنت أنظر إليهم أمامي كالنجوم.

- طلبنا منهم أن يرأفوا بك لأنك كنت واهنا جدا ومتعبا.

- أنا الآن أتمتع بصحة لا بأس بها، أشتاق إلى مجالستهم يا مولود.

قال مولود :

- سيحصل ذلك قريبا يا أخي العزيز.

قال محمد :

- ما الذي تنوي فعله الآن يا مولود ؟

- سأنجز فيلما عن قضيتنا الوطنية، كنت دائما في اسبانيا أستنكر السينما التافهة التي تتناول بعض المواضيع الفارغة البعيدة عن هموم الناس، وأنوه بتلك التي تحمل رسالة تشد الأجيال إلى تراثهم وقضاياهم... شئ مؤسف ان لا ترتقي بعض الأعمال بالمشاهد إلى مستوى الذوق واللياقة، بل أحيانا تدمره وتحتقره وتفرغ

صورا داخل مخيلته تجعله يمزق تذكرة الدخول إلى القاعة قبل الخروج منها... لا... لا... ما أصبو إليه هو أن تكون أفلامي رسالة إلى هؤلاء الأجيال ليعرفوا الكثير عن ماضينا المجيد... عن قضايانا العادلة، وعن أبطالنا عبر التاريخ، عن الحياة والحب الصادق والنصر والقيم...

فرح محمد بطريقة تفكير أخيه مولود، وعلم أن غرسا جديدا قد انضاف إلى حقول الوطن اليانعة فقال :

- الفن في الحياة رسالة عظيمة يا مولود، شريطة أن يقوم هذا الفن بدوره، ويتناول المواضيع الهادفة التي يعيشها الناس، بطريقة هادفة أيضا... ستكون هذه مهمتك يا أخي العزيز...

قال مولود مبتسما :

- أشعر يا محمد أنني جدول عاد إلى النبع... ازدحمت أفكار كثيرة في مخيلتي، وتلح علي في إنجازها.

ضحك محمد وقال :

- يقولون أنه إذا تفنن رجل الدين وتدين رجل الفن... التقيا في منتصف الطريق، ما أوصيك به هو أن تتشبث بدينك ووطنيتك.

قال مولود مبتسما :

- أ... أ... ما أريده حقا... ما أريده هو سينما حرة، منطلقة، ناجحة، ولكنها تنقل رسالة... وتستحق أن تدعم بحق ماديا ومعنويا...يسكنني الآن غرام السينما بحقوق الانسان...هذا الانسان الذي طال عذابه.

صمت مولود قليلا وأردف :

- سيكون أحد أفلامي مقتبسا من روايتك التي أنتظر أن تبدأ كتابة فصولها لأسلمها لكاتب السيناريو و أقول له : رجل دين يكتب رواية واقعية... عاش فصولها جزءا جزءا فحاول أيها السيناريست أن تكون أمينا في تجسيدها.

- مولود !... بهذه السرعة يا عزيزي ؟... ما أعجلك...

قال مولود بصوت متقطع :

- اعذرني يا أخي...عندما يأتي اليوم الذي أنصف فيه هذه القضية، وأجسدها سينمائيا... سأحس أن اسمي حقيقة هو مولود... مولود...

أخرج مولود قلما فضيا لا يفارقه، وناول محمدا علبة مناديل ورقية كانت أمامه وقال :

- لم لا تبدأ بالكتابة الآن ؟... لم لا ؟ لو انتظرت أن أحضر لك ورقا صقيلا... إنه لوقت طويل !

ابتسم محمد وهو ينظر إليه مسرورا.

مزق مولود العلبة الورقية إلى قطع، وصففها بعناية، ثم سلمها لمحمد الذي بدأ يكتب على ظهرها مشروع أول رسائله إلى التاريخ.

تمت في : ربيع الأول 1432
فبراير 2011

إصدارات أخرى للمؤلفة :

كنز في تارودانت (مجموعة قصصية)

لم أرحل إلى الضفة الأخرى (مجموعة قصصية)

فراشات مكة ... دعوها تحلق (رواية)

حب على رصيف القرويين (رواية)